181





سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الأدب الألماني في نصف قرن

تأليف
د. عبد الرحمن بدوي



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

181

الأدب الألماني في نصف قرن

تأليف

د. عبد الرحمن بدوي



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى
المحتوى

المقدمه

توزَّعت الأدب الألماني في الربع الأخير من القرن الماضي والربع الأول من هذا القرن ثلاثة تيارات رئيسية هي: النزعة الطبيعية، والنزعة التعبيرية، والنزعة الرمزية الصوفية.

أ- النزعة الطبيعية

أما النزعة الطبيعية فكانت رد فعل ضد النزعة الرومنتيكية الألمانية ممثلة في نوفالس، وهيلدرلن، وتيك-هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد قامت، تحت تأثير النزعة الطبيعية في فرنسا، ممثلة خصوصا في إميل زولا، وفي روسيا ممثلة في دوستويفسكي وتولستوي، وفي الدول الإسكندنافية ممثلة في إبسن، وبيورنسوه واشترندبرج.

وقد دَعَتْ النزعة الطبيعية إلى الاهتمام بالشؤون اليومية، وبما هو في المرتبة الدنيا في المجتمع الإنساني، وبما هو غريزي وبما هو قبيح. ونظرت إلى الإنسان على أنه نتاج الوراثة، والبيئة المحيطة، والوضع التاريخي والاجتماعي.

وقد بدأت النزعة الطبيعية في الأدب الألماني على يد أرنو هولتس Arno Holz (1863-1929)، الذي استهل إنتاجه الشعري بديوان صغير عنوانه:

«كتاب الزمان» (سنة 1885)، وفيه تغنى بالمدن الكبرى وما يلاقيه الناس فيها من بؤس وشقاء، وبمساكن العمال التي تستروح رائحة البيرة وماء الحياة، وبالمستشفيات الحافلة بالمرضى، وبالسجون التي يلقى فيها بالأشقياء. وأعلن في هذه القصائد

الغريبة أن قطعة من الزبد أفضل من مسرحية «فاوست» لجيته! ودعا الشعر إلى أن يكون سلاحا لمحاربة مساوئ التنظيم الاجتماعي الفاسد. وقد نظم هذه القصائد، مع ذلك، ملتزما الوزن والقافية.

وبعد الشعر تحول إلى الأقصوصة. فبالاشتراك مع يوهانس شلاف - Johannes Schiaf(1862-1941) أصدر سلسلة من الأقاصيص نسبها إلى كاتب نرويجي خيالي. وجعل مبدأ الأقصوصة هو ذلك المبدأ الذي وضعه إميل زولا Zola وهو أن «العمل الفني زاوية من الطبيعة منظورا إليها من خلال مزاج».

وحاولا أن يحققا النظرة الطبيعية في الأدب، التي تقول إن «القصة شريحة من الحياة». ولهذا كانا يرويان الأحداث ثانية بثانية. ومن ثم غرقا في التفاصيل الدقيقة المملة-مما جعل أقاصيصهما تتسم بالملال والخواء والرتوب.

وهاك أمثلة على موضوعاتها: شابان يرقبان رفيقا لهما وينتظران موته بعد أن جرح في مبارزة،-أسرة مجتمعة في ليلة عيد الميلاد وهي تنتظر عودة الأب، إلخ إلخ. ولهذا تحفل هذه الأقاصيص بالأشخاص الذين هم من الأنواع التالية: ممثل مسرحي عاطل عن العمل، والد سكير، بنت مصابة بالسل، طفل مسكين.

وما لبث أرنو أن ثار على الشكل التقليدي للقصيدة: ففي كتابه: «ثورة الشعر الغنائي»(سنة 1890) دعا إلى تحرير الشعر من قواعد النظم، وذلك بأن وضع «عروضا قائما على الإيقاع الحر» وعلى ترتيب الكلمات، والتصفيف الطباعي. وأصدر مجموعة من القصائد بعنوان: «فنطاسيا» Phantasus (سنة 1925) تكثر فيها الصفات والأفعال، وتجد فيها جملة واحدة تشغل أربعين صفحة، وقصيدة واحدة تشغل 400 صفحة! وهكذا أصبحت القصيدة عنده قصيدة كونية، توالت فيها العناصر الساخرة، والدنيئة والذاتية، والمردة، والأشباح الرهيبة. فكان ذلك إيذانا بانهيار النزعة الطبيعية لديه.

وأهم منه، وأوفر حظا من الأصالة والرصانة-كان جرهرت هاوبتمنHauptmann (1862-1946). لقد كان إنتاجه-طوال أكثر من ستين عاما-هائلا: 44 مسرحية، 24 رواية «نثرية»، خمس ملاحم، مجلدان من الشعر الغنائي. وقد حفل إنتاجه هذا بالأنواع الأدبية التالية: الملحمة، المسرحية ذات النزعة الطبيعية، القصيدة الرمزية ذات النزعة الاشتراكية، أو النزعة الصوفية، الأساطير الجرمانية واليونانية والمكسيكية أو الديانة المسيحية أو الديانات الوثنية، إلخ.

لقد كان هاوبتمن على معرفة جيدة بنفسانية بني الإنسان، وبطبيعة العلاقات بين الناس في المجتمع وبظروف العمل في المجتمع المنكب على الأرباح، والمنقسم إلى مسيطرين ومنفذين. بيد أن مسرحياته وقصصه لا تهدف إلى تقديم نصائح ورسائل إلى الناس، ولا تدعي إبداء حلول لمشاكلهم. إنما يريخ بها إلى أن تكون مرايا مصقولة لأحوال الناس وعمائق طبائعهم. وهو يحنو على الذين يعانون المشاق البدنية ويستسلمون للعالم المحيط بهم، والذين خنقت مطامحهم الروحية منذ ميلادهم. فنجده في مسرحية: «قبل طلوع الشمس» (سنة 1889) يصور آلام الفلاحين. وفي أعظم مسرحياته وعنوانها: «النساجون» (سنة 1892) يصور تمرد عمال مقاطعة سيليزيا، الذين ثاروا على ملاك مصانع النسيج، ودمروا منازلهم وأثاثها، لكن القوة العسكرية أخضعتهم بوحشية. والموضوع نفسه-أعني: بؤس الفقراء-نجده في مسرحية «سائق العربة هنتس» (سنة 1898) ومسرحية: «روزا برند» (سنة 1903). وهو ينعى على البيروقراطية غطرستها، كما ينعى على الطبقة الوسطى الصغيرة انحلالها، وذلك في مسرحية: «الفئران» (سنة1911).

لكنه ما لبث بعد ذلك أن تخلى عن هذه النزعة الطبيعية، واتجه إلى رومنتيكية جديدة، ورمزية جديدة. فصارت أعماله الفنية بعد ذلك تتناول الموضوعات التالية: الحب، الطبيعة، الطيبة الأصيلة في الإنسان، المكاشفة مع الله الخالق، وهذه الموضوعات نجدها في قصصه التالية: «الرسول» (1890) «المجنون بالمسيح: إمانويل كوينت» (1910)، «ملحد سوانا» (1918)، «جزيرة الجدة» (1921). فهو في رواية: «ملحد سوانا» يروي قصة قسيس كاثوليكي تخلى عن مهنة القسيس وراح يعيش عيشته الطبيعية مع فلاح قوي البنية. وفي رواية: «المجنون بالمسيح: إمانويل كوينت» يروي حياة نجار في سيليزيا راح يقلد يسوع المسيح: فهل هو قديس، أو مجنون؟ هذا ما لم يوضحه هاوبتمن في روايته هذه.

وفي العشرين سنة الأخيرة من حياته انصرف هاوبتمن إلى النوع الملحمي. وأهم الملاحم التي كتبها في هذه الفترة هي: «تل أو يلنشبيجل» (1927)، و«الحلم الكبير» (1942). وهذه الملاحم هي قصائد كونية فيها يختلط كل شيء: اللوحات التاريخية، والأساطير، والملامح الشخصية، والتأملات الدينية. فإن تل أويلنشبيجل Eulenspiegel هو طيار اشترك في الحرب

العالمية الأولى (1914-1918) ثم شهد الانقلاب العسكري الذي قام به كاب ولوتفتس، وما حدث عقب الحرب من اضطرابات في ألمانيا. لكننا نراه بعد ذلك يشترك في مجمع ديني تواجهت فيه الأديان، فأدرك عبث الجهود الإنسانية. ثم طار بعد ذلك إلى بلاد اليونان، وامتطى قنطور خيرون لينزل إلى العالم السفلي. وأخيرا وجد المسيح على جبال سويسرا، على هيئة راع بسيط متواضع!.

وأما الملحمة الثانية: «الحلم الكبير» فقد صبها على قالب «الكوميديا الإلهية»للشاعر الإيطالي الكبير: دانته Dante. فبعد أن ذكر أمه وزوجته الأولى راح يصف -رمزيا-فظائع الحرب. ثم خاض عوالم رمزية. ووصف مخازي الكنيسة الكاثوليكية. وصعد إلى قمة جبل البرناس في اليونان، حيث شهد اجتماع المسيحية والروح اليونانية.

وهكذا بدأ-شأنه شأن أرنو-بالواقعية والنزعة الطبيعية، وانتهى إلى اللاواقع واللا معقول!

ب -النزعة التعبيرية

وفي مواجهة هذه النزعة الطبيعية، قامت النزعة التعبيرية Expressionismus. فأعلنت إفلاس الإيمان بالطبيعة وبالنظرات الرومنتيكية معا. وطالبت بإعادة خلق العالم ابتداء من الإنسان وحده، وببناء مجتمع متحرر من كل أنواع المحرمات ومن القيود والعوائق.

وراحت تستكشف خفايا النفس واللاشعور، والعاطفة، والأنا، والانفعالات الفردية. وتعلقت بـ «الأنا»، وجعلت شعارها هو: «ما ليس الأنا مباشرة هو ليس بشيء». وتغلبت عليها النزعة إلى اللامعقول، وإلى التناقض، وإلى التلقائية والسذاجة. وبهذه النزعة صارت ألمانيا طليعة الأدب في أوروبا، بعد أن كانت تسير في أعقاب الحركات الأدبية في سائر أوروبا.

وأبرز رجالها في الشعر: هايم Heym، وجورج تراكل Trakl، وبرشت Brecht، وفرفل Werfel، وجوتفريد بن Benn.

وأشهر المؤلفين المسرحيين هم: كازمير إدشمدت Edschmidt إرنست برلاخ Barlach ، وجيورج كايزر Kaiser، وكارل اشترنهايم وفرتس فون أونروه Unruh، وأوسكار كوكوشكا Kokoschka وراينهرد جيرنج Goering، وكارل كراوس Kraus، وإرنست تولر Toller. ومن بين القصصيين نذكر: فرانتس

كافكا Kafka وألفرد ديبلن Doblin، وروبرت موزيل Musil.

وقد حاول البعض حصر جوهر النزعة التعبيرية في مفهومات محددة هي العنصر السائد في مذهبهم الأدبي. لكن تبين أن هذا الحصر إن انطبق على البعض فإنه لا ينطبق على البعض الآخر:

1- فقد حصرها البعض في تحطيم الشكل اللغوي، وفي الإكثار من التجارب الشكلية. لكن هذا الأمر لا ينطبق على كثير منهم: فإن هايم Heym حافظ على الأشكال اللغوية التقليدية، وتراكل Trakl لم يكد يغير فيها شيئا، ونثر كافكا ملتزم بالقواعد، ويتسم بالوضوح والنصاعة.

2- وحصرها البعض في المبالغة، وفي الخروج على المألوف، وفي العربدة. لكن هذا الأمر لا ينطبق على استرنهايم Sternheim وسخريته الباردة، ولا على جوتفريد بن Benn صاحب الأسلوب التشريحي الصارم.

3- ورأى فيها البعض نزعة إلى الرؤى التهويلية المدمرة. لكننا نجد عند بعض رجالها نزعة إنسانية غالبة، ودعوة إلى إيجاد فردوس من الإخاء بين الناس على الأرض.

4 - ونعتها البعض بالنزعة إلى التمرد والعنف وقلب الأوضاع القائمة. لكننا نجد مع ذلك بين دعاتها من نأوا جانبا عن السياسة واعتصموا بقلعة الفن للفن.

وبالجملة، فإن من الصعب-بل المستحيل-حصر النزعة التعبيرية في مفهوم واحد بعينه أو في اتجاه واحد.

إن هذه الحركة كانت وليدة العوامل التالية:

أ- النزاع الحاد بين الأجيال من ذلك النوع الذي عرفه الألمان في سنة 1770 وما حولها، وهو ما يعرف بحركة «العاصفة والاندفاع».

ب -الأزمة الحضارية التي عانتها ألمانيا قبيل الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها.

جـ -الشعور العارم بضرورة التجديد، سواء في المعاني وفي الأشكال.

د -التأثير الهائل الذي أحدثته فلسفة نيتشه من ناحية، وعلم النفس عند فرويد من ناحية أخرى.

وقد عبرت هذه الحركة عن نفسها في مجلات أدبية. في برلين: «مجلة العاصفة» (منذ سنة 1910)، ومجلة «الفعل» Aktion (منذ سنة 1912)، -وفي

ليبتسك: مجلة «الأوراق البيضاء» (منذ سنة 1913). وابتداء من هذه المجلات تحددت الجمعيات الأدبية واتجاهاتها الخاصة بها داخل الحركة كلها. فمجلة «العاصفة» اتجهت إلى تمجيد «التجريد» في الفن والشعر والمسرح. ومجلة «الفعل» دعت إلى السلام ونبذ الحروب.

وتزامن مع هذه النزعة الأدبية تيار فلسفي يتميز بالشك في قيمة العلوم التجريبية، وبازدراء الآلية وبيان خطرها على الإنسان، وبالفزع من طغيان «المدنية» على «الحضارة» بالمعنى الذي حدده اشبنجلر Spengler».

وأدى عدم الاستقرار السياسي إلى التنبؤ بوشك وقوع كوارث عالمية.

وشملت هذه النزعة كل الفنون: التصوير، النحت، الموسيقى، المسرح.

فاتجه الفن إلى التمزيق وعدم الانسجام. لقد اثر الشدة على الانسجام، والزعزعة على الإمتاع.

وخشي أن يكون «الجمال» هو مجرد الهروب في الخيال. ومن هنا نجد تمردا على الفن الكلاسيكي، كما هو مشاهد في كتاب فلهلم فورنجر Worringer وعنوانه: «التجريد والشعور الباطن» (سنة 1908).

والمسرحية التعبيرية -وقد ازدهرت بين 1910 و 1924 كانت تتميز بالتعبير عن أعمق عمائق الشعور الباطن في الأنا. والشخصية الرئيسية فيها كانت بمثابة الأنا الآخر alter-ego للمؤلف. وتتميز بالتمرد على بناء المجتمع، وبالتوكيد على اللغة والأسلوب الغنائي. والمجتمع الذي ثارت عليه المسرحية التعبيرية كان هو المجتمع الألماني قبل الحرب العالمية الأولى، هذا المجتمع القائم على سيطرة الأب وتدمير الشخصية الفردية. ولهذا نجد في المسرحيات التعبيرية مناظر فيها يتمرد الأبناء على الآباء، ويؤكدون شخصياتهم بالازدراء بآبائهم. وعادة ما يعبر الشخص في المسرحية عن آرائه وهواجسه في مونولوجات طويلة، تستعمل فيها لغة مجازية. أما الشخصيات الثانوية فكانت في الغالب أشخاصا فضوليين يمثلون الأسرة والتقاليد. وقد تأثرت المسرحية التعبيرية -من حيث الأسلوب واللغة-بأوجست اشترم Stramm، الشاعر الذي قتل في ساحة المعارك في الحرب العالمية الأولى. وتتميز هذه اللغة بالاقتصار أحيانا على الكلمات ذوات المقطع الواحد، وتجنب التحليل الوصفي للانفعالات أو الموقف.

ومعظم رجال النزعة التعبيرية لم يعيشوا طويلا، بل اخترموا فى ميعة

الشباب. وكثير منهم قُتِلوا صرعى الوغي في الحرب العالمية الأولى، مثل تراكل (1887- 1914) وزورجه Sorge (1892-1916)، واشتادلر (1883ـ 1914) واشترم (1874- 1915) وأنجلكه Engelke (1890- 1918). وقد انتحر بعضهم، مثل كارل إينشتين (1885- 1940)، وكليفر (1890-1940) وأرنست تردلر (1893-1939). ومنهم من قتل في حادثة، مثل جورج هايم Heym (1887 -1912) وهو في الخامسة والعشرين من عمره.

والآن فلنجتزىء بالقليل لتحديد إنتاج بعض هؤلاء:

أ- أما جورج هايم (1887- 1912) فلم ينتج إلا القليل، نظرا إلى قصر عمره. وكل ما له هو مجموعة شعرية صغيرة بعنوان: «اليوم الأبدي» (1895)، ثم مجموعة قصائد نثرية سماها هو بالأقاصيص، وعنوانها: «العصر» (1912). بيد أنه خلف أوراقا عديدة تزن قنطارا، ومن الصعب استخراج كتب منها. وكل ما استخلص منها هو مجموعة صغيرة من القصائد صدرت في سنة 1912 بعنوان: «ظل الحياة» ومنها أيضا يوميات خاصة دمر منها أبواه النصوص التي وجداها فاضحة.

والموضوعات الرئيسية التي يطرقها هايم في قصائده وأقاصيصه هي: ضواحي المدن البائسة، قاعات المستشفيات والمقابر، الولادة، التشريح، العميان، المنتحرون، ألوان البؤس والشقاء والدمامة. وعلى عكس ما نجد عند أصحاب النزعة الطبيعية، نجد أن العالم عنده هو عالم الخيال المملوء بالأشباح، و(إله) المدينة الجاثم فوق المنازل هو الإله «بعل» ذو البطن الحمراء، والمحاط ببخور مداخن المصانع. كما أنه يصور «عفاريت المدينة» بأن لكل واحد منهم قدما في الميدان، وقدما أخرى على برج، ويعزف على ناي الإله «بان» Pan، ويدس يده بين جمهور الناس كما يدس الفونا Fauna ذراعه في الطين. ويتحدث عن «النوم»ذي الأجنحة الخضراء، وعن «القمر» الذي يقطر سمومه في دماء النائمين-ويقول عن «الحرب» إنها تسحق القمر بيدها السوداء، وعن «جثث الموتى» إنها ترقد في بطون الطين. وبالجملة، فإنه في قصائده يستدعي الرؤى المروّعة، والقشعريرة الرهيبة.

ب - وجورج تراكل (1887- 1914) قريب الشبه بهايم: فهو مثله مولع بالصور الرهيبة للانحلال، والفساد، والموت، ومولع بالتنبؤ بالكوارث القادمة. فهو يقول مثلا: «إن الطيور تسقط من سماء فاترة في ثقوب خضراء من

العفونة، والهواء مشبع بالرائحة الكريهة السمراء، والفئران، والغربان والذباب تملأ عالما من الكوابيس. ودماء السلخانات تصب في قنوات حقيرة. وعلى المدينة تجثم ريح «الفون» .Fohn وكثيرا ما يورد أسماء العفاريت مخترعا بعضها، ومستعيرا البعض الآخر من الكتب الدينية مثل عزرائيل والشيطان. ويقول إن الطمع في المال والجشع إلى الذهب يجلبان غضب الله وستأتي الطواعين القرمزية والمجاعات لمعاقبة «روح الشر» وستصبح المدن فرائس للحرائق وستسقط الشعوب في هاوية النسيان.

بيد أن «تراكل» لا يقتصر على هذا الوجه البشع للوجود، بل نراه يتغنى بالوجه الآخر المضاد، فيشيد بالبراءة، ويشتاق إلى السعادة النضرة. وتكثر الرموز المسيحية في قصائده: الصليب، الخبز والخمر، الملائكة والقديسون، الخطيئة، الجسد والشهوات.

وقد نشر إبان حياته مجموعة من القصائد بعنوان: «قصائد»(سنة 1912). ونشر له بعد وفاته: «سبستيان في الحلم» (1915). وجمعت قصائده في ديوان (الطبعة الأولى 1919، والثانية -وهي أكمل من الأولى-في سنة 1938) بعنوان: «الأشعار».

ولا شك في أن «تراكل» هو من بين الشعراء التعبيريين أوفرهم حظا من الموهبة الشعرية، وهو أيضا أكثرهم قلقا، وأشدهم تمزقا، وأقدرهم على التعبير عن الجانب الأسيان من الوجود.

ومن هنا عني به مارتن هيدجر، مؤسس المذهب الوجودي، فخصه بدراسة عميقة، إذ يرى في تراكل أنه «شاعر الغرب الذي لا يزال مستسرّا، والمبشر بإله المستقبل».

وقد جُرِحَ «تراكل» في معركة جرودك Grodek في أكتوبر سنة 1914 جراحا مميتة، ونقل إلى كراكوفيا للعلاج، لكنه توفي في 3 نوفمبر 1914. وفي أثناء علاجه نظم قصيدة عن هذه المعركة، يقول فيها: «إن الدم المسفوح يتراكم على شكل سحابة حمراء فيها يسكن إله غاضب... وكل الطرق تفضي إلى عفونة سوداء».

جـ - وأما جوتفريد بن Benn (1986 -1956) فإن عمره قد استطال، على العكس من رفيقيه السابقين، إذ توفي في السبعين من عمره. وقد درس الطب، وحصل على إجازة فيه سنة 1910. ونشر أول ما نشر مجموعة من

القصائد بعنوان: «المشرحة الخاصة بالموتى، وقصائد أخرى» (1912).

وعقد علاقات مع أكبر التعبيريين في برلين وصار طبيبا عسكريا أثناء الحرب العالمية الأولى. وبعدها استقر في برلين طبيبا متخصصا في الامراض الجنسية والجلدية. وواصل إصدار مجموعاته الشعرية: «الأبناء»(1913)، «اللحم» (1917)، «الأطلال» (1919)، «الكسور» (1925)، «قصائد سكونية» (1948)، «السيل السكران» (1949)، «شذرات» (1951)، «العاقبة» (1955).

وفي مجموعته الأولى: «المشرحة» طاب له أن يصف المستشفيات بما فيها من مآس وأهوال: القاعات المخصصة لمرضى السرطان، صرخات الألم الصادرة من النسوة أثناء الولادة، سكرات المشرفين على الموت، الجروح المتعفنة، الموت، الأورام، غريقة صار قفصها الصدري مغارة للفئران، إلخ.

وفي مجموعة «الأبناء» ومجموعة «اللحم» يكشف الستار عن الحياة اليومية بمخازيها: عربة قطار سريع مملوءة بشهوات رخيصة، بار فيه أوركسترا رديء، إلخ. إنه عالم من العدم يواجه الإنسان الممزق في كل يوم.

جـ- النزعة الرمزية الصوفية

أما التيار الثالث فهو النزعة الرمزية والصوفية. وكان على رأسه استيفن جيورجه (1868-1933).

ولد جيورجه George في بودسهيم، وهي قرية يسكنها زرّاع كروم، بالقرب من مدينة بنجن Bingen على نهر الراين ومن هنا كان تعشقه لهذا النهر واستلهامه الدائم له في كثير من قصائده. وورث من أمه تقوى كاثوليكية متحمسة لكنه ما لبث أن فقدها، وهو في سن العشرين، فصار متحررا من العقيدة الدينية، وثائرا اجتماعيا متطرفا. ولما كان موهوبا من ناحية تعلم اللغات الأجنبية فإنه أتقن اللغة الإيطالية وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبدأ بالتنقل بين دول أوروبا لإتقان لغاتها، وذلك في سنة 1888. فسافر إلى إنجلترا، وسويسرا الناطقة بالفرنسية، وشمالي إيطاليا.

ووصل إلى باريس في مارس 1889. وهناك التقى الشعراء الرمزيين وزعيمهم مالارميه Mallarme، وحضر أمسياتهم في شارع روما في بيت مالارميه. فكان لهذا اللقاء أثر حاسم في توجيهه الشعري، فصار ذا نزعة رمزية واخترع لغة خاصة سماها باسم Lingua Romana. ونظم بهذه اللغة

تسع قصائد سماها «رسوم باللون الرمادي» (1889)، وما لبث أن ترجمها إلى اللغة الألمانية. وهذه القصائد منظومة بالنظم الحر. وأصدر بعد ذلك مجموعة من القصائد بعنوان: «ثلاث أساطير»، استخدم فيها لغة جديدة حافلة بالألفاظ العتيقة والتعبيرات الأجنبية. وراح يستبعد علامات الترقيم، ويغير في الرسم الإملائي للكلمات.

وفي برلين، حيث أتم دراسته في سنة 1890، أصدر مجموعة شعرية بعنوان: «أناشيد» Hymnen، وهي تعد بمثابة «بيان» يعلن فيه عن الشعر الغنائي الجديد. وموضوع هذه «الأناشيد» هو الإبداع الشعري نفسه: ففيها استخدم لغة جديدة تتسم بالموسيقى وبالغموض، وفيها تجنب التفاهة والسطحية والعاطفية، وأفرط في الصنعة الشعرية. أما الإيقاع الموسيقي فيتصف بالصرامة والجد، والتركيب النظمي دقيق، والقوافي نادرة.

وقد خلت هذه القصائد من كل ما دعا إليه أصحاب النزعة الطبيعية. وليس فيها أية دعوة اجتماعية ولا مشاكل تتعلق بحياة البائسين والأشقياء، وخلت من كل لهجة شعبية. لقد قطع الفن الشعري علاقته بالمجتمع وقضاياه، وراح ينشد في ذاته موضوعاته وتوجهاته. لقد أراد جيورجه للشعر مهمة «مقدسة»، وعد الشعر نوعا من الديانة.

وبالروح نفسها نظم المجموعة الشعرية التالية، وعنوانها: «الحج» (1891) وتدور حول غرام بائس، وذكريات عن إسبانيا وفينيسيا.

والمجموعة الثالثة عنوانها: «ألجابال» (1892) -وهو لقب الإمبراطور الروماني سكستوس بسيانوس (204-222) الذي كان إمبراطورا من سنة 218 إلى سنة 222، وبعد حروب دامية كرّس نفسه لعبادة الشمس. وكان حكمه سلسلة من الاضطرابات، وكانت السلطة الفعلية في يد أمه وجدته يوليا موئسا. وانتهى أمره بأن اغتاله الحرس الإمبراطوري هو وأمه، وألقى بجثتيهما في نهر التفره.

وجيورجه في هذه المجموعة الشعرية يحاول رد الاعتبار لهذا الإمبراطور الشنيع السمعة، ويدافع عن التخريب والشر!! ويتخيل الإمبراطور وقد شيد قصرا تحت الأرض حافلا بالغرائب، تحيط به حديقة بلون الزفت، وتنمو فيها شجرة تنتج وردا أسود اللون. والمعاني التي توحي بها هذه القصيدة الرمزية الغريبة هي: قطع العلاقة مع المجتمع، إبسال[1] العالم،

تشبيه الجمال بالموت، وعبادة العدم.

وفي نهاية سنة 1891 وصل إلى فيينا، وفيها تعرف إلى الشاعر هوفمنزتال.

وفي أكتوبر 1892 أصدر مجلة بعنوان: «أوراق في الفن»، استمرت حتى سنة 1919، وصارت لسان حال دائرة من الشعراء والكتاب والفلاسفة والرسامين، يذكر منهم: هوفمنزتال، ولدفج كلاجس، وفولفسكيل، وفريدرش جوندولف، وفولترز Wolters، وهلدبرنت، وكومرل، وكنتورفتس وسالين Salin، وإرنست برترام. وكان لهذه المجلة تأثير كبير جدا في الأدب والفن والعلم في ألمانيا، في تلك الفترة وما تلاها.

وحرصت هذه المجلة وكتابها على اتخاذ الشعار التالي: «الفن للفن»، فانصرفت عن المشاكل الاجتماعية وركزت كل اهتمامها على «الجمال من أجل الجمال»، لا من أجل أية غاية أخرى.

وواصل جيورجه إصدار مجموعات شعرية، فأصدر ما يلي:

- «كتب الرعاة والمدائح والأساطير والأغاني والحدائق المعلقة» (1895).- «عام النفس» (1897).
- «بساط الحياة» (1899).
- «الخاتم السابع» (1907).
- «نجم التحالف» (1914).
- «المملكة الجديدة» (1928).

وفي هذه القصائد يؤكد جيورجه أن الشعر يعمل في خدمة ما هو خالد وثابت، وأن الشاعر كاهن يقدم القرابين إلى الجمال من أجل الجمال وحده، وعلى مذبح الفن. إن الشعراء نوع من الكهنوت. إن الشعر هو رسالة السحرة والمشتغلين بالأسرار والباحثين عن بواطن النفوس. إن للشعر بعدا دينيا. إذ هو يشيع الإحساس بما هو إلهي، بعد أن خلا العالم من الشعور بالألوهية والفنان إنسان متوحد قد أسلم نفسه لقراءاته وتأملاته وتساؤلاته. وهو في مجموعة «الخاتم السابع» وفي «نجم التحالف» يتغنى بالوحي والتجسد. إن الله لم يعد كائنا مجردا بل هو حي فينا، وفي كل شيء، وفي قلب الطبيعة.

كذلك نجده في «الخاتم السابع» يحمل حملة شعواء على العالم المعاصر، ويتمنى حدوث كوارث عظمى تطيح به. وتسوده لهجة بالغة العنف، شديدة

السخرية والتهكم. وقد ركب هذا الكتاب تركيبا عدديا رمزيا: إذ هو يتألف من سبعه أسفار مرتبة على شكل دوائر متداخلة حول السفر الذي عنوانه Maximin، والذي فيه يمجد جيورجه معبودا جديدا هو الفتي مكسلميان كرونبرجر الذي كان صديقا له، وتوفي في زهرة الصبا. وحول هذا الفن الذي اخترع جيورجه أسطورته أنشأ نوعا من «الغنوص»أو العرفان الصوفي، قريب الشبه بما صنعه الصوفي العربي العظيم: محيي الدين ابن عربي (المتوفى سنة 638 هـ) مع معشوقته الصغيرة التي تغنى بها في ديوانه: «ترجمان الأشواق».

وعلى الرغم من الدائرة التي انعقدت حول هذا «الكاهن الأكبر» استيفن جيورجه، فإنه لم ينبغ من أعضائها ويحتل مكانة بارزة في الأدب غير شخص واحد هو هوجو فون هوفمنزتال (1874- 1929).

لقد كان هوفمنزتال مبكر النضج جدا. فإن قصائده التي نظمها وهو في سن السابعة عشرة هي أنضج وأفضل أشعاره. وهو قد ولد في فيينا من أسرة كاثوليكية ثرية ووافرة الثقافة، وذات نزعة عالمية. وهو قد نشر أولى قصائده في سنة 1890، ونشر أول مقال في سنة 1891. وصار يعد منذ ذلك الحين زعيما لجماعة «المجددين» في فيينا، وعقد مع استيفن جيورجه صداقة عابرة، وانضم إلى «دائرته» السابقة الذكر، لكنه ما لبث أن انفصل عنها.

وقام برحلات عديدة في ربوع أوروبا، نذكر منها رحلة إلى بلاد اليونان، برفقة النحات الفرنسي أرستيد مايول. وعقد أواصر صداقة مع الموسيقار الألماني العظيم رتشرد اشتراوس وكتب بعض نصوص أوبراته، وأبرزها أوبرا «إلكترا». وابتداء من سنة 1920 ركز اهتمامه في المسرحيات والأوبرات. وأسس في سنة 1922 مع المخرج المسرحي الألماني العظيم ماكس رينهارت «موسم (سالزبورج) للتعبير المسرحي والموسيقي».

ونذكر من مؤلفاته:

في الشعر: «قصائد مختارة» (1903)، «مجموع القصائد» (1907).

في المسرح: المسرحيات اليونانية الاستلهام: «أوديب ملكا» (1906)، «إلكترا» (1904)، «أوديب والإسفنكس» (1906).

المسرحيات الغنائية: «موت تتسيانو» (1892) وقد مثلت في سنة (1901)، «البوابة والموت» (نشرت سنة 1900).

نصوص الأوبرات: «فارس الوردة» (1911)، «أريان على ناكسوس» (1912)،-

«امرأة بلا ظل» (1916)، ووضع موسيقى الأوبرات الثلاث رتشر اشتراوس، كما وضع موسيقى «إلكترا» و«أوديب».

مسرحيات أسرار دينية: «كل إنسان، أو لعبة موت الرجل الثري» (1911)، «البرج» (1925).

الكوميديات: «المتردد» (1921)، «الرجل النزيه» (1923).

وقد اختلف الناس في تقديره: فمنهم من نعته بالسطحية ونعى عليه أنه لم يبدع لغة جديدة وبقي أسير التقاليد، ورأى فيه مجرد أديب ماهر في استغلال الأدب الماضي لكن هذه الأحكام جائرة ومبالغ فيها. فقد كان هوفمنزتال شاعرا رقيقا ومتعدد الجوانب. وكان مؤلفا مسرحيا ناجحا في كتابة مسرحيات للأوبرا.

لكن من الصعب إدراجه تحت مذهب أدبي معين. ولهذا لم تكن صلته بدائرة استيفن جيورجه إلا نزوة عابرة ما لبث أن تخلص منها، لأن نزعته الأصيلة كانت ضد النزعة الصوفية العتيقة عند جيورجه. لقد كان ميالا إلى التقاليد، مدافعا عن الحضارة الموروثة، ذا مزاج يؤثر الاعتدال، وينفر من التجديد العنيف.

وعلى العكس من كليهما كان رلكه (1875- 1926): لم يجنح إلى العنف والغموض والإسراف في التجديد-كما نجد ذلك عند استيفن جيورجه، ولم ينزع إلى الرقة، والسطحية والاعتدال الضحل كما نجد ذلك عند هوفمنزتال. بل كان رلكه نسيج وَحْده. ومن هنا حظي بأوسع شهرة وأرفع مكانة في الشعر الألماني طوال القرن العشرين. وتفصيل ذلك ستجده في باقي صفحات كتابنا هذا.

١ رلكه (حياته وشعره)

مرحلة الطلب

١- مولده وأسرته

ولد راينر ماريّا رلكه في مدينة براج، عاصمة دولة تشيكوسلوفاكيا، في ليلة 3 إلى 4 ديسمبر سنة 1875، في البيت رقم 19 من حارة هاينرش. وكان ميلاده قبل اكتمال حمله بشهرين، وهو أمر ردّ إليه رلكه السبب في ضعف بنيته طوال حياته.

وكان والده كاثوليكيا وكذلك أمه. وهذا الأب، يوسف رلكه، ولد في سنة 1838 في مدينة أشفابتس بمقاطعة بوهيميا، التي كانت آنذاك إحدى ولايات إمبراطورية النمسا. ودخل المدرسة العسكرية والتحق بالجيش النمساوي، واشترك في حملة النمسا ضد إيطاليا في سنة 1859 وهو برتبة «صول». وعين لفترة قصيرة آمرا (قومندان) على حصن برشيا. لكنه اضطر إلى ترك الجيش بسبب مرض مزمن في الحلق، والتحق بإدارة السكك الحديدية. بيد أنه حافظ على سمته العسكري، والاهتمام بمظهره الخارجي، كاظما الغيظ لإخفاقه فيما هدف إليه، بينما صار أخوه: ياروسلاف، محاميا ونائبا في برلمان الولاية.

وتزوج هذا الوالد في سنة 1873 بصوفيا إنتس

Enz المولودة في سنة 1851، وكان أبوها تاجرا ومستشارا إمبراطوريا. وصوفيا هذه كانت فتاة أنيقة سوداء العينين، ساحرة الشفتين، مقبلة على الحياة الاجتماعية. لكن زواجها هذا من رجل أميل إلى العبوس، متوسط الحال-طامن من إقبالها على الحياة، و هاض جناح نزعتها العَرِمة إلى الاستمتاع. فانكفأت على نفسها. ومن ثم لم يستمر الزواج سعيدا إلا عشر سنوات، بعدها عاش الزوجان في حال انفصال لأنهما وهما كاثوليكيان لم يستطيعا الطلاق. غير أن الأم هي التي تكفلت بالابن منذ سنة 1884.

وهاهنا أمر غريب اشترك فيه رلكه مع نيتشه، وهو حرص كليهما على ادعاء أنه من سلالة نبلاء! فقد ادعى رلكه أنه ينحدر من سلالة من الضباط المنحدرين من نبلاء في إقليم كارنثيا، كما ادعى نيتشه من قبله أنه ينحدر من أسرة نبيلة بولندية هي آل نيتسكي. وقد قامت الانسة نوفوتنا Novotna في سنة 1930 ببحث هذا الادعاء، واطلعت-من أجل ذلك-على سجلات الأحوال المدنية في الأبروشيات، وفي وزارة الداخلية، في براج، وفي «سجل النبالة» في فيينا. واستطاعت أن تحدد شجرة نسب رلكه حتى سنة 1877، ولم تجد فيها أي أثر لنبالة. وكل ما هنالك هو أن عمّ الشاعر-ويدعى ياروسلاف رلكه-قد منحه إمبراطور النمسا في سنة 1873 تاجا من الحديد، ولقب فارس رولكن مكافأة له على ما قام به من خدمات لبلده، لما كان نائبا في مجلس الولاية، فاختار حينئذ «رنكا» يربطه بأسرة نبيلة من كارنثيا، ورد ذكرها في «سجل الرنوك» الذي صنعه زيبماخر Siebmacher. وبعدها جاء زيبر Sieber-صهر رلكه-فاستند إلى محفوظات جمعتها زوجته وحفظت في فيمار، وأيد النتائج التي وصلت إليها الانسة نوفوتنا السابقة الذكر. والخلاصة هي أن أجداد رلكه لأبيه كانوا من صغار الملاك الزراعيين الذين استقروا في شمال وشمال غرب بوهيميا. أما أجداده لأمه فكانوا من الطبقة الوسطى في مدينة براج[1].

يلوح أن رلكه كان أشد تعلقا بأبيه منه بأمه. ولعل السبب في ذلك غرابة أطوار أمه: فهي لما خاب أملها في السعادة الزوجية تغلبت عليها نزعة سوداوية مقترنة بنزعة كاثوليكية متشددة، مما جعلها تنطوي على نفسها في بيتها، وتحيط نفسها بمظاهر التقوى: صور دينية، صلبان، كتب صلوات. يضاف إلى ذلك أنها كانت تتمنى أن ترزق ببنت، بدلا من الولد. ولهذا

حرصت على إلباس ابنها الصغير ملابس بنت.

ويرى زيبر[2] Sieber -صهر رلكه-أن رلكه ورث الخيال عن أمه، وأن ميوله المرضية قد شجعتها أمه، وأن أمه هي التي دفعته إلى قراءة العديد من الكتب، ونمت موهبته في الرسم. ويذكر «زيبر» من رسوم رلكه: رسما لمعركة بين فارس أحمر مغطى بالنياشين، وبين وحش رأسه رأس تمساح، وذيله على شكل حية. ورسما آخر لضابط شاب ضرب ضربة قاتلة فانهار، وسنده ضابط آخر، بينما الهجوم الظافر يتقدم في خلفية اللوحة. وهذه الرسوم رسمها رلكه وهو في الخامسة والسادسة من عمره.

وقد توفي الوالد في سنة 1906، بينما عاشت الأم بعد وفاة ابنها خمس سنوات، إذ توفيت في سنة 1931 وهي في الثمانين.

واختشب الشعر[3] قبل العاشرة من عمره. وبقيت لدينا من هذه الفترة قصيدة واحدة عنوانها: «شكوى من حزن» فيها يصف ضابطا برتبة لواء، وقد قتل في الحرب، وسجي في كفن ملكي وسط قصر صامت، وخطيبته، التي هجرت كل شيء من أجله، تموت بين ذراعيه.

2- في المدرسة العسكرية الثانوية في سانت بولتن والكلية الحربية في ميرش فايسكرشن

بدأ تعلمه في مدرسة البيارستن في براج. ثم التحق بالمدرسة العسكرية الثانوية في مدينة سانت بولتن Saint Polten بالقرب من فيينا، من سبتمبر 1886 حتى 1890. وانتقل منها إلى الكلية الحربية العليا في ميرش، فأمضى فيها عاما واحدا (1890-1891). وهكذا أمضى خمس سنوات في هاتين المدرستين العسكريتين بهدف أن يتخرج ضابطا في الجيش.

وقد اختلف الباحثون في تقويم هذه التجربة لهذا الصبي الحالم في مدرستين عسكريتين تتسمان بالنظام الصارم والشظف والقسوة. فزعم البعض أن حياته في تلك الفترة كانت محنة عذاب أثرت في نفسه الغضة المرهفة الحساسية، وكان لها تأثير عميق سيئ في مجرى حياته وإنتاجه فيما بعد.

وهنا نتساءل أولا: هل دخل هذه المدرسة العسكرية رغم أنفه؟

لقد شاهدناه في الرسوم التي رسمها وهو في الخامسة والسادسة من عمره مولعا بتصوير المعارك الحربية، والفرسان، والضباط المستشهدين في ساحة القتال. أليس ذلك دليلا على أن نفسه كانت في صباه تنزع إلى

ممارسة الحرب واكتساب البطولة في ميادين القتال؟. ثم إن أباه كان جنديا واشترك في معارك. أفلا يحلم الطفل بأن يكون مثل أبيه؟ ومادام كان يحلم بالنبالة، فإن الطريق الوحيد لنيل لقب «نبيل» هو الحرب. لهذه الأسباب الثلاثة نعتقد أن رلكه كان يود الانخراط في الخدمة العسكرية منذ نعومة أظفاره، وأنه أقبل على المدرسة العسكرية متحمسا لها.

ويدل على صحة فرضنا هذا أن رلكه-كما يروي صهره «زيبر» (ص 85 وما يتلوها)-لم يشك أبدا في رسائله إلى أبويه من سوء المعاملة ولا من قسوة النظام في المدرسة الحربية، فضلا عن أنه كان في الامتحانات يحصل على مرتبة «جيد»!![4]

لكن يبدو أن حماسة الفتى للحياة العسكرية قد خفت شيئا فشيئا بمضي الأيام. ذلك أن التعليم في هذه المدرسة كان يتولاه صغار الضباط وضباط الصف. وكان مقصورا تقريبا على الألعاب الرياضية: من ألعاب سويدية إلى سباحة ومسايفة وسير طويل على الأقدام. هذا إلى جانب الاستيقاظ في الساعة الرابعة صباحا صيفا وشتاء. لكن ربما كان أشد ما ضايق هذا الفتى الرقيق الحالم في هذه المدرسة هو معاملة رفاقه، والأجلاف منهم بخاصة، وما أكثرهم في مثل هذه المنشآت التربوية!. إن أشد ما يلقاه التلميذ من عذاب في مدرسته هو ما يصيبه من سفالة زملائه التلاميذ الأشرار الأجلاف. إنه إن لم يستطع أن يرد شرهم بما هو شر منه، فإنه سيشعر بالذل، وسينطوي على نفسه، ويجتر آلامه وهمومه وقد يتمنى الموت للخلاص من هذا العذاب.

وهذا ما حدث فعلا لرلكه. وإنا لنجده في رسالة إلى خطيباه-كتبها بعد تركه المدرسة الحربية-يذكر أنه كان يتمنى الموت للخلاص من عيشته في تلك المدرسة فهو يقول «أبت عليّ كبريائي إلا أن أتحمل عذابي. وفي نفسي الطفلة اعتقدت أنني بصبري سأقترب من فضائل يسوع المسيح. ولما أصابتني في وجهي صفعة شديدة ذات يوم، إلى حد أن ركبتي ارتعدتا، قلت لمهاجمي الظالم-ولا يزال هذا الكلام يرن في أذني حتى اليوم-قلت له بصوت هادئ: «إني أحتمل هذا لأن المسيح احتمله دون أن ينبس بكلمة ولا بشكوى. وبينما كنت تضربني كنت أدعو الله الرحيم أن يغفر لك»».

من وحشية زملائه التلاميذ الأشرار لم يجد رلكه الرقيق الحاشية

المرهف الحساسية ملاذا إلا في الدين، وفي الشعر. فراح يقضي أوقات فراغه في قراءة الكتاب المقدس، والأناجيل بخاصة، وراح يناجي الله ويشكو إليه من ظلم بني الإنسان وما جبلوا عليه من ظلم وعدوان وقسوة. وسنجد أصداء ذلك في قصصه القصيرة، وبخاصة في أقصوصة بعنوان «الحوارىّ».

أما الشعر فيذكر «زيبر» (ص 95 وما يليها) أن رلكه نظم في سنة 1888 قصائد بالعنوانات التالية: «القبر»، «تسليم»، «العنصرة»، «المقبرة»، «اليتيمة»، وكلها قصائد حزينة. كما نظم قصائد حربية النزعة بالعنوانات التالية: «المعركة»، «القتال» ، «المسيرة» ، «في ساحة المعركة».

كما أن رلكه في رسالة إلى خطيباه يتحدث طويلا عن قصائد نظمها في تلك الفترة لكنها ضاعت كلها، ولا نعلم عن مضمونها شيئا.

كما ضاعت أيضا الأناشيد الدينية التي نظمها آنذاك وفيها ناجى الله، ملاذه الوحيد مما كان يلقاه من شرور زملائه في المدرسة العسكرية، ومن بلاهة معلميه الذين لم يكن لهم من هم وغاية إلا تدريب التلاميذ بدنيا بوساطة ممارسات شاقة تحولهم إلى دواب ووحوش مفترسة.

تبرم إذن رلكه من الحياة في المدرسة العسكرية، وأخذ الضيق يخنقه. فقرر تركها. وتركها فعلا في 3 يونيو سنة 1891 بعد موافقة والده.

وقد ظل رلكه طوال حياته يذكر بالسوء تلك الفترة التي قضاها في المدرستين العسكريتين، ويحاول أن يرد إليها بعضا من الشعور بالألم الذي بقي ملازما له بقية عمره. وحرص على كبت ذكريات هذه التجربة كلها كلما لاح له شبحها أو ذكّره بها مذكّر. حتى إنه لما حاول اللواء زد لاكوفنس-في سنة 1920- وكان معلما في المدرسة الحربية لما كان رلكه تلميذا فيها-تذكير تلميذه بأيام الدراسة-رد عليه رلكه، وكان في أوج الشهرة، برسالة بتاريخ 9 ديسمبر سنة 1920 يقوله فيها إنه ما كان له أن يكون سعيدا في حياته لو لم يطرد من ذاكرته ما عاناه طوال خمس سنوات في التربية العسكرية.

ويستطرد قائلا: إنه لما قرأ بعد ذلك في نضج عمره كتاب دوستويفسكي: «ذكريات بيت الموتى» (وفيه يصف حياة المنفيين إلى سيبيريا) شعر في الحال بأنه هو الآخر عاش خمس سنوات في بيت موتى شبيه بذلك الذي وصفه دوستويفسكي. وراح يشبه أسوار سجن (يقصد: مدرسة) سانت بولتن بسجن المنفيين في سيبيريا . ماذا ! بل سانت بولتن أفظع من سيبيريا،

لأن الروسي بطبيعته يستسلم للاستعباد فيهون عليه المنفى في سيبيريا، بينما الألماني (أو النمساوي) لا يحتمل الاستعباد.

3- محاولات دراسية مخفقة

ودّع رلكه إذن الحياة العسكرية في 6 يوليو سنة 1891 ولما يمُضِ في الكلية الحربية بميرش فايسكرشن غير عشرة أشهر.

وأراد أن يسلك سبيل الدراسة المدنية. فالتحق بالأكاديمية التجارية- وتعادل مدرسة تجارة ثانوية-في مدينة لنتس Linz. غير أنه ما لبث أن ضاق بالتعليم التجاري، فغادرها في مايو 1892، ولم يمض فيها إلا ثمانية أشهر. وعاد إلى أهله في براج، على الرغم من أن ترتيبه كان الثاني من بين 53 طالبا في امتحان نهاية العام.

وهنا تدخل عمه ياروسلاف ليرغم هذا الفتى «الفاشل» في دراسته على الالتزام بالدراسة المنتظمة الجادة، وذلك بالحصول على البكالوريا ثم دخول الجامعة للتخصص في فرع من الدراسات التي تقدمها كلياتها. ولتحقيق ذلك تعهد بأن يدفع لهذا الطالب المتقلب مائتي جولدن في الشهر. وكان يريد منه أن يدخل كلية الحقوق ويحصل على إجازتها العلمية، ابتغاء أن يشارك عمه في إدارة مكتبه للمحاماة، وأن يرث منه هذا المكتب بعد وفاته. وكان هذا المكتب يدر عليه أموالا كثيرة، خصوصا لتخصصه في قضايا التركات.

ورضخ الفتى لإرادة عمه، وتوفر على التحصيل للتقدم لامتحان البكالوريا. وتقدم لهذا الامتحان في المدرسة الحكومية الألمانية في براج، ونجح نجاحا باهرا في 9 يوليو 1895 بتقدير جيد جدا.

ودخل جامعة كارل فرديننـد في براج، في بداية الفصل الدراسي الشتوي للعام الجامعي 1895/ 96. واختار أولا الالتحاق بكلية الآداب، وحضر محاضرات في الفلسفة، والأدب الألماني، وتاريخ الفن. لكنه في الفصل الدراسي الثاني انتقل إلى كلية الحقوق دون أن يستشعر ميلا إليها، لكن ليستجيب لرغبة عمه.

لكن الفتى المتقلب الأهواء ترك جامعة براج بعد انتهاء الفصل الدراسي الثاني، أي في يونيو 1896. وغادر براج بعد عطلة الصيف، فتوجه في نهاية شهر سبتمبر إلى مدينة منشن (ميونخ في جنوب ألمانيا)، حيث التحق

بجامعتها ابتداء من الفصل الشتوي 1896/ 97. وأمضى فيها فصلين دراسيين. واستمرت إقامته الأولى هذه في منشن حتى أكتوبر 1897 مع فترات انقطاع.

ويبدو أنه لم يكن جادا في التحاقه بجامعة منشن، بدليل أنه لم يسجل نفسه في تخصص بعينه، بل راح يحضر ما يحلو له من محاضرات في تاريخ الفن، وخصوصا الفن الإيطالي، وفي الفلسفة إذ حضر الفصل الدراسي الشتوي عند تيودور لب Lipp، وكانت محاضراته تدور حول أسس علم الجمال.

وإنما أرغم نفسه على التسجيل في الجامعة حتى يمكنه الحصول على المرتب الذي رتبه له عمه ياروسلاف في وصية اشترط فيها أن يحصل رلكه على مرتب من تركته مادام يطلب العلم في الجامعة.

وتنفيذا لهذه الوصية التزمت باولا وإيرينا، ابنتا ياروسلاف، بدفع هذا المرتب بعد وفاة أبيهما. ومن هذا المرتب-ومن مبلغ ضئيل كان يرسله إليه أبوه-كان رلكه يعيش وهو في منشن. وإذن لأنه لم يأخذ الدراسة في جامعة منشن مأخذ الجد، فإن من الممكن أن نعد مجيئه إلى منشن نهاية مرحلة الطلب، طلب العلم، وبداية مرحلة الأسفار.

مرحلة الأسفار

1- إنتاجه الأدبي قبل الإقامة الأولى في منشن

وصل رلكه إذن إلى منشن (ميونخ) في سبتمبر 1896. وسكن في شقة من غرفتين في الطابق الأرضي من المنزل رقم 48 في شارع بريين.

ولم يكن رلكه حين وصل إلى منشن فتى مجهولا تماما. ذلك أنه كان قد نشر قصائد، وإن كانت ساذجة المعاني مهلهلة النسج، فإنها على كل حال لفتت إليه الأنظار:

1- ففي 10 سبتمبر 1891، وهو لما يبلغ السادسة عشرة، نشرت له جريدة تصدر في فيينا عنوانها: «الصحيفة الشائقة» قصيدة بتوقيع: «رينيه رلكه، في براج»-عنوانها: «الفستان الجرّار هو الموضة»، وتجمع بين المزاح والسخرية.

2- وفي نهاية 1894 ظهرت له أول مجموعة شعرية، وعنوانها: «حياة وأغاني» (وتقع في 87 صفحة). وقد ظهرت عند ناشر في مدينة استراسبورج (إقليم الألزاس)، ومعظمها مقطوعات قصيرة، ذوات موسيقى رنانة، لكنها من حيث المضمون عادية. وفيها اهتمام بالمحسنات البديعية والجناس

بخاصة. وهاك نماذج منها:

«غنّ من جديد لحبيبتي
يا صوت عودي المضيء بالحب
غن، غن إبان الليل»

«التحمل
تلك شارة العالم
لكن هناك كلمة أشد ترويعا ترن في أذني،
هي: ارفضي»

«من يعرفون الإنسانية يقولون
إن العبقرية مقدّر عليها الهلاك!
كلا! إذا كان الزمان لا يخلق عظماء
فإن الإنسان يخلق لنفسه زمان مجده»

وفي أبريل 1895 ظهرت فى الصحف مقالتان تشيدان بهذه المجموعة.

3- ثم تتضح ملكته الشعرية أكثر فأكثر في المجموعة الثانية التي نشرها في بداية 1896 بعنوان: «قربان إلى اللارات». واللارات Laren في الديانة الرومانية القديمة هي الآلهات الحاميات للبيوت ولمواطن الميلاد. فمعنى العنوان هو أن القصائد الواردة في المجموعة تدور حول مدينة براج، موطن ميلاد رلكه، وحول أهلها، وحول تاريخ بوهيميا. ومن هنا نعتها البعض بأنها تندرج ضمن النوع المسمى: «شعر المدينة». ولهذا تجد فيها وصفا لبعض الأحياء المتميزة في براج، خصوصا الأحياء الشعبية. ولهذا السبب وصف شعره هنا بأنه من «النوع الشعبي». استمع إليه في قصيدة عنوانها: «وراء سميشوف».

«هم يذهبون في حرارة المحب الحارة
ويخرجون من المصانع رجالا وفتيات،
وعلى جباههم المنخفضة المغلفة
كتب البؤس بمداد من العرق،
الوجوه حزينة والعين منطفئة
والنعال الثقيلة تقرع الطريق
مثيرة التراب والغبار

تحت خطواتهم، مثل المصير»

لكن رلكه لا يحفل بالسياسة ولا بالصراع بين الأمم. فهو يقول في قصيدة بعنوان: «الشك»:

«النزاع الوحشي بين الأمم
لا يصل إلي منه أي صدى
لأني لا أنحاز إلى أي طرف
إذ الحق ليس ها هناك، ولا هاهنا»

ويصف الحجرة التي فيها ألف الشاعر الوطني التشيكي قصيدته التي عنوانها: «أين وطني؟» وهذه القصيدة ستجعلها جمهورية تشيكوسلوفاكيا- غداة ميلادها في سنة 1918- نشيدها الوطني. وهذا الشاعر الوطني التشيكي هو كاتيان تيل Tyl (1808-1856) يقول رلكه في وصف هذه الحجرة:

«هناك إذن كتب «تيل» المسكين
قصيدته: «أين وطني؟»
والحق أن الحياة لا تمنح شيئا سخيا
لمن تحبهم ربّات الشعر»

أما القصائد المتعلقة بالتاريخ القومي التشيكي فنذكر منها: «الإمبراطور رودلف»، و«الإلقاء من النافذة»، و«في ساحة فريدلند».

4- كذلك يطبع رلكه مجلة أدبية اسمها: «الشيكوريا البرية». وقد ظهر العدد الأول منها مع عنوان فرعي هو: «أغاني مقدمة إلى الشعب»، وذلك في الوقت نفسه تقريبا الذي ظهرت فيه مجموعة «قربان إلى اللارات»، أي في مستهل 1896. وتقع هذه المجلة في 66 صفحة. وقد وزعها رلكه مجانا: فالعدد الأول وزعه مجانا على المستشفيات والنوادي المختلفة. وراح بعد ذلك يوزع الأعداد على المارة مجانا وهو واقف عند مفترق الشوارع في براج!

وقدم للعدد الأول بهذا التقديم الغريب:

«مجرد كلمة واحدة:... أنتم تنشرون مطبوعاتكم في طبعات رخيصة الأثمان. وبهذا أنتم تسهلون على الغني الشراء، لكنكم لا تساعدون الفقير، لأنه بالنسبة إلى الفقير كل شيء غالي الثمن. فحتى لو كان الثمن كرويتسرين، فإن السؤال يقوم: هل أشتري كتابا، أو خبزا؟ إنه سيفضل شراء الخبز. فهل تلومونه على هذا؟ إن كنتم تريدون البذل للجميع، إذن! ابذلوا! إن

باراسلسوس Paracelsus يروي أن الشيكوريا البرية تتحول كل مائة عام إلى كائن حي. والأسطورة تتحقق في هذه القصائد. فلربما تسمون إلى حياة أسمى، في نفس الشعب.

«أنا أيضا فقير. لكن هذا الأمل يجعلني غنيا. إن «الشيكوريا البرية» ستظهر مرة واحدة أو مرتين في العام. فاقطفوها، ولتكن مصدر سرور لكم!»

رينيه ماريا رلكه

5-يضاف إلى هذه القصائد المجموعة وبعض المقالات النثرية، مسرحيات كتبها في تلك الفترة، أي قبل وصوله إلى منشن، نذكر منها مسرحية بعنوان: «غرفة البرج»، وأخرى بعنوان: «السهر Vigilien»، ومسرحية من فصل واحد بعنوان: «مورلوه Murillo» على اسم الرسام الإسباني الشهير وفيها يصور رساما وجد مغمى عليه أمام أحد المنازل، وكشف عن هويته بأن رسم، بقطعة طباشير وهو على فراش الموت، رأس المسيح. كذلك كتب مسرحية أخرى من فصل واحد بعنوان: «قطعة موسيقية»«منويت»لحفلة زفاف»، وموضوعها الرسم أيضا. وقد ألف كلتيهما في عامي 1894/ 1895. وكل واحدة منهما تقوم في مناجاة غنائية. كذلك نشر في مجلة «الشيكوريا البرية» مسرحية من فصل واحد بعنوان: «الآن وفي ساعة الاحتضار» وفيها نجد فتاة جميلة تدعى «هيلا» أو هيلانة، ليس لها مورد رزق وتسكن مع أختها التي عمرها 13 سنه، وأمها التي تعالج سكرات الموت، عند صاحب بيت اسمه: لبولد. وكان لبولد يتطلع، منذ وقت طويل، إلى نيل هذه الفتاة، لكن دون جدوى. ويهددها بالطرد هي وأختها وأمها من المنزل. لكنها تفكر في وسيلة لتأجيل الطرد حتى تموت أمها في هدوء. فتستسلم للمالك وتغدو إلى فراشه. وفي الوقت نفسه كانت الأم المحتضرة-وهي لا تدري شيئا عما كان يجري-تروي لابنتها الصغرى ترودي Trudi كيف أنها ارتكبت خطيئة في شبابها منذ زمان طويل، إذ أنجبت من هذا المالك للمنزل: لبولد، ابنتها هيلانة. لكنه لم يتعرفها لما جاءت لتسكن عنده هي وابنتاها. وبعد هذا الاعتراف تلفظ الأم أنفاسها الأخيرة. ولما كانت البنت الصغرى-ترودي-لم تفهم جيدا ماذا كان لبولد يطلب من أختها هيلانة-فقد خطرت ببالها خاطرة سريعة: فجرت إلى الباب وصاحت في بئر السلم: «هيلا! هيلا»، ثم عادت إلى الفراش الذي تمددت عليه أمها الميتة، وراحت تدعو

وتصلي: «أبانا الذي في السموات...»-ثم تسدل الستارة».

لكن لم يمثل من مسرحياته آنذاك إلا مسرحية عنوانها: «الصقيع المبكر». فقد مثلت على أحد المسارح في براج سنة 1897. ومثل فيها دور الأب: ماكس راينهرت الذي سيصبح ألمع الممثلين الألمان في النصف الأول من القرن العشرين. وفي هذه المسرحية أيضا نجد فتاة فاضلة تضطر-تحت ضغط والدتها ومن أجل إنقاذ أبيها من السجن-إلى أن تبيع عفافها. ومن المناظر المؤثرة فيها منظر فيه تقوم قوادة عجوز بإغرائها على البغاء، وتسهيل الأمر على ضميرها، فتقول لها:

«من السهل على الذين في أعلى أن يعظوا. إنهم يجلسون إلى مائدة مغطاة بألوان الطعام الشهي، ويثرثرون ويملأون كروشهم الضخمة، ويرددون كلمات جميلة تتناول ما هو خير وما هو نبيل، والجماهير الفاسدة. وبعد ذلك يجرون في الشوارع القذرة وفي الزوايا وراء الفتيات ويغروهن ويقتادونهن إلى البؤس وإلى الموت.. من الذي يفسدنا إذن؟ من؟ نحن أنفسنا؟ دعيني أضحك! إنهم هم، بأشداقهم الواسعة التي تتشدق بأنهم يريدون إصلاحنا وتهذيبنا!».

وكانت هذه المسرحية هي آخر إنتاج له في تلك الفترة السابقة مباشرة على إقامته الأولى في منشن.

2- إقامته الأولى في منشن

كانت منشن في العقد الأخير من القرن التاسع عشر مركزا قويا لحركة أدبيه وفنية متعددة الاتجاهات. يقول كورت هوهوف في ذلك[5].

«حوالي سنة 1890 توافد على منشن كل من كان ذا شهرة أو أراد أن يحظى بالشهرة في الأدب، والتصوير، والنحت، والمعمار والموسيقى. لقد صارت آنذاك مدينة الفن في ألمانيا.

لقد نشأ فيها جو عقلي وفني، كان له فعل المغناطيس. وخلال مائة عام كانت التغييرات التي حدثت في المدينة-من الناحيتين المعمارية والفكرية-قد هيأت الفرصة للمزيد من التغييرات: ذلك أن منشن ليس فقط جذبت الأعلام، بل وأيضا-في كثير جدا من الأحوال-احتفظت بهم. كان المرء يأتي إلى منشن شابا، ثم يمضي بعد ذلك كل حياته فيها. وعلى هذا النحو كانت صفة مدينة الفن هذه تتغير، بدلا من أن تتحجر. وهذا هو السبب في أن استيفن جيورجه

نعت منشن بأنها مدينة الشباب. إذ ساعد الشباب على تزويد شخصية المدينة بالجديد دائما من الإنجازات وكان ثقل المنقول (أو: التراث) بعضه أصيل الجذور فيها، والبعض الآخر مستورد بالصنعة. وأقصد بهذا أن كل الأبنية في منشن الكلاسيكية لم تحول منشن إلى متحف حافل بالطراز الوسيط، والطراز الباروكي والطراز الروكوكو، بل تجلى فيها ذا حياة جديدة- وفي الوقت نفسه نشأت نزعة نحو زعزعة ما هو قديم، والمقصود بذلك إطرَّاح التراث التاريخي في التصوير والمعمار والموسيقى والأدب، وإبداع شيء جديد. وقد حقق بداية هذه النزعة كل من فجنر Wagner وإبسن Ibsen. وبعد ذلك جاء ليبل Leibl وأصحابه-وفي الموسيقى ظهر رتشرد اشتراوس.

وانذاك لم يأت كبار الأعلام المشهورين إلى منشن، بل جاء الشباب: فيدكند، جيورجيه، شريدر، هايمل، لانجن، ت. هاينه، برونر باول، توماس مان، راينر ماريا رلكه، ريكاردا هوخ، ماكس ليبرمن، لوفس كورنت، ماكس سلافوجت، كاندنسكي، يافلانسكي، باول كليهKlee، كوبن، فلهلم فون شولتس، زيدل-وكثيرون آخرون في سن الشباب: جاءوا إلى منشن إما من أجل الدراسة، وإما «لممارسة الفن» كما قال توماس مان (ص 276- 277).

وسنسوق فيما يلي نبذة عن نخبة من هؤلاء الشباب (آنذاك) الذين سيعتلون قمة المجد في ألمانيا فيما بعد:

أ- ونبدأ بتوماس مان Mann(1875-1955)

وقد كان ربما أشهرهم وإن لم يكن من حيث القيمة الأدبية أو الفنية أجدرهم بهذه الشهرة:

فقد جاء إلى منشن في مارس سنة 1894 قادما من مسقط رأسه لوبك، وهي ميناء على بحر البلطيق في شمالي ألمانيا، ليلحق بأمه التي توفي عنها زوجها منذ عامين، فجاءت إلى منشن للإقامة بها في شارع رامبرج. وكان قد حصل، قبل مجيئه إلى منشن، على البكالوريا وهو في التاسعة عشرة من عمره. والتحق بأحد البنوك للتمرين فيه. وفي الوقت نفسه، أخذ في الكتابة. فكتب أول أقصوصة له بعنوانGefallen:. ونشرت في مجلة مرموقة اسمها: «المجتمع». فكانت وسيلة إلى تعرفه إلى بعض الشخصيات الأدبية، مثل: بيرباوم، هارتليبن، فون ليلنكورت، ديمل.

وبعد ذلك بقليل جاء أخوه: هاينرش، قادما من درسدن، واشتغل محررا

في مجلة: «القرن العشرين».

ولفتت هذه الأقصوصة نظر الناشر صمويل فشر، فطلب منه في سنة 1897 كتابة قصة طويلة. فكتب توماس مان أروع قصصه وعنوانها: «آل بودنبروك: انحلال أسر» وفيها يصف أسرته هو وكيف دب فيها الانحلال على يد الابنين الأديبين فيها: هو وأخوه هاينرش. ونشرت هذه القصة في سنة 1901.

وعاد توماس مان فأقام من سنة 1914 إلى سنة 1933 في منشن هو وأسرته في المنزل رقم 1 من شارع بوشنج الذي أصبح اليوم يحمل اسم توماس مان. وفي هذا المنزل كتب أقصوصة «السيد والكلب» وقصة «اعتراف المحتال فلكس كرول»، وقصة «الجبل المسحور» وقصة «يوسف وإخوته»- وفي 12 نوفمبر سنة 1929 تلقى وهو في هذا المنزل نبأ حصوله على جائزة نوبل في الآداب. ومن هذا المنزل غدا إلى منفاه في أوروبا وأمريكا، لما أن تولى هتلر الحكم في 30 يناير سنة 1933. وكان قبل ذلك قد كتب العديد من المقالات ضد الحزب النازي. وفي 2 ديسمبر 1936 نزعت منه الجنسية الألمانية، وصودر منزله هذا. وقد أصيب هذا المنزل بإصابات بالغة من غارات الطائرات الأمريكية على منشن، حتى كاد أن يدمر تماما.

أما أخوه هاينرش (1871- 1950) فقد سكن من سنة 1914 حتى سنة 1928 في شارع ليوبلد (رقم 59) في منشن.، وفي هذا المنزل كتب القصص التالية: «الأم ماريا»، «التابع»، «الرأس»، «الفقراء». وفي سنة 1928 ترك منشن وانتقل إلى برلين حيث عاش فيها حتى سنة 1933، حين سلك سبيله إلى المنفى، شأنه شأن أخيه توماس.

ب - استيفن جيورجه George (1868-1933)

وحول استيفن جيورجه تكونت حلقة من الشعراء والنقاد والمؤرخين، كونت مدرسة أصيلة ذات مبادئ فنية خاصة. وقد ذكرناها بالتفصيل في الفصل الأول.

وقد سكن في منشن في منزل بشارع هس، كان يقيم فيه أيضا القصصي يعقوب فاسرمن وهو آنذاك في بداية اشتغاله بالكتابة. كذلك كان يسكن فيه لودفج كلاجس، مؤلف كتاب «الروح كمناقض للنفس».

ثم انتقل جيورجه نحو سنة 1909 إلى المنزل رقم 16 في شارع الرومان في حي اشفابنج، فسكن في غرفتين تحت السطح قدمهما له صديقه غولفسكيل. وقد سميت الغرفة التي سكن فيها باسم «غرفة الكرة» لأن

المصباح الذي كان يضيئها كان على شكل كرة! ويدور مع الجدران مقعد. وفي الوسط منضدة مربعة ترفع وتنزل كما يراد لها. وحين يجيء الأصدقاء لتناول الطعام كانت المنضدة تدفع ناحية المقاعد التي تدور حول الجدار.

ورغم ذلك، فقد صارت هذه الحجرة العجيبة كعبة الشعراء والفنانين المشايعين لنزعة جيورجه في الشعر والفن. وكان الناشئة في الشعر والفن يتمنون أن يظفروا بدخولها ولو للحظات قليلة، ففيها يتلقون ضربة الفارس التي بعدها يصبحون فرسان الشعر أو الفن!

وترك جيورجه منشن فى سنة 1914. وسيتأثر رلكه بجيورجه تأثرا واضحا، خصوصا في «إيلجيات دوينو». إذ نجد في قصيدة «الاستهلال» التي تصدرت مجموعة جيورجه التي عنوانها «بساط الحياة» (1899) ملاكا يتجسد رسالة الشعر ويفصح عن معناها، ويخلع عليها صفة القداسة. وهو يمثل موقفا يسمو على الموقف الإنساني المحض. وتعبر عن هذا السمو إشارات دينية لا تتخذ موضوعا عينيا لأي دين. ويدعو الملاك إلى التخلي عن السعي الإنساني، ابتغاء التطلع إلى نعيم فوق إنساني وإلى التخلي عن الاهتمام بالمجتمع الإنساني.

ج- فرانتس فيدكند Wedekind (1864-1918)

وجاء الشاعر فيدكند إلى منشن سنة 1884 لأول مرة بوصفه طالبا. لكنه لم يقم فيها طويلا آنذاك، بل ذهب يطلب المجد في برلين وزيورخ ولندن ودرسدن وباريس-ناشدا شكلا جديدا للقصيدة والمسرحية. لكنه عاد في نهاية عمره فأمضى في منشن السنوات العشر الأخيرة من حياته، أي من سنة 1908 حتى سنة 1918، مع زوجته الفاتنة تلي Tilly وكانت ممثلة ناجحة. فأقاما في المنزل رقم 50 من الشارع الفخم المسمى شارع «الأمير الوصي»، وهو الآن مقر القنصلية العامة لجمهورية الإكوادور.

ويمتاز إنتاج فيدكند بالصراحة الجنسية. وقد ترك بعد وفاته قطعة من مسرحية غير كاملة، فيها يصور «دار دعارة مثالية»، ورمزها هو: «لا يوجد في العالم غير طريق واحد للسعادة الحقيقية، هو أن يفعل الإنسان كل ما يستطيع فعله ابتغاء أن يجعل الآخرين سعداء قدر المستطاع».

وكتب مسرحية جنسية أخرى بعنوان «رقصة الموتى» (1905) -وقد عنونها فيما بعد بعنوان «الموت والشيطان» وفحواها مستمد من أخلاق السعادة. وفي مسرحية «قصر فترشتاين» (1910) دعوة إلى الحب الحر. وبالجملة،

فإن شخوص مسرحياته هم ممن يعيشون على هامش المجتمع (المومسات، المتشردون، الخارجون على القانون). ولهذا طاردت الرقابة مسرحيات فيدكند واعتبرتها مفسدة للأخلاق.

كذلك كتب قصصا تسودها فكرة النزاع بين الشهوة الجنسية وبين المجتمع، نذكر منها «حريق اجليسفيل»، و«الأميرة دوسالكا».

وبهذا كله يعد رائد الحركة التعبيرية في ألمانيا.

د- مجلة «غاية البساطة» : Simplicissimus

ولابد أن نذكر هاهنا مجلة تدعى «غاية البساطة»، التي تأسست في منشن سنة 1896، واشترك في تحريرها كوكبة من الكتاب والشعراء المختلفي المنازع. نذكر منهم ت. هاينه،، فلهلم شولتس، فرانتس فيدكند، يعقوب فاسرمن، أوتر بيرباوم، توماس مان، باول شيربارت.

وكانت حافلة بالنقد اللاذع، والكاريكاتور. وكانت تهاجم خصوصا الرقابة على الكتب والصحف، والبيروقراطية، ورجال الجيش، والنزعة العسكرية، والبارونات، والقساوسة. ولهذا دخل السجن كثير من كتابها بتهمة «العيب في الذات الإمبراطورية». وكانت تدعو إلى التجديد، والتحرر من محاكاة النماذج التاريخية.

وقد نشرت هذه المجلة لرلكه أول مرة في سنة 1896. ثم نشر له بعد ذلك في مجلة «المستقبل» سنة 1897، وفي مجلة «المجتمع» في سنة 1899 وكذلك في مجلة «أصداء أدبية» ثم في مجلة «الجزيرة» في سنة 1900.

3- منازل رلكه في منشن

لما وصل رلكه إلى منشن نزل أولا في البيت رقم 48 شارع بريينر في الطابق الأرضي، وذلك في شقة من غرفتين.

وبعد عودته من رحلته إلى إيطاليا انتقل إلى «بنسيون» في شارع «الأزهار» وكان يشاركه مائدة الطعام في الغداء في هذا البنسيون القصصي يعقوب فاسرمن (ولد في 10 مارس 1873 في مدينة فورت، وتوفي في أول يناير 1934 في Alt-Aussee بمقاطعة اشتاير في النمسا). وكان فاسرمن ابنا لتاجر يهودي، وتعلم ليكون تاجرا مثل أبيه، لكنه ما لبث أن قطع صلته بأسرته وانصرف إلى كتابة القصص، واشتغل سكرتيرا عند فولتسوجن (1855-1934) في منشن، ومحررا في مجلة «غاية البساطة» الآنفة الذكر. وقد

صار قصصيا ذا شهرة عالية. وتمتاز قصصه بالتوتر، وبالواقعية مع قدرة على حبك الأحداث وخلق المشاكل والمواقف الحرجة. وكثير منها فيه وصف دقيق لحياة اليهود. ومن قصصه «هل أنت نائمة يا أماه؟» (1897)، «يهود تسرندورت» (1897)، «قصة حياة الشاب رناته فوكس» (1900)، «مولوخ» (1903) وقد كتب رلكه مقالا عن هذه القصة الأخيرة «مولوخ».

وقد تعرف إليه رلكه في هذا البنسيون. وكان يجلس معه أحيانا في مقهى لويتبولد Luitpold، أشهر مقاهي منشن. وعلى هذا المقهى كنت أنا أتردد مساء كل يوم في شهري يوليو وأغسطس سنة 1937، لما كنت طالبا في منشن-ولكن العلاقة بين رلكه وفاسرمن ظلت واهية، لأن فاسرمن كان وثيق العلاقة بأبناء دينه من اليهود، بينما رلكه كان-وظل دائما-ينفر من اليهود.

ومع ذلك كان لفاسرمن تأثير نافع في رلكه، لأنه هو الذي وجه رلكه إلى قراءة دوستويفسكي وتورجنييف، ثم خصوصا-وهو الأهم-وجهه إلى قراءة قصة «نيلز لينه» Niels Lyhne التي ألفها القصصي الدانيمركي العظيم ينس بيتر ياكوبسن Jens Peter Jacobsen (ولد في 1847/4/7، وتوفي في 4/30/ 1885). وياكوبسن هو الذي أشاع نظرية دارون في التطور في الدانيمرك، وترجم كتابا «أصل الأنواع»(1872) و«سلالة الإنسان» (1877) لدارون. والى جانب نظمه القصائد ألف قصصا أشهرها «نيلز لينه» (1880) وتحكي القصة-وخلفيتها هي المجتمع الدانيمركي في منتصف القرن التاسع عشر-تاريخ حياة شاب ظل-بالوراثة وبالتربية-يعيش في أحلام لا يستطيع تحقيقها، بل تصطدم دائما بالواقع الكالح. وأمه ذات نزعة شعرية، لكنها يئست من الحياة لأن حنينها إلى الجمال في العالم لم يتحقق، وهي التي ربت ابنها على الأحلام بما كانت تقص عليه من أساطير. ويقع الشاب في غراميات تنتهي بالإخفاق أو بموت المحبوب، لهذا كفر الشاب بالحياة، وكفر بالله وصار ملحدا. ولما قامت الحرب سنة 1864 تطوع للانخراط فيها، وأصابته جروح، وانتهت حياته التي لم يجد فيها معنى. وفي القصة ملامح كثيرة من المؤلف وقد وصف استيفان تسفايج البطل نيلز لينه بأنه «فرتر»جيله.

ورلكه قد وصف فاسرمن تحت اسم تالمن في أقصوصة عنوانها Ewald Tragy:.

وقد أعجب رلكه بقصة «نيلز لينه» لياكوبسن إعجابا لا حد له، وكان يأخذها معه في حله وترحاله زمانا طويلا. وليس من شك في أن قصته

«صحائف مالتي لوردز برجه» إنما استلهمت من قصة ياكوبسن هذه: فكلا البطلين دانيمركي، وكلاهما يعيش في أحلام لا تتحقق. وفي كلتا القصتين نظرة إلى الحياة على أنها إخفاق أمام الوسط الاجتماعي، وفيهما الوحدة بوصفها نصيب الأفذاذ من الناس. والتشابه بين القصتين يبلغ أحيانا من الشدة بحيث يختلط الأمر على القارئ في بعض المواضع: هل هو يقرأ قصة «نيلز لينه» لياكوبسن أو «صحائف مالتي لوردز برجه» لرلكه.

ولفاسرمن فضل آخر على رلكه، وهو أنه هو الذي مكنه من التعرف إلى أخطر امرأة في حياته وحياة الكثيرين من الفلاسفة والشعراء والعلماء- ونعني بها: لو أندرياس سالوميه.

سكن رلكه فترة طويلة في بيت بشارع كيفر. وهنا يحسن بنا أن نورد ما قاله فلهلم هاوزنشتاين في كتابه «حب منشن»، وهو ذكريات عن مدينة منشن ومعالمها وكبار من أقاموا بها. وهو قد أقام بها أكثر من خمسين عاما وفيها توفي في 3/6/1957. وكان قد جاء إلى منشن لأول مرة، وهو طالب، في سنة 1903. وقد شاهد رلكه مرارا إبان مقام رلكه في منشن، وخصص فصلا من كتابه هذا لذكرياته عنه في منشن (ص 149- 255) فقال:

«رأيته لأول مرة في بداية الحرب العالمية [الأولى] في مرسم مصور قائم في قلب منشن. لم يتكلم إلا نادرا. والقليل الذي قاله قد تفوه به بنصف صوت وبلطافة باطنة شبه متمزقة. والجمال الكلاسيكي لميدان فتلزباخر ولميدان أوديون، ولشارع برينر-قد صار عندي من تلك اللحظة غير قائم وحده، بل صار يحيا من ظهور هذا الرجل اللطيف الذي كان يجتاز هذه الميادين باتزان وهو السيد الحيي. ومنشن الجميلة هذه صارت عندي من ذلك الوقت وفي كل وقت المسرح الذي قيض له أن يحمل سمت رلكه الهادئ ويصبح إطارا له.

«كان الشاعر (رلكه) يسير مرتديا حلة كحلية اللون، وسروالا ذا لون رمادي فاتح. وكان وجهه اللطيف منحنيا بعض الانحناء. ولم تكن خطوته بالسريعة ولا بالبطيئة. وشاربه الأشقر كان على شكل نصف قوس، قريبا مما كان عند أهل الصين. وعيناه زرقاوان، وعلى شكل نصف قبة ويداه تتحركان بحرص واحتياط في قفازين من الشاموا. وكان يحمل عصا. وكانت طلعة هذا الرجل المهم مستورة بالتقاليد الدنيوية. لكن المرء يستشعر فيه نبالة الدم والأفكار والإحساس. وكان تصرفه الشخصي مقبولا في

الجماعة. أما ما ليس عاديا في الشاعر فقد كان منطويا في داخله.. لكن المرء يستشعره فيه-من خلال ما تضفيه عليه غريزته التي تحيا في اتجاه الروح-وهو أنفه مما هو علني. وكان ذلك يضفي عليه شعشعان قديس مرسوما بلون ذهبي خفيف، لون ذهبي عتيق لا تراه عين الجمهور.

«ومنذ أن شاهدت رلكه على هذه الصورة وهو يمشي خلال منشن، صارت المدينة-وليس فيها الكفاية من البيوت الجميلة، وإن كان فيها الكفاية من السكان ذوي المحتد الجيد-تبدو لي حافلة بأجمل وأحر حياة إنسانية. ولا أستطيع-تحت إرشاد إشارة يد تمثال الأمير مكسمليان-أن أمر هناك دون أن أتذكر ذلك الرجل المنحني القامة قليلا.. المتدثر بحلة زرقاء أنيقة. ولا أزال حتى اليوم أذكر-بعد ثلاث عشرة سنة-التحية القلبية الرقيقة التي كان يرد بها-بوساطة قبعته ويده وشفتيه وعينيه-على تحيتي. هذه التحية لا تزال ماثلة هناك دائما: إنها من أسرار ذلك المكان، أتحققها كل يوم وأنا أمر من هناك. ومن الجميل أن أحدا لا يلاحظ كيف أتحققها .هاأنذا أرى الشارب الأشقر مرسوما في الهواء، وأرى الشفتين الهامستين وهما تتفوهان بكلمات رقيقة. إن هاتين الشفتين فخمتان، إنهما معنى (أو إحساس) منتفخ، وتتحركان برقة لأنهما تخجلان من ذاتيهما. وفي وسط زمان الحرب -وكان يشبه خواء مروعا في المدينة-كنت أتناول معه الشاي في فندق الكونتننتال الكلاسيكي القائم في شارع أوتوOtto، ذلك الشارع الهادئ. وكان ذلك في يوم ثقيل من أيام الشتاء.، وبدأ المغيب بصعوبة. وجلس هناك. والكلمات التي نطق بها-ورغم خفة الحديث كانت كلمات تحمل مسؤولية ثقيلة وتصدر عن شعور طبيعي-هذه الكلمات صدرت من فمه مثل أشكال في ساعة المغيب. لقد كان صوته مغيبا. وكانت الغرفة بمعزل عن كل ضوضاء غير مرغوب فيها، لهذا كان ثم مغيب حتى بالنسبة إلى الأذن. وانطلقت الكلمات في المكان كأنها تمشي بنعال من المخمل (القطيفة)، وخارج دائرة النور التي كان يلقيها المصباح الوردي اللون، هناك في نصف الظل كان يقوم المكتب، وعليه بعض الكتب، وقد رتب بعناية وخلا من كل ما لا حاجة إليه، وكأنه حمام رقيق. ولم تفلت من هذا الرجل لحظة حاضرة. فأينما أقام، كانت لديه القدرة على تحصين الأشياء بالأوزان الشعرية. وحيثما أقام، كانت الأشياء من حوله تتخذ نظاما جيدا حتى لو كانت أشياء مستعارة ليست له.

لقد عاش في الدنيا كأنه ضيف عليها. لكن إحساس يده كان أرهف من إحساس المالك. وكان يهب الأساس الذي يملكه الغير، وحتى كعك الحرب غير المنعش، يهبه كيانا جوهريا. لقد كان الإنسان بالقرب منه يستشعر دائما جوهرا وصورة».

«وقد سكن وقتا طويلا في بيت صغير بشارع كيفر، قريبا جدا من الحديقة الإنجليزية، في عزلة وانفراد لا يزالان ممكنين في منشن. والجدول الذي كان يجري بالقرب من هناك، وأزهار شهر مايو، والصفحة الحمراء والصفراء لسماء شهر أكتوبر-كانت هي شعره، كان يتلقاها كما لو كانت هبطت عليه من الله مباشرة».

«وعند نهاية الحرب كان يسكن في شارع أينملر بجوار الرسام باول كليه Klee هناك في الخارج في حي اشفابنج. ومن الطابق الرابع في هذا المسكن المرسم كان المرء يبصر ناحية الشمال سلسلة من السقوف المغطاة بالقرميد الأحمر، ومن فوقها كانت سماء شهر يونيو تبدو زرقاء حارة. كان الوسط غريبا عليه لكنه كان مأمونا. ومن العجب أن نرى كيف أنه وجد نفسه بين النفور والابتعاد، وكيف أنه تكيف مع أمور الغير بيد رقيقة بحيث تنتسب إليه، ومع ذلك تبقى غريبة عنه. وكان هناك قمطر عال، عليه كان يكتب رلكه، قمطر متحرك مصنوع من خشب الصنوبر الأحمر، ضيّق عليه الماء فصار أسمر. وعلى هذا القمطر كانت الذراعان تستندان وهو لابس حلة زرقاء. وكانت علامات الخط الجميل تزهو على هذا القمطر كأنها أزهار.

«وخلال صيف 1916 كان من حسن حظي أن أكون جاره في جزيرة السادة القائمة في بحيرة كيم Chiem. ومنظر بحيرة كيم هو أجمل منظر في بافاريا: إنه لطيف ورائع معا. وقد صار بحضور الشاعر (رلكه) مكللا بأعظم الجمال الذي صار ماثلا الآن أمام عيني الساجيتين الحزينتين. إن عظماء الرجال يتركون آثارهم على الأشياء. إن نابليون قد أقام عالما جديدا، وراينر رلكه قد صنع في العالم ما لا يكاد يلحظه أحد. كان يتريض في الطبيعة، ويجلس بين الجذوع المرصوصة كالأعمدة أمام قصر سيد بحيرة كيم العتيق ثم يمضي إلى البستان العتيق محفوفا بالرقة.. وكان يجلس بين جزيرة السادة وبين جزيرة السيدات في زورق»[6]

مداهمة مسكن رلكه

وفي هذا المسكن، رقم 34 شارع أينملر Ainmiller داهمته ثلة من موظفي التحقيقات الجنائية والجنود في شهر مايو سنة 1919-بدعوى أنه كان من المتآمرين الثوريين الذين أقاموا جمهورية «المجالس» والذين تزعمهم كورت إيسنر Kurt Eisner (1867- 1919) وإرنست تولر Ernst Toller (1893-1939).

و «نظام المجالس»هو النظام السياسي القائم على أساس أن بناء الحياة السياسية والاقتصادية يجب أن يقوم على الطبقات الدنيا من المجتمع. وذلك بأن تنتخب مجالس محلية ومجالس في المصانع انتخابا مباشرا. وهذه المجالس بدورها تنتخب مجالس أعلى منها، وهكذا حتى يوصل إلى مجلس أعلى. ومهمة هذا النظام هي تحقيق دكتاتورية البروليتاريا (الأجراء). وأول من دعا إليه هو برودون Proudhon (1809- 1865) وحاولت تحقيقه حركة «الكومون» في فرنسا سنة 1871، لكنها سرعان ما أخفقت. وقامت محاولة أولى لتطبيقه في روسيا سنة 1905 فأخفقت أيضا، وقامت المحاولة الثانية في سنة 1917 فنجحت واستمرت في شكلها الأصلي من سنة 1917 حتى سنة 1939. ثم ألغيت في سنة 1939 ليحل محلها مجلس السوفييت الأعلى.

وفي ألمانيا قامت المحاولة الأولى-والأخيرة-في سنة 1918 على غرار ما حدث في روسيا سنة 1917، خصوصا في مدينتي برلين ومنشن. لكن ما لبثت أن قضت عليها حركة وطنية ألمانية، وفي هنجاريا (المجر) قام بيلاكون Bela Kun بحركة مماثلة لم تستمر إلا من مارس حتى يوليو سنة 1919.

والسبب في مداهمة الشرطة منزل رلكه هو أنها وجدت في منزل تولر خطابا كتبه رلكه إلى تولر. وعلى الرغم من أن الخطاب يتناول أمورا أدبية لا علاقة لها بالسياسة، فقد كان في نظر الشرطة دليلا على وجود اتصالات بين تولر ورلكه. كذلك تصورت الشرطة أن تولر قد اختبأ في مسكن رلكه بعد انهيار جمهورية «المجالس» هذه في منشن.

ومن حسن حظ رلكه أن الشرطة اكتفت بمداهمة مسكنه في الساعة الخامسة صباحا وتفتيش البيت بعنف وقسوة بالغة حتى صار-على حد تعبير رلكه-بعد هذا التفتيش الوحشي يشبه ساحة القتال بعد معركة طاحنة، لكنهم لم يقبضوا عليه، رغم أن السجون كانت طافحة بالمسجونين بسبب هذه الأحداث، وكل ما هنالك أنهم أمروه بمراجعة قسم الشرطة مساء كل يوم.

هنالك تحين رلكه أول فرصة لترك منشن. وتم له ذلك في يونيو 1919، فتوجه بالقطار إلى سويسرا.

وتحت تأثير هذه المحنة التي تألم لها كثيرا في قلبه، أقسم على نفسه ألا يعود إلى منشن أبدا. وبالفعل لم يعد إلى منشن مطلقا منذ أن غادرها في يونيو 1919.

4 - أصدقاؤه في منشن

عقد رلكه -وهو في منشن-أواصر صداقات عديدة مع عدد كبير من الأدباء المتفاوتي الأعمار:

فمنهم من كانوا يكبرونه بسنوات عديدة مثل دتلف فون ليلينكورف المولود سنة 1844، ولدفيج جنجهوفر المولود 1855، وديمل Dehmel المولود 1863، وفيدكند المولود 1864. واستيفن جيورجه المولود 1868.

ومنهم من كان يقاربه في السن مثل رودلف كسنر Kassner(1873-1959)، وهوفمنزتال (1874- 1929) وفاسرمن (1873- 1934)، وفلهلم فون شولتس Scholz (1874- 1929) وكان هذا الأخير ألصق الناس به. وقد ولد في 15 يوليو 1874، وتوفي في كونستانس في 29 مايو 1969. وكان أبوه أدولف فون شولتس (1833- 1924) وزيرا للمالية في بروسيا. ودرس فلهلم الفلسفة والأدب. ثم انخرط في الجيش وصار ضابطا برتبة ملازم. لكنه ما لبث أن ترك الجيش وتوفر على الكتابة الأدبية، وعاش في منشن، وصار على علاقة مع ممثلي الحركة الأدبية المعروفة باسم «التجديد المحافظ» والتي كان يتزعمها رودرر Ruederer (1861- 1915) وماكس هالبه (1865- 1944). وبعد إقامته في منشن ارتحل إلى فيمار. ثم أمضى أواخر عمره الطويل (95 سنة) في قصره المسمى Seeheim على بحيرة كونستانس. ومن سنة 1916 إلى 1922 عاش مؤلفا مسرحيا في اشتوتجرت. ومجموع مؤلفاته يزيد على المائة، وهي من حيث الشكل والمضمون تنتسب إلى الكلاسيكية الجديدة، والرومنتيكية الجديدة اللتين تسودهما روح محافظة.

وكان هاينرش شولتس ذا نزعة وطنية جرمانية مشبوبة. ولهذا أولع بالعصور الوسطى الألمانية، حيث بلغت الإمبراطورية الألمانية الرومانية المقدسة أوجها.

ولخص مسرحيات لكالدرون Calderon وأخرى لشيكسبير، كما نشر

دواوين ومؤلفات عدد من الشعراء الألمان: موركه، نوفالس، هيبل، أيشندورف.

ومن أشهر مؤلفاته «سيرة حياة القصصية دروسته هولسهوف» (1904)، «يهود كونستانس» (مأساة، 1905)، «مروة Meroe» (مأساة، 1906)، «السباق مع الظل» (دراما، 1922)، «المملكة الوسطى» (1922)، «بربتو Perpetua» (قصة، 1926)، «الطريق إلى ايلوك» (قصة، 1930)، «تيودور دورن» (قصة، 1967).

وقد نشر مجموع مؤلفاته في خمسة مجلدات (برلين واشتوتجرت 1924).

وكان رلكه قد تعرف إليه في قاعة المحاضرات في جامعة منشن. ومن ثم انعقدت صلات وثيقة بين كليهما. ولم يكن شولتس، حتى الوقت الذي التقى فيه رلكه، قد أنتج إلا بعض قصائد، ومقالات قليلة، وصارا يلتقيان في كل يوم تقريبا في ساعة تناول الشاي، فتجري بينهما الأحاديث المستفيضة في الأدب. ويقرأ كلاهما للآخر ما نظمه من قصائد، ويكتب كلاهما نقدا لما ينشره الآخر. فكتب رلكه نقدا لقصيدة شولتس التي عنوانها «رحلة الربيع»، ونشر هذا النقد في جريدة تصدر في براج عنوانها «جريدة المساء الألمانية». وفي مقابل ذلك نقد شولتس مجموعة شعرية لرلكه عنوانها: «تاج من الأحلام». ولما عقد شولتس زواجه من ابنة جنرال في سنة 1897 تلقى رلكه دعوة لحضور مأدبة العرس في «فندق بايرن». وكان العريسان يستقبلانه بعد ذلك في مسكنهما في شارع أرسس Arcis في منشن. كما أمضى رلكه إجازة عيد الفصح في القصر الذي كان يملكه والد شولتس ويطل على بحيرة كونستانس (الواقعة على الحدود بين ألمانيا وسويسرا).

وتعاون كلاهما مع ديمل Dehmel والموسيقار العظيم رتشرد اشتراوس ولودفج جانجهوفر لعمل اكتتاب لمساعدة الشاعر ليلنكرون Liliencron لما حلت به ضائقة مالية خانقة-وكم حل به من ضوائق مالية طوال حياته!

ومنشن تشتهر باحتفالين عظيمين: احتفال أكتوبر، وفيه يحتفل بقطف العنب، على الرغم من أن منشن وما حولها لا تشتهر بالنبيذ، وإنما تشتهر بالبيرة، إذ فيها أعظم مصانع للبيرة في العالم، وعلاماتها التجارية هي التي تسيطر على تجارة البيرة في العالم كله.

والثاني هو احتفال المرافع (الكرنفال) في شهر فبراير من كل عام، ويستمر عدة أسابيع تتحول المدينة في أثنائها إلى دنيا المساخر والرقص،

والسهر الدائم والإفراط في شرب البيرة وأكل السجق الشهير، وهو ثاني ما تشتهر به منشن بعد البيرة.

فراح رلكه يشارك في هذه الاحتفالات باندفاع الشباب وخيال الشاعر المرهف الحساسية. وكان يغشى مقاهي الفنانين مثل مقهى استفانيا Stephania، ويسمى أيضا «الجنون الكبير» بسبب من كان يغشاه من البوهيميين وأدعياء الفن والمومسات.

وممن تعرف إليهم رلكه في هذا الوسط البوهيمي فتاة تدعى فرنتسسكا فون ريفنتلوف Franziska Von Reventlov وكانت من أسرة أرستقراطية عريقة- كما يدل على ذلك اسم أسرتها الشهيرة في تاريخ ألمانيا-ولهذا كانت تلقب بلقب: كونتيسة. وكانت قد تزوجت، لكنها ضاقت بالزوجية فهجرت بيتها وقطعت علاقتها بأهلها، وجاءت-وهي من شمال ألمانيا-إلى منشن لتحيا حياة طليقة غير مقيدة بأي قيد. ولما كان أهلها قد عاقبوها بأن قطعوا المال عنها، راحت تسعى لكسب قوتها بالكتابة أحيانا وبالمخادنة في معظم الأحيان: فكانت تتنقل من خليل إلى خليل. وأنجبت طفلا، لكنها كتمت دائما اسم والده. ومن بين هؤلاء الرجال الذين تبادلوها كان صاحبنا الفتى: رلكه! ويبدو أن العلاقة بينهما استمرت لمدة طويلة، إذ نجد رلكه يرسل إليها خطابا في 18 ديسمبر سنة 1901 يخبرها فيه بميلاد بنت له في 12 ديسمبر 1901، هي راعوث Ruth بعد زواجه من الفنانة كلارا فستهوف Clara Westhoff في 28 أبريل من العام نفسه (1901).

وهكذا كان رلكه يغشى المجتمعات الأدبية ويخوض حياة أهل الأدب والفن، ويشارك في حياة اللهو والنشاط الفكري. وواكب ذلك بدء لمعان اسمه في هذه الأوساط بما كان ينشره من مقالات نقدية وقصائد شعرية في المجلات الأدبية التي كانت تصدر انذاك في منشن وغيرها: ففي سنة 1896 نشر له في مجلتي «غاية البساطة» Simplicissimus، و«الشباب» Jugend، وفي سنة 1897 نشر له في مجلة «المستقبل» Zukunft، وفي سنة 1899 في مجلتي «المجتمع» و«الصدى الأدبي»، وفي سنة 1900 في مجلة «الجزيرة». وكشاهد على أسلوب رلكه في هذه المقالات النقدية نورد ما كتبه عن المجموعة الشعرية التي أصدرها شولتس بعنوان «الرنين السامي» (سنة 1897).

«إن فيها روعة الصور المرسومة في بساط جوبلان قديم، وفيها في

الوقت نفسه الأناقة التي بها تضيء الشمس ألوانها... إنها بدايات وأصداء لفن جديد ناضج».

ووصف رلكه في أقصوصة عنوانها «ايفالد تراجي» تجربته الأولى في منشن، وخص بالذكر من تعرف إليهم آنذاك من الأدباء: فلهلم فون شولتس، ويعقوب فاسرمن. وهذه الأقصوصة تعد بمثابة ترجمة ذاتية لرلكه. ويغلب على الظن أنه كتبها في سنة 1898. بيد أنها لم تنشر لأول مرة إلا في سنة 1927، أي عقب وفاته. وكانت النشرة الأولى خاصة، إذ أصدرتها جمعية منشن لهواة الكتب في 95 نسخة فقط. ثم نشرت مرة ثانية في سنة 1944 في نيويورك في طبعة محدودة أيضا. وفي سنة 1959 نشرها ناشره المعتمد Insel-Verlag في مجموعته الصغيرة Insel-Bucherei

إن «إيفالد» هو نفسه رلكه. وهو يذكر كيف سخر منه أهله حين قرر أن يحترف مهنة الأدب، بعد أن هجر المدرسة الحربية، وكيف عزم على متابعة الدراسة في جامعة منشن. ويهمنا هاهنا أن ننقل وصفه لصاحبيه: شولتس وفاسرمن. وقد وصف الأول تحت اسم كرانتس Von KranZ، ووصف الثاني تحت اسم تالمن Thalmann.

وهاهو ذا يصف فلهلم فون شولتس فيقول:

«إنه يكتب كتابا عظيما، ملحمة أو ما يفوق الملحمة، جديدة جدا على كل حالة، وكلها «نقط ذروة» كما أكد لمن تعرف إليه حديثا (يقصد: رلكه) خلال نصف الساعة الأولى من لقائهما. ومثل هذا العمل لا يعتمد-كما هو معلوم- إلا على الإلهام، على النشوة العميقة التي (على حد قول فون كاتس) «تحقق حلم العصر الوسيط وتستطيع أن تحول كل شيء إلى ذهب». وواضح أن هذا لا يحدث إلا في وسط الليل، أو في أية ساعة غير عادية وليس في الساعة الرابعة بعد الظهر، وهي الساعة التي لا يمكن أن يحدث فيها-كما يعلم الجميع-إلا الأحداث العادية. ولهذا السبب، فان السيد فون كرانتس (= فلهلم فون شولتس) غير مشغول. وهاهو ذا يجلس في مقهى لويتبولد قبالة تراجي Tragy (= رلكه) وهو متدفق القول، لأن ايفالد (= رلكه) يصمت كثيرا، بينما كرانتس (= شولتس) لا يحب الصمت، فيما يبدو. أنه يعتبره امتياز المتوحدين. لكن أينما اجتمع شخصان أو ثلاثة فلا معنى للصمت، وعلى الأقل الصمت غير مفهوم لأول وهلة. ولا داعي لأي غموض أو عدم

فهم، على الأقل في الحياة، أما في الفن؟-آه! فتلك مسألة أخرى: فهناك الرمز-أليس كذلك؟ ملامح صورة على إحساس من الضوء-أليس كذلك؟ صور محجوبة-كلا؟ أما في الحياة فالرموز أمر مضحك».

ويفيض شولتس في شرح آرائه في الفن، بينما رلكه يكتفي بأن يقول-بين الحين والحين-نعم! والسيد فون كرانتس مخلص في آرائه. إنه يتكلم بصوت عال جدا، ويبدو عليه كما لو كان قد نسي في أي مكان هو. وكلامه مثل إعصار ينتزع نوافذ الحجرات المجهولة. ويخوض في كل المناقشات، بحيث يضطر المرء إلى التسليم وترك كل النوافذ مفتوحة، ويبقى الإعصار مهيمنا وحده على الأرض. بل إن منا، Minna (النادل) تنسى أن تصب الشراب، فتستند إلى عمود (في المقهى) وتستمع، وعيناها مع الأسف خبيثتان. وفجأة، بهاتين العينين النجلاوين الخضراوين، تلتقف نظرات الشاعر الملتمعة، وتطفئها وتجعلها صغيرة، قليلة الأهمية، معدومة، ثم بابتسامة كريهة تدعها تسقط. «فيشعر السيد فون كرانتس بالضيق برهة. لقد تزعزع، لكنه ما يلبث بعد لحظة أن يتظاهر بأن ما حدث كان معاكسة متوقعة. ويلقي بكلمة إلى النادل الجميلة، كلمة قطرانية، فيها من الضفدع أكثر مما فيها من الزهرة. وهاهو ذا يعود فيستأنف موضوعه، بل إنه وصل إلى ذروته، أعني: كيف تغلبت على نيتشه».

ويُتوقع من رلكه أن يقول رأيه فيما عرضه من آراء. لكن رلكه «في وسط هذا كله كأنه في أعمق عمائق غابة، ولا يرى إلا جذوع أشجار، وجذوع أشجار، وجذوع أشجار، ولا يدري هل الدنيا ليل أو نهار». لهذا لا يحير جوابا.

وفي الأيام التالية يشعر رلكه بأن عليه أن يعطي ماعنده لصاحبه الجديد هذا: شولتس. وذات يوم، بينما كانا يتريضان في «الحديقة الإنجليزية» (أشهر معالم منشن) يقول رلكه لصاحبه فجأة: «أنا عشت دائما في وحدة. ففي سن العاشرة غادرت المنزل لأذهب إلى مدرسة حربية كنت فيها وسط خمسمائة زميل، ورغم كل شيء كنت هناك بائسا كل البؤس، وذلك طوال خمس سنوات. وبعد ذلك وضعوني في مدرسة أخرى، وبعد ذلك في مدرسة أخرى، وهكذا على التوالي. لقد كنت دائما وحدي».

ورلكه إنما يذكر هنا مقامه في المدرسة الحربية طوال خمس سنوات، ثم دخوله بعد ذلك المدرسة التجارية، ثم خروجه منها والتحاقه لمدة

عـام بجـامعة بـراج. وعقب ذلك يصف رلكه كيف كان هو وشولتس يمضيان الوقت معا. ومنذ ذلك التعارف «صار (شولتس) يمضي أوقاته عند إيفالد (= رلكه) فيأتي في ساعة مبكرة جدا، ويبقى طوال فترة الصباح، وأحيانا يبقى حتى وقت متأخر جدا من الليل. ويفعل ذلك على نحو طبيعي، بحيث لم يعد تراجى Tragy (= رلكه) يجرؤ على إغلاق وحدته، بل صار يعيش وكل أبوابه مفتوحة، إن صح هذا التعبير. والسيد فون كرانتس (= شولتس) يغدو ويجيء، ويجيء ويغدو، وله الحق في ذلك، لأنه-كما يذكر-«كلانا له المصير نفسه، يا عزيزي تراجي. وأنا أيضا لم يفهموني هناك بين أهلي. وحسبوني طائشا، مجنونا»... وحينما كان (شولتس) يتناول هذا الموضوع، كان لا ينسى أبدا أن يذكر أن أباه في وظيفة مارشال في بلاط إمارة ألمانية صغيرة. وفي هذه الأوساط-وواضح أنه لا يقدرها كثيرا-تسود الأفكار الأرستقراطية والمحافظة المعروفة. وهذه الأفكار هي التي أرغمته على أن يصبح-بالرغم منه-ملازما ثانيا-انظر: ملازما ثانيا!-في الحرس الأميري. وهو (= شولتس) تكلف الكثير من المتاعب في سبيل أن يحال إلى الاحتياطي بعد عام من الخدمة، بالرغم مما لقيه من تعاطف، سواء من جانب رؤسائه، ومن جانب مرءوسيه. وأما أن القوم في قصر سيفيس كورنتس لا يوافقون على اختياره لمهنته الجديدة وأنهم يهددونه بقطع الرزق عنه-فهذا ما لا حاجة إلى ذكره. ورغم ذلك فإنه لم يتخل عن الكفاح. بالعكس، لقد خطب، نعم خطب خطبة رسمية، وبعث ببطاقات إعلان الخطبة مطبوعة. وخطيباه من أسرة عريقة طبعا. وهي أنيقة، كاملة التربية. نعم، هي ليست غنية، لكنها شبه نبيلة (فإن أمها هي الكونتيسة فلانة) هذا هو. وهذا القرار الذي اتخذه دون روية دليل على حريته إلى حد ما. ولن يتأخر عقد الزواج، وهنالك سيأتي الانتصار الكبير، أعني «قطع علاقتي بالكنيسة»-هكذا قال وهو يرتب شاربه الأشقر باسما.. هذه ضربة قاسية، أليس كذلك؟ وأنا بهذا أتخلى عن رتبتي بوصفي ضابطا، طبعا-أضحي بها لما اعتقده أن الانتساب إلى طائفة لا يحترم المرء قوانينها هو عدم إخلاص تجاه الذات».

وفي عصر يوم آخر وهما جالسان في مقهى لويتبولد، راح شولتس يشرح لرلكه مذهبه الفني فيقول:

«طالما لم نحقق ذلك، فلن نكون قد فعلنا شيئا. إننا في حاجة إلى فن

الأعالي، يا عزيزي، فن يسيطر على الجماهير. علامات على كل الجبال من بلد إلى بلد، فن يكون بمثابة نداء، فن يكون بمثابة إعطاء إشارة».

وإذا بشخص من ورائه يصيح: «مجرد ألفاظ!» ويسقط هذا القول كالملاط الرطب على فصاحة الشاعر المتوهجة ويغطيها.

«مجرد ألفاظ»-صدرت هذه الكلمة «عن رجل قميء أسود اللون يسحب نفسا طويلا من عقب سيجارة قصير جدا. وفي الوقت نفسه تلتمع عيناه السوداوان الواسعتان اللتان تنطفئان مع هذه الأنفاس. ثم يتابع طريقه. ويلقي كرانتس (= شولتس) من ورائه بنظرة غاضبة قائلا: طبعا تالمن Talmann ويواصل كرانتس (= تالمن) كلامه موجها القول إلى إيفالد (= رلكه): «هذا جلف. ولابد من وقفه عند حد، ذات يوم. لكنه إنسان غير مهذب، ولا قيمة له. والأحسن عدم الالتفات إليه». ويود كرانتس أن يستأنف شرحه لموضوع فن الأعالي. لكن تراجي (= رلكه) يصده عن ذلك بقوة غير معتادة، ودون أن يهتم يسأل: «من هذا؟» فيجيب شولتس: «إنه يهودي أتى من مكان مجهول. وهو يكتب قصصا، فيما أعتقد. وهو واحد من المخلوقات المشبوهة الذين يوجدون هنا بالعشرات، نعم بالعشرات. وهذا النوع من الناس يأتي اليوم من حيث لا تدري، ويمضي غدا إلى حيث لا تدري، ولا يبقى منه إلا بضعة من الطين. لا تنخدع بمثل هذه المواقف، يا عزيزي تراجي».

وهذا «اليهودي الذي أتى من مكان مجهول»-هو القصصي يعقوب فاسرمن (1873- 1934) Jakob Wassermann.

ولد يعقوب فاسرمن في مدينة فورت Furth بإقليم بافاريا (جنوب ألمانيا) في 10 مارس سنة 1873، وتوفي في Altaussee في النمسا في أول يناير 1934. وكان يهوديا من أسرة رقيقة الحال. ولهذا عانى الفقر المدقع في صباه وشبابه. وكان هدفا للازدراء والكراهية معظم حياته، كما يعترف هو بذلك في سيرته الذاتية بعنوان: «سيرتي بوصفي ألمانيا ويهوديا» (1921).

وبدأ نشاطه الأدبي بكتابة قصص قصيرة وقصائد شعرية نشرها في مجلة Simplicissimus الآنفة الذكر مرارا لكنها لم تلفت نظر القراء، مما جعله يزداد حقدا ومرارة، وتشيع في نفسه روح إنكار مدمرة، تماما كما وصفه رلكه في النص الذي أوردناه.

ثم ألف قصة بعنوان «يهود اتسرندورف»، نشرت سنة 1897. وابتداء من

هذه القصة بدأ نجمه الأدبي في الصعود، وهو الوقت نفسه الذي فيه تعرف إليه رلكه. وموضوع هذه القصة هو تشوق اليهود الطويل المدى إلى «مسيح» يخلصهم من الاضطهاد، ونشدانهم العدالة والرحمة في العلاقات الإنسانية، وهو الموضوع الذي كثيرا ما طرقه الكتاب اليهود في أواخر القرن الماضي والثلث الأول من هذا القرن، مثل استيفان تسفايج في رواية «إرميا»-وعالج فاسرمن الموضوع نفسه في رواية أخرى بعنوان: «كاسبر هاوزر» (1908). لكن أفضل قصصه هي قصة «كريستيان فانسكفه» (1918)، وهي تدور حول رجل يتخلى عن ثروته ورفاهيته ابتغاء تخفيف المعذبين في العالم.

وتشيع في قصصه الدعوة والأمل في انتصار الإنسانية بعد تجديدها بوساطة هداية «أنبياء» يعلنون عن العصر الجديد. وأسلوبه يجمع بين النزعة الطبيعية والرمزية. وتتسم أشخاص قصصه بالغرابة، واللوثة الجنونية.

لكن قول فاسرمن: «مجرد ألفاظ؟» كان ذا وقع عميق في نفس رلكه. فراح يفكر فيه طويلا. وفي الأسبوع التالي التقى بفاسرمن في «صالة الأزهار». وكانت هذه الصالة مقهى مشبوها تصدح فيه الموسيقى الصاخبة. (وقد زال هذا المقهى اليوم، بينما لا يزال مقهى لويتبولد عامرا حتى اليوم برواده). وجرى بينهما حديث سمج كشف فيه فاسرمن عن سخائمه وأحقاده، بتهانف وتهكم منحط. فضاق رلكه ذرعا بهذا الحديث المزعج. ورغم ذلك فإنه حين عاد إلى منزله أخذ في كتابة رسالة إلى تالمن (= فاسرمن) يشكر له فيها إيقاظه من سباته الفني قائلا: «لقد أيقظتني من كابوس. أنى لي أن أشكر لك ذلك! لا أملك غير أن أبعث إليك بهذه القصائد، إنها أعز ما أملك، وأصدق تعبير عن دخيلة نفسي».

ويحمل الرسالة والقصائد بنفسه إلى بيت فاسرمن الذي كان يسكن حجرة حقيرة في بيت عتيق عفن مظلم. ويسلم إليه الرسالة ويطلب منه أن يقرأها ويقدم إليه القصائد، فيجيل فاسرمن النظر في صفحاتها بسرعة واحتقار، ويهز رأسه قائلا: «سأكتب إليك ذات يوم عن رأي في هذا» ويصاب رلكه بصدمة وذهول من كلام فاسرمن المقتضب الجارح الكالح. ثم بعد ذلك يصيح في وجهه قائلا: «من أنت إذن؟»، ويريد أن ينقض على ذلك القميء الأسود (فاسرمن) ليضربه. ويصرخ في وجهه وهو يرتعد: «من ذا الذي يعطيك الحق في أن تطأ بقدميك كل ما أملك؟» لكن الدموع تنهمر

من عينيه ويفلت الرجل من قبضة يده ويهدأ عاجزا. لكن فاسمن يأمره بالخروج من عنده. ويخرج رلكه مغيظا حانقا.

وهكذا يرسم رلكه صورة مفزعة لفاسرمن.

ومع ذلك فإن رلكه يدين لفاسرمن بأمرين:

الأول: هو أنه هو الذي أشار على رلكه بقراءة مؤلفات ياكوبسن، وخصوصا رائعته: «نيلز لينه» Niels Lyhne، وقصص تورجنيييف وغير ذلك، باعتراف رلكه هو نفسه. يقول رلكه في رسالة كتبها إلى هرمن بونجس Pongs بتاريخ 17 أغسطس 1924، وهي رسالة في غاية الأهمية لأن رلكه يصف فيها تطوره الروحي والذين أثروا فيه:

«وليعقوب فاسرمن أدين بأنه كان أول من أشار علي إشارة جادة بتلك الكتب (وأيضا بتورجنييف)، ذلك أن الجو الغنائي الغامض الذي كنت أتحرك فيه جعله يضيق بي. وهو الذي حرص على العمل والاجتهاد في الإنتاج الفني. وهكذا فرض علي ذات يوم، وأنا في منشن، أن أطلع على هذه الكتب التي عني هو بها قبل ذلك بقليل. أما أنني لم أستطع أن أجد بنفسي هذه الكتب الميسورة التداول بين الناس-فإن هذا يذكرني بعجزي الذي لا علاج له في ميدان القراءة. فلولا صناديق الكتب المعروضة على طول شاطئ نهر السين Seine (في باريس) والتي تعرض كتب جميع العصور على حافة المياه-لما كنت أستطيع أن أجدها بنفسي».

ثم يذكر رلكه بعد ذلك في هذه الرسالة كيف أنه في تلك الفترة الأولى في منشن لم يقرأ الكثير. يقول: وأيضا في هذه الفترة المبكرة من الإقامة في منشن لم أحصل الكثير فيما يتعلق بالقراءة. فمجلة «أوراق الفن» مثلا بقيت آنذاك غير ميسورة لي، أو غير معروفة-حتى إنني لم أستطع أن أقرأ آنذاك الكثير مما كتبه هوفمنزتال، وإن كان السحر الذي استشعرته من القليل الذي أمكنني قراءته لم يكن له نظير. ومن إنتاج استيفن جيورجه كان كتاب «عام النفس» ذا أهمية منذ البداية، لكنه تجلى لي ذا قدرة قاهرة فقط منذ أن سمعت الشاعر (جيورجه) في جماعة لبسيوس Lepsius يقرأ بنفسه أشعاره الرائعة».

والأمر الثاني: هو أن رلكه إنما تعرف إلى لو أندرياس سالوميه Lou Andreas Salome وهم يتناولون الشاي في منزل فاسرمن، في أوائل شهر مايو سنة 1897.

بيد أن العلاقة بين رلكه وفاسرمن، وإن استمرت فترة من الزمن، فإنها ظلت باردة، مغتصبة. وقد كتب رلكه نقدا لقصة «مولوخ» تأليف فاسرمن (1902).

2 العلاقة مع الأميرة ماريه فون تورن وتاكسس

الأميرة ماريه فون تورن وتاكسس (1855-1934) كانت لرلكه ولية نعمة ومغيثة في الملمات، تفيض عليه بالمال، وتؤفر له المأوى الشعري الرائع الذي ألهمه أجمل قصائده.

كان أبوها هو الأمير النمساوي ايجون هوهنلوهه. وكانت أمها هي الكونتيسة تريزا ثورن-هوفر. وقد قدمت لزوجها ايجون هوهنلوهه-كبائنة زواج-قصرا يقع على شاطئ البحر الأدرياتي بالقرب من تريستا Trieste، التي كانت آنذاك تابعة للنمسا. ويدعى هذا القصر باسم: دوينو Duino. وحتى بعد ضم فينيسياVenezia إلى مملكة إيطاليا إثر حرب سنة 1866، بقي قصر دوينو ضمن حدود إمبراطورية النمسا إلى سنة 1918.

ولدت ماريه في سنة 1855. ووفر لها أبواها تربية اجتماعية وعقلية ممتازة. وهي كانت بطبعها مولعة بالآداب والفنون، تتقن العزف على البيانو، وترتاد حفلات الموسيقى والشعر. وقد تزوجت في سنة 1875 من الأمير ألكسندر فون تورن وتاكسس، صاحب قصر لاوتشن Lautschin في بوهيميا. وكان

من أسرة عريقة في النبالة. وكان من رفاق الأرشيدوق فرانتس فردينند (ولد في جراتس 1863، واغتيل في سراييفو في 28 يونيو 1914) -ولي عهد إمبراطور النمسا-في رحلاته للقنص، كما كان في الوقت نفسه بارعا في رياضة المسايفة (المصارعة بالسيف)، وعازفا مجيدا على الكمانجة.

وكانت الأميرة ماريه تقيم في قصر الزوجية-قصر لاوتشن-حفلات موسيقية تدعو إليها فرقا وترية، مثل فرقة بوهيميا الوترية. وفي الصيف، وهي في قصر دوينو، تدعو رباعي تريستا للعزف في دوينو. وكانت تتقن عدة لغات أجنبية، إلى جانب لغتها الأصلية وهي الألمانية. وكانت تتقن اللغة الإيطالية بخاصة، لأنها تعلمت في فيرنتسه Firenze (فلورنسه)، وصارت تحفظ عن ظهر قلب العديد من الصفحات من شعر دانته Dante وبترركه Petrarca. ولهذا ترجمت إلى الإيطالية العديد من قصائد رلكه، ومن بينها الإيلجيات الأولى والثانية من «إيلجيات دوينو». وكذلك كانت تتقن الفرنسية، حتى إنها ترجمت كتابين من تأليف رودلف كسنر Kassner إلى اللغة الفرنسية.

وإلى قصر دوينو دعت كوكبة من كبار الشعراء والفنانين: نذكر منهم جبرييلي دانونتسيو (1863-1938) الشاعر الإيطالي العظيم، ورودلف كسنر الفيلسوف والأديب الألماني (1873-1959)، والقصصي الأيرلندي جيمس جويس Joyce (1882-1941).

ويصف كسنر تشبع روح ماريه بالأدب والفن فيقول: «لم أشهد مثل الأميرة ماريه إنسانا لا يشبع أبدا من الفن والشعر. وحين أفكر فيها اليوم يلوح لي أن هذه كانت أبرز صفة فيها، أعني تلك القدرة التي لا تنفد، وذلك التعطش والاستعداد للانفعال الشديد بما كانت مستعدة لقبوله مهما يكن عميقا» (من مقدمة نشرة «رسائل رلكه إلى ماريه فون تورن وتاكسس»).

وقصر دوينو يجثم على صخرة عالية تسيطر على البحر الأدرياتي. وتزعم الأسطورة أن دانته Dante أقام فيه لما نفي من فيرنتسه، إذ نزل ضيفا على بطريرك أكوليا. ويشهد على ذلك حجر سمي باسم «حجر دانته» موجود في أصل جدار القصر.

وهذا القصر كان-في الوقت الذي فيه عرفه رلكه-برجا مربعا عتيقا، تحيط به استحكامات وتحصينات ترجع إلى نهاية العصر الوسيط.

وكانت ماريه تستقبل ضيوفها عادة في القاعة الحمراء، أو قاعة

الإمبراطور، وقد سميت بهذا الاسم تبعا للرسوم الجدرانية (فرسك) التي تمثل قمة مجد الإمبراطور ليوبولد الأول، وهو الذي منه اشترى الكونت تورن Thurn هذا القصر. وهذه القاعة كانت تحتوي على صوانات مملوءة بالكتب والأواني الصينية، وتغطي جدرانها قطيفة حمراء قانية. وكانت في القصر أيضا قاعة بيضاء أثاثها فاتح اللون، وتفتح نوافذها الثلاث الكبيرة على منظر فسيح لخليج تريستا. وكان فيها بيانو عزف عليه الموسيقار العظيم فرانتس لست Franz Liszt.

وعند قاع القصر كانت هناك حديقة واسعة فيها بعض الحيوان وتخترقها طرق صفت عليها أشجار السنديان والصنوبر. وعلى ساحل البحر مباشرة كان بلاج سستيانا Sistiana التابع للقصر أيضا. وقد دمر القسم الأكبر من قصر دوينو بفعل قنابل الإيطاليين أثناء معركة إزونتسو Isonzo في الحرب العالمية الأولى.

وبعد انتهاء الحرب قام الابن الثاني للأميرة، الملقب بلقب «الباشا» واسمه الكسندر فون تورن وتاكسس، بإعادة بنائه جزئيا في بداية العشرينات. وأدت هزيمة النمسا-في تلك الحرب العالمية الأولى-إلى التخلي لإيطاليا عن تريستا وما حولها، ومن بينه قصر دوينو. لهذا بادر ألكسندر فحصل على الجنسية الإيطالية باسم «أمير البرج وتاسي، ودوق قصر-حصن دوينو».

وكان رلكه، حين يقيم في هذا القصر، يسكن في غرفة «تطل على كل فضاء البحر، ويود المرء أن يقول إنها تطل مباشرة على الكون كله».

أول لقاء

وكانت ماريه فون تورن وتاكسس قد تعرفت إلى شعر رلكه عن طريق رودلف كسنر Kassner فشاءت أن تتعرف إليه شخصيا عند أول فرصة تسنح لها.

وسنحت لها هذه الفرصة عندما كانت في باريس في ديسمبر سنة 1909. إذ كتبت إلى رلكه في 10 ديسمبر رسالة صغيرة تدعوه فيها إلى زيارتها في فندق ليفربول (شارع كستليوني) حيث كانت تقيم. وشارع كستليوني يمتد ما بين شارع ريفولي وميدان فندوم. وتشفعت في هذه الدعوة بصديقها كسنر. وشجعها على إرسال الدعوة إلى رجل لا تعرفه-الشاعرة أنا دي نواي Anna de Noailles التي كانت تريد هي الأخرى أن تتعرف إليه خصوصا لأنه بعث إليها بثناء على ديوانها الأخير وعنوانه

«انبهارات» (ظهر سنة 1907). وحددت ماريه في رسالتها موعد اللقاء في الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم الاثنين 13 ديسمبر 1909. وقالت في الرسالة: «وستجد معي الكونتيسة آنا دي نواي، التي ستسر كثيرا بلقائك». وقد أرسلت الدعوة إلى عنوانه في المنزل رقم 77 شارع فارن (متحف رودان الآن). فأجاب رلكه بجواب مؤرخ في اليوم نفسه (الجمعة 1909/12/10) يقول فيه:

«أيتها الأميرة!

إن المفاجأة النفيسة التي حملتها سطورك اللطيفة كانت تنتظرني في المنزل. إن الرغبة في قبول اللقاء بعد ظهر يوم الاثنين لتتصاعد في نفسي قوية مصممة إلى درجة أنه يعز علي أنني لم أكن هنا حين وصلت الدعوة لأجيب عنها في الحال.

منذ عدة أشهر وأنا أعيش دون أن أرى أحدا. أما الآن فإني أسمح لنفسي بهذا الانصراف النادر عن عملي، الذي أراد إحسانك أن يوفره لي- وأنا أعلم مقدما أنه سيكون أجمل من كل ما يمكن أن يتحقق لي.

وفي تلهفي على أن أستطيع أن أعبر لك عن ذلك بصوتي الحي، فإنما أبعث إليك، أيتها الأميرة، باحتراماتي وإخلاصي».

وظل رلكه يتقلب على أحر من الجمر انتظارا لهذا اللقاء الذي تم في الساعة الخامسة من يوم الاثنين 13 ديسمبر سنة 1909، بحضور الشاعرة الكونتيسة آنّا دي نواي.

والكونتيسة آنا اليصابت دي نواي، واسمها قبل الزواج هو الأميرة بيبسكو دي برنكوفا كانت من رومانيا، وكانت ابنة الأمير بيبسكو Bibesco دي برنكون، وأمها كانت يونانية من جزيرة كريت (في اليونان. ولدت في 1876/11/15)، وتوفيت في 1933/4/30 بباريس. ونشئت في باريس، ومن هنا كان إتقانها التام للغة الفرنسية التي بها ستكتب كل قصائدها. وكانت رائعة الجمال الممزوج ما بين الجمال الروماني والجمال اليوناني. وفي سنة 1897 تزوجت نبيلا فرنسيا يدعى ماتيو دي نواي. وعاشت بين باريس وجنيف (سويسرا).

وكانت شاعرة مشبوبة العاطفة. ويسود شعرها حب الحياة والسرور بالأحاسيس الملتهبة. وراحت في قصائدها تتغنى بجمال الحياة، وروعة الشباب، وجمال الطبيعة. لكن ذلك كان في الفترة الأولى من حياتها. أما

في الفترة الأخيرة من عمرها فقد أبدلت بهذا كله مرارة الشعور، وكآبة الإحساس، والتسليم الكظيم!

أما من حيث الشكل، فقد التزمت الوزن الكلاسيكي (وخصوصا من البحر الإسكندري) كما التزمت القافية.

وتوالت دواوينها «القلب المتعدد» (1901)، «ظل الأيام» (1902)، «انبهارات» (1907)، «الأحياء والأموات» (1913)، «القوى الأبدية» (1920).

كما أنها كتبت قصصا، نذكر من بينها «الأمل الجديد» (1902)، «الوجه الممتلىء بالإعجاب» (1904)، «السيطرة» (1905)، «البريئات» (1923). كما أنها كتبت سيرة حياتها بعنوان «كتاب حياتي» (1923).

ويبدو أنها هي التي احتكرت الحديث في هذا اللقاء الأول مع رلكه. ومن بين ما سألته عنه أنها قالت «يا سيد رلكه! ما الحب في نظرك؟ وما رأيك في الموت؟» لكن لم يصلنا جواب رلكه عن هذين السؤالين. وقد دعت رلكه إلى زيارتها في صالونها الأدبي. لكن رلكه تملص من الدعوة بكلمات قليلة كتبها إليها.

أما مع ماريه فون تورن وتاكسس، صاحبة الدعوة، فقد كان رلكه حييا متواضعا متلطفا إلى آخر حدود اللطف والرقة. وقد دعته إلى زيارتها في قصر دوينو.

وفي صباح اليوم التالي (الثلاثاء 14 ديسمبر سنة 1909) كتب رلكه إليها يشكر لها تلك الدعوة، ويعتذر عما عسى أن يكون قد بدر منه من احتشام زائد وتحفظ واضطراب، وعن تلبثه طويلا في حضرتها. ووردت هي عليه في اليوم نفسه قائلة إنها كانت تود لو أنه كان قد أطال الجلوس، وتشكر له باقة الورد الفاخرة التي أرسلها. وختمت الرسالة بقولها: «لكني آمل كثيرا أن يكون لقاء الأمس مجرد بداية، وأصمم تصميما مطلقا على لقائنا من جديد هنا أو في إيطاليا أو في النمسا!»

وبعد هذا اللقاء الأول بأكثر من شهرين، أرسلت ماريه إلى رلكه بطاقة بريدية عليها صورة «قصر لاوتشن في الشتاء»، بتاريخ 24 ديسمبر 1909، وكتبت عليها: «أحر التمنيات القلبية بمناسبة عيد الميلاد ورأس السنة».

فرد عليها رلكه على عنوانها في قصر لاوتشن، بتاريخ 28/ 12/ 1909 برسالة يعبر فيها عن بالغ تأثره بهذه البطاقة البريدية، وألحق بالرسالة

نسخة من الدراسة التي كان قد كتبها عن ديوان شعر الكونتيسة دي نواي، الذي عنوانه «انبهارات».

وفي 8 يناير 1910، وهو آخر يوم لإقامته في قصر بيرون Biron(متحف رودان الآن) في باريس-كتب إليها رسالة يقول فيها : «إني أتمثل، بين الحين والحين، الأيام القادمة، وهي أيام ربما سأقضيها في قصرك المطل على البحر... إن قصرك المطل على البحر أنا أتخيله شبيها بقصر فياردجو Viareggio الذي لجأت إليه مرارا أثناء أعوامي الماضية، وإن شطرا كبيرا من «سِفْر الساعات» قد تكون هناك.. أما الآن فإن عملي يدعوني إلى الذهاب إلى ألمانيا لمقابلة الناشر Insel Verlag، إذ قررت أن أملي هناك مخطوطي الجديد(1) وفي عزمي أن أعود في شهر أبريل إلى باريس. أما في شهري فبراير ومارس فإن لدي مشروعات أسفار لا أعتقد أنها جادة».

ثم يكتب إليها من مدينة ليبتسج Leipzig (في ألمانيا) وهو عند الناشر، بتاريخ 27 يناير 1910، يقول: «لم يمض نصف ساعة على إملائي آخر كلمة في مخطوط كتابي. فإن لم أكن مخدوعا فها هو ذا كتاب جديد انفصل عني، واستقر في واقعه هو. وإني أنتهز هذه اللحظة المناسبة لأقول لك إن الحرية التي استعدتها لكل أفكاري تسمح لي بأن أداعب الأمل في المجيء فعلا إلى دوينو.. وفي الصورة التي أتخيلها لقصرك على شاطئ البحر يتجلى رائعا الأمل في أن ألقى هناك كسنر Kassner. إنني أفكر فيه بكل أنواع الأماني. في الأسبوع القادم سأكون في برلين، حيث أرجو أن ألتقي مع هوفمنزتال، ثم أعود إلى ليبتسك Leipzig قبل أن أواصل سفري».

وفي رسالة من برلين بتاريخ 16 مارس 1910 ينبئها بأنه سيكون في دوينو حوالي يوم 20 أبريل 1910.

ويسافر رلكه بعد ذلك إلى روما، وينزل في فندق روسيا، حيث ينكب على تصحيح تجارب طبع كتابه «صحائف مالتي لوردز برجّه». ويكتب إلى الأميرة ماريه بتاريخ 18 أبريل 1910 فيقول «بالأمس انتهيت من تصحيح الملزمة الأخيرة من كتابي. وسرعان ما أفكرت في الكتابة إليك. ويدعوني إلى الإسراع في الكتابة ما سمعته بأن ثمة عواصف عنيفة قد هبت على نواحي تريستا فهل لم تحدث العاصفة أضرارا عندكم؟... أرجو أن تتفضلي فتحددي ما اليوم الأمثل لوصولي؟ كنت قد أفكرت، كما كتبت إليك، في

نحو اليوم العشرين (من شهر أبريل الحالي). لكن في وسعي أن أحضر قبل أو بعد هذا التاريخ حسبما تأمرين. أما عن نفسي فليس أمامي إلا أن أشاهد من جديد بعض الحدائق هاهنا، وربما منازل آل بورجيا، وفيللا دسته Villa D'Este خارج روما وما عسى أن أصادفه إبان الطريق، هل التأم شمل ضيوفك في دوينو؟»

وترسل إليه الأميرة ماريه برقية من فينيسيا بتاريخ 4/16 تقول فيها «أنتظرك بسرور ابتداء من اليوم العشرين». ثم تتلوها ببرقية في اليوم التالي تقول فيها: «لما كان كسنر سيغادر في يوم 23 فأرجو أن تحضر في يوم 19 أو 20 إن أمكن».

ومن روما توجه رلكه إلى دوينو، فوصل هناك في 20 أبريل، وأقام حتى يوم 27 أبريل. ومن هناك توجه إلى فينيسيا فوصل في اليوم التالي-28 أبريل. ونزل في فندق رجيناRegina. ومنه كتب إلى الأميرة بتاريخ 29 أبريل يصف فيها مقامه لديها في قصر دوينو فيقول: «خلال الأيام الأولى لإقامتي في دوينو كنت على الحال نفسه التي كنت عليها حين غادرت روما-أعني في غاية الانقباض. ولا أستطيع أن أفهم ماذا فعلت من أجل أن تحتمليني. وشيئا فشيئا استطعت أنت أن تجعليني مقبول العشرة أكثر. على الأقل آمل أن تكوني قد أحسست بذلك. وانتهى بي الأمر أن استيقظ سعيدا منشرح الصدر. ومع ذلك فإنني إذا لقيتك مرة أخرى، فليكن ذلك في ظروف أحسن» ويسألها في الختام أن تحمى باسمه ضيوفها العديدين في دوينو.

وفي 30 أبريل 1910 يكتب إليها من الفندق نفسه في فينيسيا رسالة باللغة الفرنسية (لماذا بالفرنسية؟ لا ندري!) يذكر فيها أنه ذهب إلى كيودجيا Chioggia، وشاهد لوحة رسمت فيها القديسة تريزا وهي مغمى عليها، ويتطلع فيها طفل مجنح وهو حزين. وكان هناك اعتقاد مفاده أن اللوحة قد رسمتها القديسة تريزا الآبلية (1515- 1582) هي نفسها، لكن الراجح هو أنها من عمل روزلبا كرييرا Rosalba Carriera. ويطيل رلكه في وصف اللوحة، ويقدرها لا بوصفها عملا فنيا ذا قيمة-لأن قيمتها في نظره تساوي صفرا-وإنما كوثيقة فنية من الفنان الذي أهمل-وهو يرسم القناع الساحر في زمانه-التوسع في التعبير عن ألمه هو، والذي كان يتحسس-وهو شبه أعمى - اللوحة من بعيد ليرسم-بصعوبة-رأس هذا الملاك.

وبمجرد ظهور كتابه «صحائف مالتي لوردز برجه» في 31 مايو 1910 بعث بنسخة منه إلى الأميرة ماريه. فبعثت إليه في 7 يوليو 1910 برسالة تشكر له فيها هذا الكتاب وتقول «غطست في الكتاب. وإني أتذوقه بلذة منقطعة النظير، وإن كان أحيانا يعتصر الألم.. خبرني عما صار في الكتاب الذي أردت أن تكتبه عن دوينو».

وكان رلكه قد سافر إلى باريس، فوصلها في 12 مايو 1910. وفي هذه المرة التقى بأندريه جيد Andre Gide (1869-1951).

علاقته مع أندريه جيد

ومن ثم ستنعقد علاقة وثيقة بين رلكه وأندريه جيد. حيث كان رلكه معجبا بقصة جيد «الباب الضيق»، لأن هذا الكتاب-كما قال رلكه[2] «يخرج عن التصور الفرنسي للحب، ويسعى إلى إحداث نصف ثورة في مجال مستقل بذاته». لهذا حرص رلكه على معرفة مؤلف الكتاب. وتم له ذلك في صيف 1910. وقد استقبله جيد في منزله.

ومن قصر يانوفتس حيث كان رلكه ضيفا، بعث رلكه بتاريخ 6 سبتمبر 1910 رسالة إلى جيد أرفق بها نسخة من كتابه «صحائف مالتي»، يقول فيها «إذا كنت أرسل إليك كتابي هذا متأخرا بعض الوقت، فليس ذلك قطعا لأنني نسيتك. إنني، على العكس من ذلك، أعدك بكل قلبي واحدا من الأشخاص القلائل الذين أهديهم هذا الكتاب أبدا، إن صح هذا التعبير-لقد كنت ساخطا على صحتي وعلى نفسي خصوصا، فغادرت باريس متعجلا في مستهل شهر يوليو (1910) «مراسلات رلكه مع جيد» ص 41.

فلما قرأ جيد «صحائف مالتي» أعجب به كثيرا، وراح يترجم منه قطعة. وكتب إلى رلكه بتاريخ 1910/10/16 يقول:

«عزيزي السيد رلكه:

إني أعيش معك منذ خسة عشر يوما وأسكن بعمق في كتابك وكم أنا مدين له بأن زادني معرفة بك، لأن هذا زاد من محبتي لك... إن كسنر كتب إليّ يخبرني أنك مريض. وكانت زمالتك الرقيقة في الشهر الماضي قد أشاعت في نفسي بعض القلق. ألا تفكر في العودة إلى باريس هذا الشتاء؟ صدق أنني سأكون آسفا جدا لو لم تفعل ذلك» («مراسلات رلكه مع جيد» ص 38).

ويجيب رلكه على رسالة جيد هذه برسالة مؤرخة في 28 أكتوبر يقول

فيها إنه يأمل في زيارة باريس يوم الأحد زيارة قصيرة. ويخبره في الوقت نفسه «أن لديه فكرة قضاء بضعة أشهر في الجزائر أو في تونس. وأنا أعتقد أنك تعرف وتحب بلاد أفريقيا هذه. فهل أستطيع الاعتماد على نصائحك؟» (الكتاب نفسه، ص 45).

ويرد عليه جيد على الفور، مبديا استعداده لإعطائه المعلومات التي يطلبها عن هذين القطرين ويقترح عليه-لو أنه جاء إلى منزل جيد في حي Auteuil- بأن يريه «صورا شمسية جميلة لتلك البلاد». ولما وصل رلكه إلى باريس في بداية نوفمبر زار جيد، وتلقى منه معلومات عن الجزائر وتونس، وأعطاه توصية لمسيو بروكان. ولما وصل رلكه إلى مدينة الجزائر العاصمة في نهاية نوفمبر 1910 ونزل في فندق «سان جورج» بعث بانطباعاته الأولى إلى جيد.

ونقف عند هذا الحد، لأننا سنتناول رحلة رلكه إلى الجزائر وتونس ومصر بالتفصيل الكامل.

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى الجزائر وتونس، وخصوصا إلى مصر، يعود رلكه إلى باريس في 6 أبريل 1911، وهو يوم عيد الفصح في تلك السنة. لكنه لا يزور جيد مباشرة، لأنه متعب من رحلته ويعتذر له عن ذلك برسالة مؤرخة في 22 مايو، يقول فيها:

«عدت (إلى باريس) منذ عيد الفصح، لكني لم أنسك. بيد أن من الصعب علي جدا أن أكتب سطرا واحدا. إنني خلال هذه السفرة الطويلة المتنوعة، بقيت في حال من خمول النفس واجتواء العمل شبيهة بتلك التي شاهدتني عليها وأنا على عزم السفر. وقد تأخر علي الآن أن ألقاك. كيف حالك؟ إنني أخرج قليلا، لأن عليّ أن أرد على كل هذه الرسائل نصف الميتة، وأن أنجز بضعة أعمال صغيرة» (الكتاب نفسه ص 56). ويدعو جيد إلى تناول الشاي عنده. فأجابه جيد من مدينة بروج Bruges (في بلجيكا) في نهاية شهر مايو 1911 برسالة يقول فيها «أية لذة زودتني بها رسالتك! أتدري ماذا أفعل في بروج؟ إني أترجمك (أوه! بضع صفحات فقط) مع صديقة قد كتبت مقالة عنك (ستظهر في أحد الأعداد القادمة من «المجلة الفرنسية الجديدة» NRF) وقد جاءت من لوكسمبورج خصيصا لأساعدها على تنقيح اللغة الفرنسية في ترجمة بعض المواضع التي أوردتها شواهد في دراستها تلك» (الكتاب نفسه، ص 58). وهذه الصديقة هي «السيدة مايرش» Mme Mayrisch.

وجاء جيد لزيارة رلكه وأحضر معه نسخة من قصة «إيزابل» Isabelle تأليف جيد، وقد صدرت حديثا. وفي أولا يوليو ظهر عدد «المجلة الفرنسية الجديدة» الذي يحتوي على مقالة السيدة مايرش عن رلكه، ومعها ترجمة جيد. وقرأ رلكه المقال في 6 يوليو. وعلى التو أرسل رسالة إلى جيد يشكر له فيها قائلا:

«عزيزي جيد!

الدموع تنهمر من عيوني، وينهمر مثلها في قلبي وأنا أكتب لك هذا. منذ ما يقرب من ساعة، وجدت «المجلة الفرنسية الجديدة». ماذا أقول لك؟ إني شديد التأثر من هذا النقل الملهم الذي ترجم لي قطعتين رئيستين من كتابي، على نحو تام لم أكن أحلم بمثله: أليس إنجازك الدقيق هذا دليلا مقنعا جدا على حقيقتهما الراسخة الثابتة؟ إني لم أعتقد أبدا أن من الممكن الاقتراب هكذا من نثري المتراجع. إني معجب بقدرتك، بوصفك فنانا كبيرا، وباللطف الذي كشفت عنه لتحقيق وجود جديد لما يسكن في هذه الصفحات الوحشية أو المعذبة. إن ثم مواضع أستطيع أن أقول عنها إنني إنما قصدتها على النحو الذي صوره عقلك وبينته دراستك. وإن منها مواضع لا أود بعد الآن أبدا أن أعيد قراءتها إلا في ترجمتك» (الكتب نفسه ص 62).

ولا ينبغي طبعا أن نأخذ كلمات رلكه هذه بحروفها: ففيها مبالغة كبيرة جدا صدرت عن نفس امتلأت زهوا بأن يترجم لها أديب كبير مثل أندريه جيد، الذي كان آنذاك في أوج مجده وهو في الثانية والأربعين من عمره، بينما كان رلكه شبه مجهول في فرنسا وهو آنذاك في السادسة والثلاثين.

وفي مقابل ذلك أخذ رلكه في ترجمة أحد مؤلفات جيد، وهو «عودة الولد المتلاف» (1907) وقد بدأ بترجمته منذ شهر نوفمبر 1913. وأتم الترجمة في منتصف يناير 1914. وظهرت هذه الترجمة عند الناشر Insel Verlag في سنة 1914 تحت عنوان «عودة الولد المفقود» وهذا العنوان أقرب إلى نص إنجيل لوقا (أصحاح 15، عبارة رقم 32) حيث يرد المثل الذي ضربه يسوع عن «ولد مفقود» قد عثر عليه فيما بعد.

وتناقش رلكه مع جيد فيما يتعلق بترجمة بعض الفقرات وعبر عن ذلك رلكه في رسالة بعث بها إلى مدير دار النشر Insel بتاريخ 3 فبراير سنة 1914، فقال «إن جيد يعرف الألمانية بالقدر الذي سمح لي بأن أتناقش معه

بشأن (ترجمة) بعض المواضع، وقد كان النقاش جميلا وخصبا، بحيث جعلني أفترض أن عملي ناجح يستوعب معنى قصته. لقد سرّ سرورا يعجز عنه الوصف بهذا الكتاب الصغير» (أي ترجمة كتاب جيد: «عودة.....»)

أحواله المالية

وعلى الرغم من هذه الضيافات المتواصلة التي كان يتمتع بها رلكه، ويحظى إبانها بالسكنى في أفخم القصور الأرستقراطية العريقة، فقد كانت أحواله المالية غير مستقرة، لا لقلة قيمة موارده، ولكن لعدم انتظامها. فقد كانت موارده ابتداء من سنة 1910 على النحو التالي:

1- تسلم في مايو 1910 مبلغ 550 مارك هي جائزة منحتها له وزارة التعليم والثقافة الإمبراطورية، بناء على توصية من صاحبه القديم أوجست زاور Sauer.

2- وبعد ذلك بقليل، وفي سنة 1910 أيضا، دفع له ناشره كبنبرج مبلغ 2700 مارك، حقوق تأليف عن الطبعة الأولى من «صحائف مالتي»،-و900 مارك عن طبعتين من «سفر الساعات».

3- أما المبالغ المنتظمة فكانت: 80 مارك في الشهر تدفعها له أمه صوفيا Sophie، و500 مارك يدفعها الناشر كبنبرج كل ثلاثة أشهر.

4 -دفع له الناشر صمويل فشر Samuel Fischer مبالغ غير معلومة المقدار.

5- وكذلك فعل صديقه ومشجعه كارل فون هايدتKarl Von Haydt.

6- ثم نزلت عليه ثروة من حيث لا يحتسب في سنة 1910 لما أن توفيت بنت خاله إيرينا فوبورسكي ل Irene Woborsky في صيف 1910. إذ أوصت له بمبلغ عشرة آلاف كورونة (نحو تسعة آلاف وخمسمائة مارك ألماني). وقد خصص رلكه نصف هذا المبلغ لتربية ابنته راعوث. وبهذا المبلغ استأجرت أمها-كلارا-مسكنا في منشن لتقيم فيه مع ابنتها راعوث، ولتمكنها من دخول المدرسة.

7- وفي ربيع 1912 وضعت إيفا كاسيرر Eva Cassirer-صديقة إلن كاي Kay-تحت تصرف رلكه مبلغ 12000 مارك لتمكين راعوث من دخول مدرسة أودنفلد. وعلى الرغم من عدم قبول كلارا لهذا المبلغ، فإن رلكه ظل يتسلمه من المتبرعة به على أقساط دفع آخرها في سنة 1914.

8- ولما علم هوفمنزتال بأن رلكه، حين عاد من رحلته في مصر في مارس 1911 قد عاد خاوي الوفاض من المال، كتب إلى الكثيرين من أهل الخير،

ومنهم هيلانة فون نوستتس NostitZ، والكونت هاري كسلر Harry Kessler-كي يتبرعوالرلكه، فتبرعوا بمبلغ يقارب في مجموعه عدة الاف من الماركات.

9- كذلك جمع ناشره كبنبرج Kippenberg من أصدقاء رلكه: كارل فون درهيدت، ورودولف كسنر وغيرهما مبلغا كبيرا، بحيث ضمن لرلكه أن يدفع له أربعة آلاف مارك لكل عام من الأعوام الثلاثة القادمة.

10- وفي صيف 1914 قامت الأميرة مشتلد ليشوفسكي Mechtilde Lichowski -زوجة آخر سفير للإمبراطورية الألمانية لدى بلاط ملك إنجلترا قبل الحرب العالمية الأولى-فأرسلت إلى نحو أربعين من أصدقائها تدعوهم لدفع إعانة سنوية لرلكه لا تقل عن مائة مارك من كل واحد منهم.

11- وأعجب من هذا كله أنه في 26 يوليو 1914- قبل قيام الحرب بأيام قليلة-تبرع فيلسوف المنطق الرياضي الشهير الآن لودفج فتجنشتاين (1889-1951) Ludwig Wittgenstein - بمبلغ عشرين ألف كورونة (نحو 19 ألف مارك). وأصل هذه الحكاية الغريبة هي أن لودفج فتجنشتاين ورث آنذاك ثروة طائلة. فطلب من ناشر مجلة Der Brenner - ويدعى فون فِكرَ Ficker بأن يعين له من هو أحق الشعراء النمساويين بالمعونة المالية. فذكر له اسم جورج تراكل Trakel ورلكه. فوافق فتجنشتاين على إعانة كليهما. ولم يعلم رلكه بهذه الهبة إلا في شهر سبتمبر 1914، دون أن يعرف من هو الذي تبرع بها. ولكي يشكر هذا المتبرع المجهول (وهو فتجنشتاين) بعث إليه عن طريق فون فكر نسخة مخطوطة من بعض قصائده.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، كان فتجنشتاين يبحث عن ناشر لكتابه: «رسالة منطقية فلسفية» واستشار في ذلك فون فكر. فكتب فون فكر الى رلكه في هذا الموضوع، فتعهد رلكه بأن يكلم له في ذلك ناشره كبنبرج، صاحب دار النشر Insel Verlag. وفي تلك الأثناء كان أستاذ فتجنشتاين-لما كان طالبا في جامعة كمبردج-وهو الفيلسوف الشهير برترند راسل Russell قد توسط لدى الناشر الإنجليزي الشهير Allen and Unwin فتولى هذا نشر كتاب فتجنشتاين النص الألماني وفي مواجهته ترجمة إنجليزية وظهر هذا الكتاب المهم في سنة 1922.

ومجموع هذه المبالغ -باستثناء المبالغ المجهولة المقدار-هو 52 650 مارك ألماني في المدة من سنة 1910- إلى 1914، وذلك في فترة كان فيها المارك

الألماني مرتفع القيمة، بحيث كان يكفي المرء ليعيش عيشة كريمة، لا إسراف فيها ولا تقتير، ثلثمائة مارك في الشهر-3600 في السنة= 400 14 , في أربع سنوات. فما بالك وقد قضى نصف هذه السنوات الأربع (1910- 1914) ضيفا على صديقاته!!

لكن رلكه كان ينزع إلى البذخ والإسراف الذي يتجاوز موارده بكثير. إذ كان يقيم في أفخر الفنادق في فينيسيا (فندق جراند أوتيل)، وفي القاهرة (فندق شبرد القديم الكائن آنذاك في حي الأزبكية) إلخ.. إلخ. وحين يركب القطار كان يركب دائما في الدرجة الأولى. هذا فضلا عن تكاليف أسفاره المتواصلة. وكان يحب ركوب السيارات، وكانت السيارات في ذلك الوقت أفخم وأغلى وسائل النقل والترف.

ويحق للمرء أن يتساءل هاهنا: هل لم يكن رلكه يشعر بالخجل، بل بالعار، من أن يكون دائما ضيفا طفيليا على صديقاته، وأن يقبل التبرعات من الأصدقاء ومن أرباب المال؟!

ألم يكن الأكرم له أن يقتصر على ما يحصل عليه من حقوق التأليف، وهو كما رأينا يكفي كي يكفل له عيشة بسيطة تتناسب مع موارده الناتجة من عمله ومما يحصل عليه من أمه شهريا ومن وصايا أقاربه المتوفين؟

صداقته مع اليونورا دوزه

قضى رلكه الفترة من 9 مايو حتى 11 سبتمبر 1912 في مدينة فينيسيا (البندقية) بعد أن أمضى الفترة من 22 أكتوبر حتى 9 مايو 1912 في قصر دوينو ضيفا على الأميرة ماريه.

وهنا في فينيسيا توثقت علاقته مع الممثلة الإيطالية العظيمة اليونورا دوزه Eleonora Duse التي تعد أعظم ممثلة في تاريخ المسرح الأوروبي على الإطلاق.

وقد ولدت في عربة سكة حديدية في 3 أكتوبر 1858 بالقرب من مدينة فدجفانو Vigevano (في مركز بافيا، شمالي إيطاليا)، إبان جولة لفرقة مسرحية كان معظم أفرادها من أسرتها. وظهرت على المسرح وهي في الرابعة من عمرها في مسرحية مستمدة من قصة «البؤساء» لفكتور هوجو. ولما بلغت الرابعة عشرة مثلت دور جولييت في مسرحية «روميو وجولييت» لشيكسبير في مدينة فيرونا، وهي المدينة التي تجري فيها أحداث المسرحية نفسها. فأظهرت من البراعة في التمثيل ما لفت إليها الأنظار. ولما توفي

أهلها المشاركون في تلك الفرقة المسرحية، انتقلت اليونورا إلى فرقة أخرى، ومن هذه إلى ثالثة دون أن تلقى نجاحا يذكر. إلى أن مثلت في نابلي سنة 1878 وهي في العشرين من عمرها دور إلكترا، ثم دور أوفليا (في مسرحية «هاملت» لشيكسبير) فأحرزت نجاحا هائلا. لكن أكبر نجاح لاقته آنذاك كان في تمثيل دور تريز راكان في مسرحية لإميل زولا بهذا الاسم.

وفي سنة 1882 قدر لها أن تشاهد سارة برنار، الممثلة الفرنسية العظيمة، وهي تمثل في مسرحيات معاصرة. فأعجبت بفنها وصممت على منافستها بأن تمثل في مسرحيات معاصرة. ومن ثم أخذت في تمثيل عدة مسرحيات من تأليف الكساندر دوما Dumas الابن (أو: الصغير) [1824- 1895]. وكانت أولى هذه المسرحيات هي مسرحية «أميرة بغداد». فمثلت فيها دور ليونت Lionette. ونجحت في هذا الدور نجاحا كبيرا. وتلت ذلك بتمثيل دور سيزارين في مسرحية بهذا العنوان كانت آخر ما ألفه دوما الابن من مسرحيات. ومن المؤلفين المسرحيين الإيطاليين مثلت دور سنتوتسا Santuzza في مسرحية «كافاليريا روستكانا» تأليف الكاتب المسرحي المعاصر جوفاني فارجا.

وقامت بجولة في أمريكا الجنوبية في سنة 1885 بصحبة الممثل والمخرج تشيزاره روسي Cesare Rossi. ولما عادت إلى إيطاليا كونت فرقة مسرحية خاصة بها، اسمها «الفرقة المسرحية لمدينة روما». وبهذه الفرقة قامت بجولات ناجحة في النمسا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وروسيا والبرتغال وبلجيكا، ومصر. وسافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية بفرقتها هذه في السنوات 1893 , 1896 , 1902.

وفي 1894 وقعت في غرام شاعر شاب إيطالي سيحتل مركز الصدارة في الشعر الإيطالي في الثلث الأول من هذا القرن، وهو جبرييلي دانونتسيو 1938-1863(Annunzio'D). وكان دانونتسيو حتى ذلك التاريخ قد اقتصر على الشعر والقصص («ابن الشهوة»، «انتصار الموت»، «البريء») فلما عرف اليونورا دوزه أخذ يكتب من أجلها مسرحيات. وتوالت هذه المسرحيات، وهي: «المدينة الميتة» (1897)، «حلم صباح ربيعي» (1897)، «الجوكنده»(1898)، «المجد»(1899).

وأوحى غرامه بها إليه بتأليف قصة بعنوان «النار» (1900)، وقصة أخرى بعنوان «فرانشسكا دا رمنى» (1901) وأولى القصتين تروي غرامهما. وقامت اليونورا دوزه بتمثيل بعض مسرحيات دانونتسيو تلك.

لكن أعظم أدوارها المسرحية إنما كانت في مسرحيات إبسن Ibsen (1828-1906) فقد توفرت على تمثيل أشهر مسرحياته: فمثلت نورا Nora في مسرحية «بيت الدمية»، ودور ربكا وست Rebecea West في مسرحية Rosmersholm، ودور هدّا جابلر Gabler في المسرحية التي بهذا الاسم، ودور إليدا Ellida في مسرحية «سيدة من البحر».

وتجلت مهارة اليونورا دوزه في التمثيل بعدة خصائص تفوقت فيها، منها: القدرة على النفوذ في روح الشخصيات التي تمثلها، حتى قيل إنها كانت تفهم نفسية «نورا» أكثر مما كانت «نورا» تفهم نفسها. كلما قال آخرون إنها كانت تمثل ما بين السطور التي تنطق بها في الإلقاء. وكانت أحيانا تجيد التعبير بحركات شفتيها وأعضائها عما لم يفلح المؤلف في التعبير عنه بالكلمات. ومنها أنها كانت تتقن-على حد وصف جورج برنرد شو لها (في كتابه: «آراء مسرحية ومقالات»، سنة 1907) -التغيير في حركاتها ونبرات صوتها آلاف المرات. وكانت تمشي بخطى تختلف في كل دور عن خطاها في دور آخر. وكانت تسيطر على لون وجهها، وتتحكم في مظاهر الخجل، أو الحزن، أو الحياء.

لكنها توقفت عن التمثيل في سنة 1909، لأسباب صحية في الغالب. بيد أنها اضطرت إلى الظهور على المسرح من جديد في سنة 1921 بعد أن عانت متاعب مالية خلال الحرب العالمية الأولى. وفي سنة 1923 مثلت في لندن في ست حفلات بعد الظهر. ثم مثلت في ثلاث حفلات مسائية في فيينا. ثم سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومثلت في مسرح المتروبوليتان في نيويورك. وانتقلت بعد ذلك إلى مدينة بتسبرج حيث توفيت في 21 أبريل 1924، ونقل جثمانها إلى إيطاليا حيث دفنت في مقبرة قرية أزولو Asolo، بناء على وصيتها.

ورلكه يصف أول لقاء بينه وبينها في رسالة إلى ماريه تورن وتاكسس كتبها من فينيسيا بتاريخ 12 يوليو 1912، فيقول:

«الدوزه La Duse: من اليسير عليك أن تتصوري أنني كنت عندها، وأنها هي الأخرى كانت عندي. وهذا أيضا يشبه سابا في الهواء المشبع بالضياء. كان كلانا بالنسبة إلى الآخر مثل شخصين في مسرحية أسرار قديمة، يأخذان في العمل ويتحدثان باسم أسطورة، ويتلو كل واحد منهما دوره.

ومن المجموع خلص على الفور معنى فاق كلينا. لقد كنا بمثابة كأسين. وشكل كلانا نافورة فوق الآخر، دون أن نفعل شيئا غير أن يبين كل واحد منا للآخر كم كنا نصنع في تدفقها. ورغم ذلك لم نستطع أن نتلاقى وأن نتفاهم على روعة أن يكون كلانا مليئا بالثراء، ولربما كنا نفكر في الانبثاق الحي الذي كان يتصاعد فوقنا ثم يتساقط دون انقطاع، وفي الوقت نفسه يملؤنا باستمرار.

«ولما كانت تعوزني الشجاعة، كما هي حالي الآن، فإني لم أتجاسر على النظر إليها. لقد كنت أستشعر نوعا من الحزن، لأني وجدتها عريضة قوية البنية، وجسمها متثاقل مثل حلقة مقواة لخاتم سقط منه الفص ذات مرة- والخوف من ملاحظة أي تشوه، أو مشاهدة أن شيئا لم يعد بعد موجودا-هو السبب في أنني الآن لا أتذكر منها غير فمها: فمها اللحيم الذي يلوح أنه لا ينبغي له أن يفتح إلا تحت ضربة مصير لا شخصي، دون اندفاع، على غرار بعض السيوف التي تنتظر البطل نصف الإله، من أجل أن تشهد ماذا يمكن أن يقال عن هذه الابتسامة التي لا تحتاج إلى مكان، ولا تلغي شيئا، ولا تخفي شيئا، وفيها من الشفافية مثلما في ورقة الزهر، ومع ذلك فيها من الإثارة للأمور غير المتوقعة بحيث يغوى المرء بالنهوض حالما تحدث.

«ومما كان أكثر إثارة لي من هذا الأمر، أن هذا اللقاء قد تم فجأة، دون أن يكون لي ضلع فيه، رغم أن اللقاء بها كان طوال عدة سنين هو أقصى ما كنت أتمنى».

وبعد ما يقرب من صفحة، يواصل رلكه وصف اليونورا فيقول:

«كانت دوزه مليئة بالعظمة اليوم. وكانت تعلوها سحابة يخيل إلى المرء أنها سحابة حزن، لكن في الحقيقة لم يكن ثم إلا مكان هائل، لا هو بالمبتهج ولا بالحزين، لكنه عظيم. وبعد مرور بعض الوقت... بقينا معا، وتناولت العشاء عندها في منزلها في اتساتراZaterra. ومضى الوقت في ثقة ملأى بالصداقة والاقتراب.. ومن جديد صدرت عن أبسط الأشياء كل أنواع المعاني المليئة بالعظمة».

وفي رسالة تتلو الرسالة السابقة بثمانية أيام-أي بتاريخ 20 يوليو سنة 1912- عبرت ماريه عن سرورها البالغ لكون رلكه قد تعرف إلى اليونورا دوزه، فقالت: «سرني كثيرا أنك تعرفت إلى دوزه. وإني لأستطيع جيدا أن

أتصور حالتك-ومن البين أنها إعجاب كامل-لأن هذه المرأة قد جبلت على إثارة الحمية في نفس كل شاعر. إن في كل كلمة تنطق بها تهتز أوتار عديدة قريبة وبعيدة، في الزمان والمكان. إن دانونتسيو Annunzio'D قد استشعر ذلك بعمق، بيد أن الوتر قد انقطع -وتقول أنت إنها صارت بدينة.. هذه المرأة التي كانت هيفاء نحيلة القوام-فيا للخسارة!

«كم أحسدك، أو بالأحرى: كم كنت أود أن استمع إليكما وأنتما تتحدثان.! تلطف إذن بالكتابة إلي مرارا عن هذا الموضوع، أيها الدكتور السرافي!»[(3)] وكسنر Kassner هو الآخر كان يود أن يتعرف إلى اليونورا ذات اليدين الجميلتين».

وتزداد العلاقة بين رلكه واليونورا وثوقا إلى درجة أنه صار بمثابة سند معنوي لها فيما مرت بها من أزمة، وكانت في ذلك الحين -سنة 1912- قد تخلت عن التمثيل لأسباب صحية وغير صحية.

وكانت اليونورا قد رعت مؤلفة ناشئة تدعى بولتي Poletti ثم توترت العلاقة بينهما، حتى ضاقت ذرعا بها، وأرادت التخلص من إلحاحها. واستشارت في ذلك رلكه، فاقترح أن تبتعد بولتي فترة من الوقت. ودار بخلد رلكه أن يكون ابتعادها بأن تقيم فترة من الوقت في قصر دوينو. فكتب إلى الأميرة ماريه تاكسس يعرض عليها هذا الاقتراح. لكن الأميرة، في رسالة من قصر لاوتشن (بتاريخ 1912/7/22)، اعتذرت عن عدم استضافة بولتي في قصر دوينو لأسباب عائلية. فأجاب رلكه (في 7/23) بأنه يتفهم الأسباب التي ساقتها الأميرة. وفي رسالة تالية بتاريخ 3 أغسطس يخبر الأميرة أن اليونورا قد ذهبت إلى الكونتيسة صوفي دوكسل في منزلها عند بحيرة تيجرن Tegernsee(في نواحي منشن)، بينما سافرت بولتي إلى روما لتبدأ فيها حياة جديدة.

3 الشاعر رلكه في مصر[1]

حَجٌّ إلى الينبوع الذي تنبثق منه الأسرار، وانطلاق إلى دنيا من النور الصافي في تعارض حاد مع الوسط الذي عاش فيه.

وبحث عن أَحْساس جديدة قادرة على خلق قشعريرة في نفس تخشى الجمود، ونفوذ في مستور يستهويه فيه أنه مستور.

تلك كانت رحلة رينر ماريا رلكه إلى مصر سنة ١٩١١. وإنها لتشغل مكانة ممتازة بين رحلات هذا الشارد الذي أمضى عمره راحلا، سعيا وراء ما هو أصيل. إن نوعا من الاستقطاب المرهف يبهظ كاهله فلا يملك إلا الانجذاب بالأضداد الفيزيائية والروحية على السواء، فالفيزيائي والروحي كلاهما متوقف على الآخر.

إنه شاعر «الفقر والموت»، فكيف لا يحلم بزيارة تلك الأراضي التي يهيمن عليها سر الموت منذ ستة آلاف سنة، والتي وجد فيها نذر النفس للفقر أول محاولة للوفاء به لدى آباء الصحراء الرهبان؟

إنه المتغني بالملائكة، فكيف لا يزور ديار ذلك الدين الذي تلعب الملائكة في تكوينه دورا رئيسيا، فقد بشر بكتابه ملك، وحمل الوحي إلى نبيه ملك!

لقد سبقته زوجته كلاراClara إلى القيام بهذه

الرحلة وكشفت له عن بعض مفاتن هذه الأرض الحافلة بالأسرار، أرض مصر. وهاهو ذا في يناير 1907 يصور لنفسه في خياله ما تقوم به زوجته في الواقع. فيتابع بالذهن رحلتها إلى مصر. وهاهو ذا في فيللا دسكوبولي Villa Discopoli بجزيرة كابري Capri تجاه نابلي ينحني على أطلس يتبين فيه «ذلك النهر الذي يصنع المعجزات، ويبدو لي-كما قال-أنه يروي قصة آلهة هذه الأرض، وأصول الألوهية المستورة التي لن يبلغها بشر، الأصول التي ترجع إلى مجموعة من البحيرات لا ينضب معينها قد ارتفعت هناك، وتروي طريقه الطويل الشديد الذي يتقدم أبدا وفي تقدمه ينتج الآثار نفسها أينما سار، ثم ينتشر على هيئة فروع، هي آلهة صغرى، بها تفرغ كل حضارة وتصبح مطموسة المعالم» (من رسالة إلى كلارا رلكه زوجته في 20 يناير سنة 1907).

فمصر إذن هي أول أرض الآلهة في خيال صاحبنا رلكه. وهؤلاء الآلهة يبدأون قليلي العدد ثم يتكاثرون كلما ضعفت قوتهم وتضاءل سلطانهم. والحضارة حينما تبدأ في الذبول تستكثر من الآلهة، وكثرة الآلهة-وفي السياسة: الحكام-آية على الذبول والانحلال. وتلك ملاحظة وجيهة أبداها رلكه بالنسبة إلى مصر، وتنطبق على كل حضارة.

وأكبر هؤلاء الآلهة: النيل نفسه، هذا النهر الجوهري، أعني أنه هو الذي يصنع جوهر أرض مصر. «وإنه ليتشخص تشخصا حقيقيا وكأن له مصيرا وميلادا غامضين وموتا طويلا متطاولا، بينهما حياة هائلة ممتدة نبيلة تحمل على العمل كل من يقترب منها طوال آلاف السنين، حياة عظيمة جدا، طامحة جدا، تعلو عن الإدراك» (رسائل من الستين 1906- 1907، ص 164).

وهو يقارنه بنهر الفلجا: أما هذا فلا شخصية له، إنه ليس إلا طريقا طويلا خلال أرض سامية هي روسيا، إلهها الذي في تغير مستمر.

وفي مقابل هذه الحياة الرائعة التي يهبها النيل هنالك الصحراء، مائعة مطموسة المعالم، لا بداية لها ولا نهاية. إنها شيء غير مخلوق، ومساحات فسيحة ترتفع وتفصح عن حضورها دائما. ولقد تأثر رلكه بالصحراء إيّما تأثر وخلبه فيها انعكاس السماء عليها.

وبعد أن استعرض في مخيلته العناصر الكبرى في الأرض المصرية، راح يتمثل آثارها القديمة: «رأس أبي الهول الكبير الذي يرتفع بصعوبة من انتفاخه المتواصل، هذا الرأس وذلك الوجه اللذان بدأ الناس صياغتهما في

المقدار. أما التعبير والرؤية والمعرفة فقد اكتملت على تطاول السنين على نحو مخالف لنحو الناس» (المرجع نفسه ص 165). ذلك أن رلكه لا ينظر إلى الآثار المصرية إلا من خلال الروابط الزمانية بمرتبة السرمدية، وهذه إذن تؤلف بهذا جوهرها الحق، فأبو الهول مثلا ليس ذلك الأثر الفني الذي صنعه نحات معين. بل هو، أولا وقبل كل شيء، ذلك الأثر الذي عاون في صنعه الزمان. إذن لقد اشترك في عمله فنانان: الفنان البشري، ثم ذلك الفنان العظيم الآخر ألا وهو الزمان.. فلم يعد مجرد حجر منحوت، بل صار كائنا حيا «شاهد إصباح آلاف الأيام، وأمواج الرياح، وما لا يحصى من النجوم التي تطلع وتأفل، ومواكب الأفلاك في العلا، وحرارة السماوات الممتدة هناك أبدا» (المرجع نفسه، ص 166).

وليس «الزمان» وحده، بل هناك «المكان»، المكان الممتد الفسيح على الأرض وفي السماوات، وبتزاوجه مع الزمان يؤلف نسيج الحياة الأبدية التي ينعم بها أبو الهول وكل أثر مصري.

تلك هي الصورة التي كونها رلكه لنفسه عن مصر قبل أن يرحل إليها. على أنه مما يدعو إلى أسفنا أن رسائل كلارا رلكه إبان رحلتها إلى مصر لم تنشر بعد ولم نستطع الاطلاع على أصولها الخطية إن كانت قد بقيت. ولهذا تعوزنا البيانات الدقيقة في هذا الموضوع. وكل ما فعلته أنها رحلت إلى مصر في نهاية سنة 1906 برفقة جمع من الأصحاب والصواحب، للقيام بمهمة فنية. إذ ذهبوا إلى مصر للتتلمذ على أعظم مدرسة نحت عرفها تاريخ الفن.

وقد قال زوجها في هذا الشأن: «إن المصريين أعظم الفنانين في ميدان الفنون التشكيلية». (راجع كتاب كترينا كبنبرج: «رينر ماريا رلكه»، ص 225، باريس سنة 1942). وكانت زوجته نحاتة ممتازة عاشت مع فناني فوربسفيده Worpswede وبرزت من بينهم في فنها.

وليس من شك في أن هذه الصورة ستظل أجمل صورة في خيال رلكه عن مصر، لا لأن الواقع قد خيب أمله فيما بعد، ولكنه حلم الشاعر الذي لا يمكن أبدا أن يجاريه الواقع أو يدانيه.

ويزعم بعض الباحثين أن بلاد اليونان هي التي قادت رلكه إلى مصر. لكنه لو صح هذا، لكان من الغريب أن يفضل رلكه زيارة مصر ويعدل عن زيارة اليونان. ففي سن الثلاثين خطرت بباله فكرة زيارة اليونان، بيد أنه

عدل عنها بعد قليل، ولم يزر بلاد اليونان أبدا. لهذا نرى نحن-على عكس أولئك-أنه ما كان له أن يعدل عن زيارة بلاد اليونان لو أنها هي التي قادته إلى مصر، أو كان على الأقل قد قام بالرحلتين معا. فعدوله عن زيارة بلاد اليونان هو عندنا أبلغ دليل على أنه ليست اليونان هي التي جرته إلى زيارة بلاد النيل. ماذا أقول! بل إنه لم يقم بزيارة مصر إلا معارضة لبلاد اليونان والعقل الهليني المنطقي المحكم. والمرء لا يستطيع في الوقت نفسه أن يقيم «الصلاة على الأكروبول»و«الصلاة عند سفح الأهرام». وكان رلكه يفهم هذا التمييز جيدا، ويعلم عن نفسه أنه ليس شاعرا يوناني النزعة، مثل جيته أو هيلدرلن. لهذا كان عليه إذن أن يختار بين مصر واليونان: بين عالم الأسرار، وعالم البراهين المنطقية.

واختار رلكه. اختار مصر، وقبل أن يصل إليها عرج قبلها على الجزائر وتونس، فكان ذلك إعدادا أوليا هيأ له الالتقاء بدار الإسلام ودنيا العرب. وهاهو ذا يدرس الإسلام، وينشئ قصيدة عن رسالة النبي محمد يكشف فيها عن إعجاب شديد به. وقد نظمها في المدة من 22 أغسطس إلى 8 سبتمبر سنة 1907 بعنوان: «رسالة محمد».

رسالة محمد

لما تبدى المَلَك الكريم الطاهر
ذو الملامح المعروفة والنور الباهر
تبدى رائعا له في خلوته-خلع
كل كبرياء وخيلاء، وتوسل
إلى «التاجر»-وقد اضطرب
باطنه إثر أسفاره-توسل إليه أن يبقى،
لم يكن قارئا-وهاهي ذي «كلمة»
كلمة عظيمة حتى على حكيم
لكن الملك وجهه بمهارة
إلى ما كان مسطورا في لوح
ولم ييأس، بل ظل
يردد دائما: اقرأ!
فقرأ، حتى انحنى الملك

وأصبح ممن
يعرفون كيف يقرأون
ويستمعون ويتمون (الرسالة).

ولسنا ندري ماذا دفع رلكه إلى كتابة هذه القصيدة: أكان ذلك من أثر قراءة لسيرة الرسول؟ أم كان محاكاة لجيته في «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»؟

ليس لدينا بيان عن الدوافع التي تحت تأثيرها نظم رلكه هذه القصيدة التي صاغ فيها مضمون سورة «العلق» وهي تدل-على كل حال-على مدى تأثر رلكه بالإسلام.

وعن رحلته إلى الجزائر لم يترك لنا أثرا. أما عن رحلته إلى تونس، ففي رسائله البيان الوافي. رحل إلى تونس في ديسمبر سنة 1910، فزار مدينة تونس، وطاف بأسواقها الغنية بعروضها ومتاجرها وأقمشتها متعددة الألوان، وشاهد الذهب يرف طوال النهار، أما في الليل فلا يضيء غير مصباح متحير، ويسود المكان جو «ألف ليلة وليلة»، فما أن ينبلج الصبح حتى ينفذ نور الشمس من خلال سقوف السوق فيحيل الألوان: الأخضر يصبح شفافا، والأحمر ينقلب حارا، واللازوردي يجلله الخشوع والاستسلام. ويتجول في سوق العطارين وقد تعرف فيه إلى عطار لا تصافحه اليد حتى تظل معطرة النهار كله وفي رسالة مؤرخة من القيروان بتاريخ 21 من ديسمبر سنة 1910 يكشف رلكه عن جانب آخر من جوانب الشرق الإسلامي: جانب التصوف والتقوى والزهادة. فهو يقول عن القيروان إنها مدينة مقدسة، تأتي بعد مكة مقصدا للحج عند المسلمين (كذا تصورها رلكه من تصويرات أهل تونس.) لقد أنشأها سيدي عقبة[2]، أحد الصحابة. وفيها مسجد جامع عظيم استخدمت في بنائه أعمدة كثيرة من آثار قرطاجنة والمدن الساحلية الرومانية والفينيقية لتحمل سعفا من خشب الأرز وقبابا بيضاء. ولا يحيط بالمدينة سوى السهول والمقابر، لهذا تبدت له كأن الموتى يحاصرونها. إنهم راقدون حولها يزدادون دائما ولا يتحركون أبدا.

ومنظر هذه المدينة الإسلامية «المقدسة» يثير في نفسه خواطر عن الإسلام. إنه متأثر كل التأثر ببساطة الإسلام وحيويته. والنبي لا يزال سائدا أثره كما كان في الماضي، والمدينة مدينته وكأنها قطعة من دولته.

ولقد تركت هذه الرحلة إلى الجزائر وتونس في نفسه أثرا قويا، لكنه

مضطرب، فيه تجتمع الأضداد كلها: الجديد والمألوف، الغريب والمعهود، وكلها تتشابك تشابكا يجعله عاجزا عن التعبير عن نفسه وانطباعاتها، كما اعترف بذلك في رسالة له إلى الناشر كبنبرج في 4 من يناير سنة ١٩١١، لكنه مغتبط كل الاغتباط بهذه الرحلة التي استشرف منها على عالم غريب صار الآن أشوق ما يكون إلى النفوذ إليه والتلبث طويلا فيه.

هذا العالم الجديد الغريب سيجده بأجلى صوره وأعمق معانيه في مصر، لكنه هنا لا يجذبه الإسلام وآثاره والعصر الوسيط وما خلفه، بل العصر الفرعوني القديم. ومن الغريب حقا أنه لا يقول-في رسائله وقصائده- كلمة واحدة عن الآثار الإسلامية في مصر، ولا عن الحياة الإسلامية فيها. وهو لا شك شاهدها في القاهرة. لكن يبدو أن مصر الفرعونية قد استغرقته استغراقا تاما بحيث حجبت عنه روعة مصر الإسلامية.

لما فرغ رلكه من رحلته في الجزائر وتونس، عاد إلى باريس. وسرعان ما ارتحل منها الى نابلي، وإنه ليشعر الآن أن روح الشرق قد استولت على كل نفسه، وهاهو ذا يقول لكاترينا كبنبرج Kippenberg. K زوجة ناشر كتبه في رسالة مؤرخة في 4 من يناير سنة ١٩١١: إنه يشعر بأن عالم الشرق بدأ يتفتح له، وإنه لم ينخدع فيما توقعه من الشرق، لكنه شعر بنفسه مبتدئا في هذا العالم الغريب عنه، الذي يصل إليه منه نداء قوي أصله في عليين.

وفي السادس من شهر يناير سنة ١٩١١ أبحر الشاعر إلى مصر، فبلغ الإسكندرية في التاسع منه، ومنها استقل القطار فورا إلى القاهرة حيث نزل في فندق شبرد «القديم» الذي احترق في يوم 26 يناير سنة 1952.

وفي الغداة (العاشر من يناير سنة ١٩١١) بدأ رحلته إلى الصعيد على ظهر الباخرة «رمسيس الأكبر». وقد كانت زيارة الصعيد وآثاره أجمل ما تكون-ولا تزال-على ظهر باخرة نيلية، وكانت هذه الطريقة على كل حال هي المحببة عند كبار السائحين، فهي أحفل بالمفاتن الطبيعية، وأكثر شاعرية من السفر بالسكك الحديدية.

ولنتابع الشاعر إذن منذ البداية، هاهو ذا في اليوم الأول (العاشر من يناير سنة ١٩١١) على ظهر الباخرة «رمسيس الأكبر» التي سارت تتهادى في النيل حتى وصلت أمام البدرشين عند الظهر، فألقت مراسيها، ونزل السائحون لزيارة آثار عاصمة مصر القديمة، منف. وركبوا الخيل خلال

أشجار النخيل ليصلوا إلى تمثال رمسيس الثاني (1298- 1232 قبل الميلاد) الذي كان يرقد هناك منذ الاف السنين، وظل كذلك حتى نقل أخيرا في سنة 1955 إلى ميدان المحطة بالقاهرة، وأقيم واقفا بعد أن أجريت عليه ترميمات كثيرة. فالتمثال قبل ترميمه وكما شاهده رلكه كانت تنقصه القدم اليمنى، وقد قطعت ساقه اليسرى من فوق السمّانة.

وعند المغيب عاد رلكه وجميع السائحين إلى الباخرة، وفي اليوم التالي (1911/1/11) كانت الباخرة تمر سريعا ببلاد الصعيد: بني سويف بمآذنها البيض وقصرها الأخضر (أي قصر؟ لا ندري) ثم البيوت المبنية باللبن التي تغوص في ملكوت التراب. («رسائله» ج 1 ص 295) وعديد من القرى الراقدة في ظلال النخيل، وأديرة قبطية صغيرة، ومحاجر وجبال. وهاهو ذا يتأمل بإعجاب كل ما يتراءى أمامه على جنبات الوادي الخصيب: من حياة الطير إلى سلاسل القرى الهزيلة الكابية الرتيبة، وهي تتعاقب على مجرى النيل الرائع الخالد، كما يشاهد من مكانه في الباخرة جماعات الرعاة والتجار، ومواكب الجنازات وهي تتدافع، وصور القنوات وهي تتحرك ببطء في اتجاه عمودي، وطائرا جارحا يقف على لسان مرتفع. كل هذه الصور يلتقطها رلكه من المناظر المصرية التي تتوالى أمام عينيه. وأكثر ما يجذبه هو الألوان المتغيرة الهاربة، خصوصا: الأسمر الذي يستطيع أن يتحول إلى وردي، وأخضر الحقول الذي يشبه أخضر الصور المصغرة Miniatuers، والأحمر الذي يرف كالأحجار الكريمة. وكأن رلكه إذن قد نظر إلى مشاهد أرض الفراعنة بعين الفنان التأثري. والمنظر المصري بطبعه غني بالألوان، والزاهي منها بخاصة، إنه سمفونية من الألوان، وهذا هو السبب في أن الرسم بالألوان قد ازدهر في مصر ازدهارا رائعا منذ أقدم عصورها.

ووصل شاعرنا إلى الأقصر في 17 من يناير سنة 1911 فأمضى بها ثلاثة أيام، زار أثناءها معبد الأقصر بأعمدته اللوتسية الشكل، وهو المعبد الذي أنشأه أمينوفيس الثالث (سنة 1405- سنة 1370 ق. م) من الأسرة الثامنة عشرة. وتوالت فيه طقوس عبادات مختلفة: مصرية وغير مصرية كان معبدا لآمون، يتحرك إليه في موكب رائع على النيل، وفي معيته حاشية طويلة من الآلهة الأخرى تحمل زوارقها المقدسة، الزاهية بالذهب والأحجار الكريمة، على مراكب كبيرة. وعلى طول الشاطئ كان المغنون والراقصون

يصحبون الموكب. أما في العهد اليوناني (الهليني) فقد حلت محل عبادة آمون عبادة يونانية مصرية. ثم جاء الرومان فأقاموا في المعبد مذابح كرسوها لعبادة الإمبراطور. وجاءت المسيحية فأقامت أعمدة كنائسها على الجانب الشرقي من المعبد. ويربط هذا المعبد بمعبد الكرنك طريق الكباش ويبلغ ثلاثة كيلومترات. لهذا لم يكن عجيبا أن يسمي رلكه هذه البقعة ذات المعابد باسم «عالم معابد الكرنك»(رسائل ج 1 ص 297. Insel Verlag سنة 1950).

فتوقف أمام هذا العالم العظيم يشاهده، ويعاود ثم يعاود مشاهدته في أول أمسية قضاها، وفي مساء اليوم التالي على ضوء القمر. فتأثر بهذا السحر الذي لا يبلغ مداه التعبير، وصاح «إلهي! إن المرء ليحشد خاطره ويتأمل بكل ما لإيمانه من إرادة، والعينان مسلطتان على الداخل-لكنه مع ذلك يذهب بعيدا ويمتد إلى كل ناحية (والله وحده هو الذي يستطيع أن يحيط بمجال الرؤية هذا)-هناك عمود كأسي الشكل، وحده، استطاع البقاء، لا يقوى النظر على استيعابه، فهو فوق النظر، إنما يستطيع المرء في الليل إدراكه على نحو من الأنحاء، مع النجوم، وفي خلاله لحظة يصبح إنسانيا يستشعر المرء منه تجربة حية» («الرسائل» جـ 1 ص 297).

ورلكه يشير هنا إلى عمود (تحرقه)، الملك الحبشي، وسنرى عما قليل كيف أن هذا العمود المتوحد الهائل سيوحي إلى رلكه بقصيدة من أجمل قصائده.

نحن الآن في الكرنك، في عالم من المعابد، على الشاطئ الشرقي من مساحة طولها 1440 م وعرضها 750 م تضم داخلها معبدا، و10 مداخل (بيلون)، وبحيرتين مقدستين، وطرق آباء هول وكباش وبوابات وأسوارا وفي المعابد مالا يحصى من التماثيل والأعمدة والمسلات. يدخل المرء من الناحية الغربية، ويمر في طريق الكباش، ويخترق أول فناء ثم يدخل معبد آمون. وهو معبد يمتد تاريخه إلى أكثر من 1500 سنة، ولهذا خلا من وحدة المعمار، فجاء مجموعة من الأبنية والمخططات تبدأ من الدولة الوسطى (2000 إلى 1785 ق. م) وتستمر حتى عصر البطالسة. وأول تخطيط يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة، لكن لم يبق منه إلا أثر ضئيل جدا. أما المعبد الكبير فكانت مساحته أربعين مترا مربعا، ولم يبق لدينا إلا أثر تخطيط هذا المعبد. ثم جاء تحتمس الأول (سنة 1530- سنة 1520 ق. م) فأحاط مكان هذا المعبد بسور واحد أنهاه ناحية الغرب بالمدخل الرابع. وأمام هذا المدخل أمر بإقامة

مسلتين لا تزال الجنوبية منهما قائمة. ومن بعده أضاف تحتمس الثالث (سنة 1504- سنة 1450 ق. م) مسلتين أخريين زالتا. ثم أضيف مدخل خامس ناحية الشرق. وجاءت الملكة حتشبسوت (سنة 1505 سنة 1484 ق. م) فأمرت ببناء مسلتين ضخمتين بين بوابتي المدخلين الرابع والخامس لا تزال الشمالية منهما موجودة، أما الجنوبية فقد بقيت منها بقية بالقرب من البحيرة المقدسة.

وتكفي هذه البيانات الموجزة لتعطي فكرة عن عالم المعابد هذا الذي سحر رلكه سحرا لم يظهر أثره الشعري إلا بعد هذه الرحلة بتسع سنوات وهو في خلوة بقصر برج-على-الإرشل، القريب من زيورخ في سويسرا، وذلك في مجموعة من الشعر نشرت بعد وفاته بعنوان «من آثار الكونت ك. ف. مجموعة قصا ئد». Aus dem Nachlass des Grafen C.W. Ein Gedichtkreis

وقصة هذه المجموعة الشعرية قصة مثيرة، لهذا يحسن بنا أن نرويها:

ففي شتاء 1920- 1921 دعي رلكه إلى قضاء بضعة أشهر في قصر برج-على-الإرشل. وهناك كان وحيدا، في مناجاة لنفسه دائمة. وإذا به يتخيل في وحدته أن أحد الأجداد الذين سكنوا هذا القصر مثل أمامه وجلس على المدخنة وأنشأ يقرأ أمام رلكه من مخطوط فيه أشعار، نسخها رلكه فيما بعد، وهي المجموعة التي سميت باسم «من آثار الكونت ك. ف». ورلكه يسمي هذه القصائد «ألاعيب شعرية». ولهذا لم يشأ أن ينشرها أثناء حياته 7 وإنما نشر منها القصيدة الخاصة بـ «الكرنك» في «التقويم السنوي لمكتبة إنزل» In-selalmanach سنة 1923، نشرها بغير توقيعه، وكان قد وعد ناشره بها، حينما زاره في خلوته في برج-على-الأرشل يومي 23 و 24 من يناير سنة 1921. وفي الرسالة التي بعثها مرافقة لهذه القصائد لما أن أرسلها إلى الأميرة فون تورن وتاكسيس في 1921/3/6 قال إن هذه القصائد «ليست إياه»، لكنه يلفت نظرها بخاصة إلى القصيدة الخاصة بمصر ومطلعها: «كان ذلك في الكرنك» ويوصيها بها توصية خاصة.

والواقع أن هذه القصيدة هي أجمل ما في المجموعة. وفيها يصف رلكه انطباعات زيارته لمعبد الكرنك في المساء على ضوء القمر الساطع، وبصحبته هيلانة. استهل رلكه هذه القصيدة بقوله:

«كان ذلك في الكرنك. إلى هناك ذهبنا على فرس
هيلانة وأنا، بعد عشاء سريع

وتوقف الترجمان: هنا طريق آباء الهول ـ،
آه؟ المدخل لم أغص من قبل
في عالم جديد مثل هذا! (أهذا ممكن، أيتها العظمة،
لقد عظمت في نفسي عظما مفرطا!)
السفر، هل هو البحث؟ الآن. قد أصبح غاية.
والحارس عند المدخل أشعرنا
بقشعريرة المقدار: فلكم كان صغيرا
إزاء ارتفاع البوابة المتواصل!
والآن، وطوال العمر كله،
العمود-ذاك العمود! أليس كافيا؟
إن التدمير جعله على حق: لقد كان أعلى
من أي سقف. ولكنه بقي حاملا
ليل مصر».

وفي هذا المطلع يشير رلكه إلى الآثار الكبرى التي استرعت انتباهه: «المدخل»، وخصوصا «العمود». ويقصد بالعمود هنا العمود الوحيد الباقي من سلسلتين من الأعمدة أمر بإقامتها الملك الحبشي تحرقه (690- 664 ق. م) تمتدان أمام قاعة الأعمدة في معبد آمون الكبير. بقي هذا العمود وحده، ويبلغ عشرين مترا في الطول، وتاجه عرضه خمسة أمتار، ويتفتح رأسه في مواجهة السماء كأنه يحملها. والشاعر يرى في مجرد بقائه رمزا: رمزا على العظمة المتوحدة التي تبقى رغم صروف الزمان، تبقى وحدها مستقلة عن تيار الجماهير. إنه رمز لحياة رلكه نفسه، هذا المتوحد الأكبر الذي يعيش منفصلا عن الدنيا المحيطة به، منطويا على نفسه في تأمل عميق يفكر في تقلبات العالم على مر الزمان.

هذا العمود المتوحد، عاد رلكه فأشار إليه في السوناته الثانية والعشرين من «سوناتات أورفيوس»-حيث قال:

«آه! ناقوس البرنز الذي يطرق
كل يوم بلسانه رتوب الحياة اليومية
أو عمود الكرنك، العمود،
العمود الذي بقي بعد زوال معابد شبه خالدة»

إذن فمن بين روائع الآثار في الكرنك والأقصر سيستحوذ هذا العمود بخاصة على فكر رلكه، ويظل منقوشا في ذاكرته، فيخطر بباله دائما كلما وردت كلمة عمود. ذلك أن العمود المصري يختلف اختلافا بينا عن كل عمود آخر: يوناني أو روماني أو قوطي. فالعمود المصري رائع الكتلة، يبدو وحده تمثالا. وبتاجه الذي على هيئة كأس يبدو كأنه يحمل السماء وهو يتوجه إليها بينما القبة البيزنطية ثم العربية تتجه إلى الأرض. وبينما العمود اليوناني يغوص في التربة، وبينما العمود القوطي نحيل هزيل، نرى العمود المصري يحمل السماء في كأسه، ويضم أسرارها بقوة وامتلاء.

ولنعد إلى قصيدة «الكرنك»:

«الفلاح الذي كان يرافقنا
ظل في المؤخرة. لقد كنا في حاجة إلى وقت
لتحمل أثر هذا، إذ كان أثرا شبه مدمر
أثر «الوقوف وحده» في الوجود
الذي نفنى فيه -لو كان عندي ولد
لأرسلته إلى هناك، في نقطة تحول العمر
التي فيها يكرس المرء نفسه للحق وحده
«إنه هناك، يا شارل، انفذ من «المدخل»
وتوقف لتتأمل...»
- لم يكن في هذا غناء لنا-كيف؟
أما أننا احتملناه، فذلك كان كثيرا لكلينا.
أنت المريضة في ملابس السفر،
وأنا راهب في نظرياتي.
ومع ذلك رفقا! هل تعرفين البحيرة.
التي جلست على ضفافها تماثيل قطط من الجرانيت.
حدود-حدود ماذا؟
كان المرء محصورا في المربع السحري
فلو لم يتدافع خمسة من ناحية
(وأنت أيضا كنت تنظرين حواليك).
لكانت على حالها: قططا متحجرة خرساء،-

لكانت عقدت الجلسة
لقد كان كل هذا مليئا بجو المحاكم.
هنا سحر البركة،. وهناك على الشاطئ جعرانات هائلة
وعلى طول الجدران ملاحم
الملوك: محكمة[3]. وفي الوقت نفسه
براءة لم يسمع بمثلها
وامتلأت التماثيل بنور القمر، واحدا إثر آخر
لقد كان نحتا بارزا
واضحا في طبيعته التي على شكل صحفة
كأنه آنية، فيها صنع
ما لم يستر أبدا ولم يقرأ:
سر العالم، وفي جوهره من السر
ما يجعله لا يستطيع التكيف مع «الصيرورة سرا»!
كان الكل يتصفحون كتبا[4]: لكن أحدا لم يقرأ
في كتاب أوضح مما هنا-،
(ما الداعي إلى البحث عن اسم!):
إن ما لا يقدر كان بمقدار
التضحية... أوه! انظر، ما قيمة الملك
إن لم يتقدم للتضحية؟
الأمور تجري، ساعدها
في مجراها. لكن حذار
أن تتسرب حياتك من ثقب
لكن كن دائما الواهب المعطي.
البغل والبقرة في المكان الذي فيه صورة الملك،
الإله، كالطفل الساكت،
يتناول بهدوء ويبتسم.
إن روح قداسته لم تنطفئ أبدا. إنه يأخذ ويأخذ
بيد أن هذا الاعتدال إنما قصد به أن تحتضن الأميرة
زهرة اللوتس، بدلا من تمزيقها

هنا
قطعت كل ممرات القرابين
و «الأحد» يلملم نفسه بصعوبة
والأسابيع الطوال لا تفهمه-وهناك الإنسان والحيوان
ينحون جانبا المكاسب التي لا يعرفها الله.
والأشغال، حتى لو كانت شاقة، فلا بد من تذليلها
يعملها المرء ويعاود العمل، فتصبح الأرض سهلة البلوغ
ومن يعط القيمة هو وحده الذي يتخلى ويزهد»

تلك هي قصيدة الكرنك، التي أودع فيها رلكه كل انطباعاته، في لغة مستسرة غريبة صعبة على الفهم، قابلة للعديد من التأويلات. والموضوعات الرئيسية التي تناولها فيها هي: البقاء، العظمة في التماثيل، السر، التضحية والزهد. وهي موضوعات تسري عروقها في شعر رلكه كله. إلا أنه لا يشعر بعطف نحو القطط المنحوتة، والتي كانت مقدسة لإلاهة السرور «بستيت» في بوبسطة. وهي قطط في آذانها حلق، والإلهة «بستيت» إلهة سماوية، لأن السماء كانت صورتها مؤنثة، وفي بوبسطة كانت السماء تعبد على هيئة قطة سميت بستيت (أو بسطيط أو بسط). وكانت أعيادها، كما يقول (ماسبيرو: G.Maspero; Causceries d‘ Egypte p .39- 40 يضرب بها المثل في المرح، ويقصدها الناس من جميع أطراف وادي النيل، ويختلط فيها النساء بالرجال وهم قادمون على مركب فينزل النسوة وهن يقرعن الصنج ويعزفن على الشبابات. وكانت آلهة السماء في سرور، والأجداد في حبور، والحاضرون يعاقرون الخمور، وعلى رؤوسهم أكاليل الزهور، تستروح منها فاغمات العطور وكل ذلك من مشرق الشمس حتى الغروب.

ألأن هذه القطط رموز لإلاهات السرور، تراها أثارت عند شاعر الفقر والموت والأنين النفور؟ ربما، خصوصا ورلكه لم يشأ أن يرى في مصر غير مظهر الموت: في العمود الباقي بين الأطلال وحده، وفي المقابر والخرائب ورموز الموت. إن مصر الإلهة بسطيط لا توحي إليه بشيء. فالأشياء تفنى ويحب أن نساعدها على هذا الفناء، أي يجب أن تفنى دون أن يعوقها عن ذلك عائق. هذا مذهب رلكه.

والعطية في نظر رلكه آية النبالة والعظمة في الإنسان والآلهة على

السواء. والإله آمون يعطي دائما، فهو الشمس، لكنه أيضا يتناول ويأخذ بهدوء وجلال. إنه يتقبل من الناس قرابينهم، والناس بدورهم يكسبون من هذه القرابين، وهكذا: كل شيء عطية وتضحية.

وعظمة الآثار المصرية تملك عليه كل مشاعره. فأبرز مزايا الفن المصري العظمة في المقدار، ولا شيء يمكن أن يقاس إليه: إلا التضحية التي بذلت في سبيل إقامته.

ويتابع شاعرنا زياراته للآثار المصرية في الأقصر وطيبة ووادي الملوك والمناطق المجاورة. وهو طبعا إنما يسير وفقا للبرنامج الذي وضع لرفاقه، وليس هو الذي اختار برنامج الزيارة كيما يتمتع بالآثار حسبما يشاء. وهذا أمر يدعو إلى الأسف، ولكن هذه دائما حال الرحلات الجماعية «المنظمة».

وبعد الأقصر زار إدفو حيث شاهد بقايا المعبد القديم المكرس للإله الصقر: حوريس، وكان رمزه قرص الشمس بأجنحة الباشق، والمعبد القائم حاليا يرجع إلى عهد البطالسة. غير أن رلكه لم يترك لنا وصفا للأثر الذي تركه هذا المعبد في نفسه.

وذهب أيضا إلى أبيدوس لزيارة معبد سيتي الأول، الذي أمر ببنائه نذرا لذكرى حجه إلى قبر أوزيريس. كما شاهد أيضا معبد رمسيس الثاني الذي احتفظ لنا جداره الخارجي بنسخة من قصيدة للشاعر بنتاؤر، الشاعر المصري القديم العظيم.

وأوغل جنوبا حتى بلغ أسوان فزار مقابرها وجزيرة فيلة، وما فيها من معابد إيزيس والمامبسي وجناح نختنيف.

لكنه لم يترك لنا أثرا عن هذا الجزء من رحلته سواء في قصائده وفى رسائله. وعاد إلى القاهرة في أوائل فبراير سنة 1911 حيث نزل مرة أخرى في فندق شبرد الطيب الذكر. وفي هذه المرة زار القاهرة زيارة دقيقة وصفها في رسائله فقال: إن القاهرة توحي إليه بفكرة ثلاثة عوالم في واحد: «إنها مدينة كبيرة واسعة لا تعبأ بشيء، هناك الحياة العربية الكثيفة المعتمة، وهناك بعيدا تقوم -محذرة منذرة كالضمير-تلك الأشياء العظمى التي لا ترحم، والتي يجب على المرء ألا يتصل بها أبدا، وحتى من اكتملت كل القوى فيه. فهذا أمر بالغ مفرط، وعلى كل حال فأنا غير قادر الآن على شيء. وإن كنت أظن أن نوعا من الترويج والتجديد قد استقر في نفسي.

ولقد رافقت رحلتي حتى الآن أنواع كثيرة من المتاعب، لكني لحسن الحظ كنت قد توقعت معظمها مقدما، ووطنت نفسي على قبولها بهدوء. والآن أتمنى أن أخرج منها خروجا هادئا، حتى تصل التجربة المشتتة التي لدي منها إلى نوع من المجموعات الكوكبية الباطنة. («رسائل» إلى ناشره سنة 1906- سنة 1926ج ١. فيزبادن سنة 1949).

تبدت القاهرة إذن أمام رلكه ثلاثة عوالم في عالم واحد: العالم الفرعوني والعالم الإسلامي، والعالم الحديث. والحياة العربية فيها كثيفة مكتظة لكثرة السكان وتنوعهم في الأحياء الإسلامية، أعني في القاهرة المعزية، والجماهير الهائلة التي تذرع طرقاتها اللزبة ليلا ونهارا، وتكدس الآثار والخرائب، وشدة سياق الحياة اليومية في أحيائها الوطنية. لهذا صعب عليه أن يحيط بهذا العالم الذي يغلي بالحياة والحركة.

والحق أن ملاحظة رلكه هنا دقيقة: فمن الصعب جدا على الإنسان أن يحيط بحياة القاهرة المعزية لأنها تتجاوز كل صورة عقلية. إنها حياة عارمة مضطربة لا تقبل أي تحديد، ليس فيها نظام ولا منطق، ولا نسب، سواء من الناحية المعمارية، ومن الناحية العمرانية.

لكن بعيدا خلف هذا كله توجد «أشياء مصر العظمى»، يعني الأهرام وأبا الهول فيما نعتقد. إنها قائمة شامخة هناك كأنها ضمير ينبه ويردع.. أي يردع المرء من أن يعتقد أن القاهرة المعزية هي المكان الحقيقي الذي تجسدت فيه الروح المصرية، لا، بل الروح المصرية تقوم هناك على الشاطئ الآخر من النيل حيث تقوم الأهرام وأبو الهول. ذلك أن مصر الإسلامية قد أغلقت دون إدراك رلكه.

ولا نعلم بالدقة تاريخ زيارته الأولى للأهرام وأبي الهول. لكننا نعتقد أن ذلك تم بعد رحلته إلى الصعيد، أي في الأسبوع الأولى من فبراير سنة 1911. وعلى كل حال فقد كان لهذه الزيارة أعمق الأثر في نفسه، أثر عبر عنه في رسالة إلى صديقته بنفنوتا Benvenuta بعد ذلك بثلاثة أعوام، أي سنة 1914، ثم عبر عنه شعرا في قسم من الإيلجيا العاشرة الدوينيزية، والأبيات الأولى منها (من1 إلى 15) قد كتبت في دوينو (على شاطئ الادرياتي قرب تريسته) في مستهل سنة 1912. ونظم التحرير الأول لها كلها بطريقة متقطعة في باريس في نهاية سنة 1913، ثم ألغى هذا التحرير الأول في

فبراير سنة 1922، وفي 11 من فبراير سنة 1922 استبدل به تحريرا نهائيا فيه الأبيات من 16 إلى نهاية الإيلجيا الإيلجيا جديدة. وتم ذلك في قصر ميزو Muzot باقليم الفاليس في سويسرا.

وهذه الإيلجيا العاشرة زبدة التسع السابقة: إنها تقتاد الإنسان الذي مجدته الثامنة والتاسعة، إلى ملكوت الأنين، من خلال الموت. فهي إذن إيلجيا الموت والأنين. وكأن رلكه إنما راعه في مصر بخاصة عبادة الموتى ومناظر القبور والجنازات لأنها تستعيد من مصر صورا عميقة، كما اعترف هو نفسه بذلك في رسالة إلى فيتولد فون هولفتش Witold von Hulewicz بتاريخ 1925/11/13 فقال: «إن الإيلجيات تضع معيار الوجود، وتؤكد بل وتمجد الضمير الإنساني، فتدمجه في تقاليده مستندة في ذلك إلى الروايات القديمة وذكرياتها، وترى في عبادة المصريين للموتى شعورا سابقا بهذه الروابط (وإن كان «بلد الأنين» الذي يقتاد «الأنين» العتيق الميت الشاب من خلاله لا يعد-هو بالدقة -مصر، لكنه انعكاس لبلاد النيل في الوضوح الصحراوي لضمير الميت)».

وهكذا يحدد رلكه بدقة أن بلد الأنين ليس بالدقة مصر، وإنما هو انعكاس لها. أعني أن مصر هي التي أوحت إليه بفكرة ملكوت الأنين التي إليها يقتاد «الأنين» الميت الشاب.

ونقطة أخرى يحددها رلكه في الرسالة نفسها: «إذا أخطأ المرء فقارن بين «الإيلجيات» وبين النظريات الكاثوليكية في الموت والعالم الآخر والخلود، ابتعد ابتعادا تاما عن النتيجة التي تفضي إليها وساء فهمه لها. ف «الملك» في «الإيلجيات» ليس بينه وبين «الملائكة» في المسيحية أدنى صلة أو شبه، وإنما هو بالأحرى أقرب إلى الملائكة في الإسلام.. إن الملك في «الإيلجيات»هو هذا المخلوق الذي يبدو فيه تحول المرئي إلى مستور أمرا متحققا». إذن فإن مصر بعبادة الموتى، والإسلام بتصويره للملائكة والآخرة كانا مصدر الوحي الأول «لإيلجيات دوينو»لرلكه.

ولكي نتم الإعداد لفهم ما سينشده رلكه في الإيلجيا العاشرة، نقتبس بضع عبارات من رسالة بعث بها رلكه إلى بنفنوتا وفيها وصف رحلته إلى مصر:

« .. إذا رأيت في متحف برلين رأس أمينوفيس الرابع في القاعة الوسطى من القسم المصري (وعندي الكثير لأرويه عن هذا الملك المصري) أحسست

على هذا الوجه معنى الوجود في حضرة العالم اللامتناهي، وكيف يتوازن على سطح محدود عالم بأسره من الظواهر، وذلك بترتيب بعض القسمات. أفلا يمكن الانصراف عن ليلة مرصعة بالنجوم، كيما يجد الإنسان في هذا الوجه ازدهار القانون نفسه والعظمة نفسها والعمق نفسه-القانون والعظمة والعمق اللواتي لا يمكن تخيلها . إنني تعلمت كيف أشاهد عن طريق أمثال هذه الأمور، وحينما شاهدتها بعد ذلك في مصر بمقادير هائلة، وكما هي في طبيعتها الحقيقية، نفذت في أعماقها بقوة حتى كنت على وشك أن أقضي الليل كله راقدا عند أقدام أبي الهول، وأنا أشعر أني منفي عن نفسي وحياتي».

«تركت ساعة العشاء تمر، وكان الأعراب يقعون هناك بالقرب من نارهم والظلمة تحول بينهم وبين رؤيتي. لقد انتظرت حتى أسدل الليل ستائره، بعيدا في الصحراء، ثم مشيت من خلف أبي الهول، وقدرت أن القمر لابد أن يكون على وشك الطلوع خلف الهرم القريب الذي أحرقته شمس المغيب، ذلك أن الليلة كانت ليلة بدر. وفي الواقع لم أكد أستدير حول أبي الهول حتى كان القمر قد صاعد عاليا في السماء وانتشر منه فيض من النور على هذا الأفق اللامتناهي، حتى اضطررت إلى حجب ضوئه الساطع عني بكفي لأجد طريقي بين خنادق الحفائر وأحجارها . وفي مقابلة وجهه الضخم تفقدت مكانا، ورقدت ملفوفا في معطفي، ونفسي مرتاعة متأثرة على نحو لا يبلغه الوصف. ولست أدري هل شعرت بوجودي تماما كما شعرت به في هذه الساعات الليلية التي سلب فيها كل قيمة. فماذا كان وجودي لو قورن بهذا كله؟ فالمستوى الذي كان يجري فيه قد انزوى في الظلام، وكل ما كان عالما ووجودا كان يجري في مسرح أعلى، يتلاقى فيه كوكب وإله في صمت... هنا ارتفع شكل (أبو الهول)، تلاءم مع السماء، لم تستطع آلاف السنين أن تحدث فيه أثرا غير هشيش ضئيل. وأعجب ما في الأمر أن هذا الشيء (أبا الهول) كانت له قسمات إنسانية تتكافأ مع مركزه السامي. ولقد اتخذ هذا الوجه عادات الفضاء الكوكبي، لقد تحطمت بعض مظاهر ابتسامته، لكن الشفاه ومغارب السموات ألقت عليه انعكاسات عواطف تفوقه. وكان لابد من مرور فترة طويلة قبل أن تتعود عيني هذا الوجود وتدركه، وتحقق هذا الثغر وهذا الوجنة وهذه الجبهة التي كان ضوء القمر وظل القمر

عليها يتغير التعبير باستمرار.. وبينما أنا أتأمله مرة أخرى شعرت فجأة وبطريقة لا أفهمها أنني قد نفذت إلى سره. لقد أصبحت هذا الوجنة وتلقيت من أنحائه أكمل إدراك.. تأمل: وراء بروز الخوذة على رأس أبي الهول، طارت بومة مست الوجه ببطء ورفق مسيسا يمكن إدراكه في أعماق الليل، وكأن هذا الوجنة قد رسمته معجزة في سمعي الذي أرهقه سكون الليل».

ولا يمكن وصف تأثير أبي الهول في ليلة قمراء ساجية بهذا الوصف الدقيق الذي أبدعته حساسية رلكه الشاعرة المرهفة. ولم أقرأ في حياتي وصفا لأبي الهول بمثل هذا الجمال والعمق والتأثير. لقد أصبح فيه أبو الهول حيا، إنسانيا، في داخل إطار ساحر لليلة قمراء في مصر.

أما في الإيلجيا العاشرة، فإن رلكه يقدم لنا وجها آخر لأبي الهول:

فهو هنا حزين أسيان، ميتافيزيقي. وهنا يخلط بين ذكريات الأقصر والكرنك وطيبة، وبين ذكريات أبي الهول والأهرام. ودليل الميت الشاب هنا في ملكوت الأنين أنين مُسِنٌّ.

«(... إنه يقوده بخفة خلال مناظر الأنين
ويدله على أعمدة المعابد أو أطلال
القصور المحصنة، التي كان منها أمراء
الأنين يحكمون البلاد بحكمة. ويدله
على أشجار الدموع وحقول الأحزان الزاهرة
(ولا يعرف الأحياء عنها إلا الأوراق الرقيقة)؛
ويدله على حيوان الحداد وهي ترعى،-وأحيانا
طائر مروع يخترق أفقيا مجال النظر راسما
في الفضاء صورة مكبوتة بصرخته المتوحدة.
وفي المساء تقوده إلى قبور القدماء
الذين من جنس الأنين، إلى السيبلات والأنبياء.
وإذا أقبل الليل سارا بهدوء أكثر وعما قليل
يرتفع التمثال الجنازي
الساهر على كل شيء، أخو ذلك القائم لا وادي النيل:
أبي الهول العظيم:
وجه

الغرفة السرية.
ويتأملان، مدهوشين، الرأس الملكي.
الذي وضع إلى الأبد وفي صمت-وجه البشر.
في ميزان النجوم.
لكنه لا يقوى على إدراكه، لأن الموت
- وقد بلغه حديثا-يملأ عيونه بالدوار
لكن الأنين، متأملا وراء حافة البشنت، يفزع البومة،
البومة التي مرقت فمست الصدغ بطوله
عند المنحنى الأنضج
فرسمت بهدوء في سمع
الميت الجديد-على ورقة مزدوجة
مفتوحة-رسمت المخطط الفائق للوصف».

وهذه القصيدة في حاجة إلى تفسير مسهب: فـ «الغرفة السرية» هي الهرم، و«حيوان الحداد» هو الماعز أو الثيران، و «الطير المروّع الذي يخترق أفقيا مجال النظر» يمكن أن يكون الحجل أو التدرج، و«القدماء الذين من جنس الأنين» هم الأجداد في العصور الأولى، و «السيبلات» هن العرافات المنبئة عن المصير، و«الأنبياء» لعله يقصد بهم أنبياء «العهد القديم» في الكتاب المقدس. و«الأنين» يقتاد الميت الفتى في ملكوت الأنين. وكلاهما يتجول فيه بغير عائق. إنه يدله على أعمدة المعابد. ورلكه يفكر هنا خصوصا في معابد الكرنك وطيبة وسائر المعابد المصرية التي زارها في الصعيد. لأن ملكوت الأنين له صورته على الأرض، ومصر هي التي تقدم أدق صورة عنها. ذلك أن ملكوت الموتى يولد من ملكوت الأحياء، ورلكه يؤكد دائما هذا النفوذ المتبادل بين الموت والحياة. فكل ما يوجد في الواحد يوجد في الآخر، لكن على نحو مخالف.

وأتى الليل، وهنا يصف رلكه ما شاهده تماما في زيارته الليلية لأبي الهول، ولهذا يتذكر على الفور هذه الزيارة، ويجد في ملكوت الأنين المناظر نفسها التي رآها من قبل في مصر لدى زيارته لأبي الهول والأهرام. القمر بدر، وهاهو ذا التمثال الجنازي الذي يسهر على كل شيء، أخو أبي الهول العظيم القائم في وادي النيل، «إن أبا الهول المصري هو التمثال القائم

هناك موضوعيا، أما في ملكوت الأنين فيعني مضمون شعور الميت وضميره».
(راجع Romano Guardini: Rainer Maria Rilke Deutung des Daseins,s. 400)

وأبو الهول المصري هو الوجه الذي تنظر به إلينا الغرفة السرية، أعني الهرم. وهذا تشبيه رائع جدا: إن أبا الهول هو وجه الهرم، وأبو الهول توج رأسه بالتاج المصري المزدوج: تاج مصر العليا ومصر السفلى: وهو البشنت.

والأنين ورفيقه ينظران هذا الرأس المتوج الذي وضع بجلاله وجه البشر على ميزان النجوم، وضعه إلى الأبد، أعني أن الإنسان قد أصبح إلى الأبد كفئا لسكان السماوات، بيد أن الميت الفتى-وعبء الموت لا يزال يبهظ كاهله-يشعر بالدوار أمام أبي الهول في ملكوت الأنين، بينما الأنين يقدر على النظر وعلى الفهم، ولما ينظر خلف حافة البشنت، يثير الفرع في البومة. وهذه البومة هي بعينها التي رآها رلكه تطير خلف بروز الخوذة التي على رأس أبي الهول وتمس مسا رفيقا وجه أبي الهول، رفيقا ولكنه مسموع في هدوء الليل، لكن بومة العالم الآخر ترسم المخطط الفائق الوصف بطيرانها.

وهكذا نرى الشاعر قد نقل إلى العالم الآخر الصور نفسها والتجارب نفسها التي شاهدها في رحلته إلى مصر.

لكن الشاعر بدأ يشعر بالحنين إلى أوروبا، لا لأنه أحس الملل من زيارة مصر، بل لأنه يود أن يعود إلى الحياة المتوحدة في باريس، لأن زيارته لمصر، كما صرح بذلك في رسالته إلى ناشره بتاريخ فبراير سنة 1911، كانت مصدر إثراء روحي له لا يستطيع وصفه، وقد خلقت له واجبات جديدة. بيد أنه يتحدث في الرسالة نفسها وفي غيرها (رسالته إلى لوسالوميه صLou Salome من رسائله إليها، ص 250، زيورخ سنة 1952) عن «المتاعب والمضايقات» و«الظروف غير المواتية» التي مر بها في مصر دون أن يحدد لنا ماهيتها.

وكل ما نعرفه عنها هو أنه مرض في القاهرة ثلاثة أسابيع في فبراير سنة 1911، مما اضطره إلى الانفصال عن رفقائه في الرحلة. وفي 24/ 2 ذهب إلى حلوان ونزل في فندق «الحياة» (الذي تحول بعد ذلك إلى مصحة للأمراض الصدرية) وكان يديره كنوبس Knoops وزوجته وهما أصدقاء زوجة رلكه، فوجد لديهما ترحيبا بالغا.

بأي مرض أصيب في القاهرة؟ إنه لم يحدد شيئا. ألعله مرض عاطفي، أعني حنينا روحيا عظيما مصحوبا بهبوط جسماني؟ ربما، إذ يخيل إلينا

أن هذا العالم الجديد الذي اكتشفه رلكه في مصر قد أبهظ روحه، حتى لم يعد في استطاعته بعد أن يتحمل كل هذه الأمور الجديدة. وإنه لكثير جدا أن تستطيع النفس تمثل عالم جديد غني مثل هذا في أيام قلائل. من هذا مرض رلكه: جسميا وروحيا.

وفي الخامس والعشرين من شهر مارس سنة 1911 ترك القاهرة متجها إلى الإسكندرية حيث أبحر منها على إحدى بواخر اللويد النمسوي ميمما شطر فينيسيا، فبلغها في 29 مارس سنة 1911 ومنها سافر إلى قصر دوينو ليجد صديقته الأميرة ماريه فون تورن وتاكسيس Marie von Thurn und Taxis. ودامت الرحلة في البحر أربعة أيام، استطاع خلالها أن يلقي من بعيد نظرة إلى البلوبونيز والجزر اليونانية الجميلة.

وهكذا انتهت رحلة شاعرنا في مصر، لكن لم ينته بانتهائها اهتمامه بمصر، بل على العكس تماما، لقد بدأت الرحلة تفعل أفاعيلها ببطء وقوة وعمق في روحه، وأثمرت ثمارا شاهدنا من قبل أمثلة عليها.

وهناك صورة أخرى رائعة التقطها رلكه أثناء رحلته على النيل عند الكرنك والأقصر لما أن عبر النيل على مركب شراعي، وهي صورة مثل بها حال الشاعر في هذا العالم. ففي الصفحات التي خصصها عن الشاعر بعنوان «عن الشاعر»، وكتبها سنة 1912، أي بعد سنة من رحلته إلى مصر، يصف لنا رحلته على النيل في مركب يجدف فيه ستة عشر شابا صعيديا، انتظموا على أربعة مقاعد، وبذلوا كل جهدهم في تحريك المجاديف. وعلى ظهر الباخرة عند الرأس وقف رجل في عكس اتجاه المركب وأنشأ يغني: «وكان يغني فجاءة وفي فترات غير منتظمة، لا عندما كان يغلبهم الجهد، بل بالعكس كثيرا ما كان يغني وهم في أحسن حال، لكن الأمر جرى على وفاق، ولست أدري إلى أي مدى تأثر بالموجودين في المركب. لقد كان كل شيء وراءه، ولم ينظر خلفه إلا نادرا ولغير غرض.. إن انطلاقة مركبنا، وشدة ما كان يقاومها قد توازنتا في نفسه، لكن بين الحين والحين احتشد فيض منها فانطلق يغني.. وبينما كان الذين معه يتوقون إلى أقرب شيء ويمسكون به، كان صوته على اتصال بما هو بعيد جدا فجذبنا إلى هناك». وختم رلكه وصفه قائلا: «ليت شعري ماذا جرى! لكني رأيت فجأة في هذه الظاهرة موقف الشاعر، ومكانته، وتأثيره داخل العصر. إن من الممكن أن

ننازعه كل مكانة، إلا تلك، فهناك يجب التسليم بها له».

فرلكه إذن يشبه موقف الشاعر في العالم بموقف ذلك المغني المصري على المركب الذي يسير في النيل: إنه يغني ضد تيار العالم، يغني وحده، على فترات غير منتظمة، دون أن يحفل بجمهور الناس الذين قد يصغون إليه أحيانا والذين يوجههم إلى شيء بعيد لا يحفل به الجمهور حتى يجذبه الشاعر إلى هذا الشيء البعيد. ويمكن أن ننازع الشاعر في كل مكانة، إلا هذه فلندعها له.

ويفكر رلكه في العودة لزيارة مصر. فقد اقترحت عليه أميرة تورن وتاكسس أن يقضيا شتاء سنة 1913- سنة 1914 في مصر في ذهبية على النيل وسألته رأيه. لكن رلكه لم يجرؤ على اتخاذ قرار، قائلا للأميرة: «لقد نضبت قواي كلها، ولا أشعر بالقدرة على القيام بمغامرة كبيرة. لقد قمت بالكثير من المغامرات، لكني لم أستفد منها غير القليل، ولم تترك كل منها غير مرارة الشعور بأني فقدت مزايا كثيرة» (الأميرة ماريا فون تورن وتاكسس: «ذكريات عن رلكه»، ص 73. منشن-برلين سنة 1933). لكن الأميرة نفسها لم تحقق مشروعها هذا، ولم تر الشاعر في خلال ذلك الشتاء.

بيد أن رلكه ظل مسحورا بجمال الآثار المصرية وجلالها. وهاهو ذا يتحدث إلى الأميرة عن عزمه على دراسة الآثار المصرية واللغات الشرقية في السوربون بباريس، لكن يلوح أيضا أنه تخلى عن هذا المشروع. إنه قبل رحلته إلى تونس قد بدأ يلم بقليل من اللغة العربية. أما اهتمامه بالآثار المصرية فبرز بخاصة أثناء مقامه في برلين، إذ نظم في صيف أو خريف سنة 1913 قصيدة عن رأس أمينوفيس الرابع (أخناتون) الموجودة في متحف برلين (في قصائد 1906- 1926، ص 539)، كما ذكر هو ذلك في رسالة إلى«لوسالوميه بتاريخ أول أغسطس سنة 1913، وكان الرأس قد اكتشفته حديثا بعثة الآثار الألمانية في مصر. وفي الرسالة نفسها يذكر أنه تحادث طويلا مع الأستاذ اشتيندورف Steindorf عالم الآثار المصرية الألماني في ليبتسج، وعن إمكان مصاحبته في حملة تنقيب عن الآثار في النوبة. بيد أن رلكه لم يحقق أبدا هذا الحلم: حلم الاشتراك في حملة تنقيب عن الاثار المصرية. كذلك نجد في بعض القصائد الصغيرة تأثرات بمصر خصوصا في قصيدة بعنوان «لابد من الموت لأننا نعرفه» تبعا لمثل قاله بتاح حوتب (قصائد 1906- 1926، ص 49).

إذن فرلكه ظل يهتم بمصر، ويتأثر بروائعها وحكمتها، مصر العهد الفرعوني. وكانت آخر علاقة ذكرته بمصر صلته بسيدة مصرية رائعة الجمال، هي السيدة نعمت علوي بك، ولها معه قصة بديعة رواها إدمون جالو في كتابه الذي خصصه لها، ولا محل لإطالة الكلام هنا بشأنها. وكانت آخر صلة نسائية لرلكه. ويؤكد بعضهم أن المرض الذي مات به رلكه في مستشفى فالمون Val-Mont بسويسرا في 29 من ديسمبر سنة 1926 يرجع إلى وخزة شوكة وردة اقتطفها رلكه من حديقة قصر «ميزو» وهو يودعها لما أن زارته هناك.

إنها إذن وردة، اقتطفت من أجل وردة، وردة مصرية حية، هي التي حملته إلى حيث يرقد الآن، في رارون تحت رمز الوردة:

«أيتها الوردة، أيها التناقض الخالص، لذتك
ألا تكوني رقادا لأحد
تحت هذه الجفون الكثيرة!»

4 تنقلات بين إسبانيا وباريس وألمانيا

بعد أن يقضي رلكه معظم شهر أكتوبر سنة 1912 في منشن، يسافر من هناك متوجها إلى إسبانيا. فيصل إلى مدينة بايون Bayonne-على الحدود بين فرنسا وإسبانيا-في 31 أكتوبر 1912.

ومن فندق الجراند أوتيل في بايون يكتب رلكه إلى الأميرة ماريه بتاريخ 10/31 فيصف مدينة بايون وصفا خاليا من الإعجاب. وهو إنما قصد بايون من أجل البحث عن اسم روز موند تراريه Rosemonde Trarieu. فذهب إلى الدير الذي فيه دفنت روزموند هذه. لكنه لم يعثر فيه على أي شاهد قبر. كذلك لم يجد هذا الاسم بين شواهد مقبرة بايون.

أما متحف بايون فيتألف كله-باستثناء مجموعة قديمة-من المجموعات التي اقتناها ليون بونا Leo‘n Bonnat وفيها لوحة رائعة من عمل جويا Goys، ولوحتان من عمل إلجريكو El Greco، وبعض الطين المحروق الراجع إلى يونان القديمة، ثم لوحات مائية للنحات باري Barye الذي كان أول أستاذ تتلمذ عليه النحات الفرنسي العظيم أوجيت رودان Rodin.

أ- في طليطلة

ومن بايون اجتاز الحدود، ودخل إسبانيا. ووصل إلى مدريد في أول نوفمبر 1912. وفي رسالته إلى الأميرة ماريه بتاريخ 2 نوفمبر، وصف طليطلة فقال إنه لا يستطيع التعبير عما يحس به فيها، لأن ذلك يحتاج إلى لغة الملائكة، لا إلى لغة البشر. قال «لا يمكن وصف ذلك لأحد: فكل شيء هنا يستروح «الشريعة»، وهذا النوع من الحضور الخارق له طابع النجوم، ويلقى في الخارج انعكاسا يجعلني أفهم الآن الأسطورة التي تقول إن الله في اليوم الرابع للخلق أخذ الشمس ووضعها فوق طليطلة تماما».

ولا نفهم لماذا شعر رلكه بهذا الشعور وهو في طليطلة (1)، وماذا يقصد بعبارته الأخيرة: لقد كان هناك في أول نوفمبر، وأول نوفمبر ليس يوما حارا في طليطلة (في أي عام)، بحيث تتسلط عليها الشمس عموديا كما قال، اللهم إلا أن يكون قد قصد بهذا التعبير عكس ما يدل عليه، وهو الأصح، لأنه سيشكو في رسائله من شدة البرد.

على كل حال، تجول رلكه في طليطلة: فشاهد الجسرين القائمين على نهر التاجه. وتابع شارع سان توميه صSan Tome، ثم شارع الملاك، الذي أفضى به إلى كنيسة سان خوان دي لوس دييس والتي تتوالى على جدرانها سلسلة من أغلال الأسرى أو المفكوك أسرهم. وكان «باشا» (ابن الأميرة ماريه)، قد أخبره في منشن بأنه قرأ في دليل بيدكر Baedecker أنه يوجد في طليطلة كنيسة مغطاة بالأغلال، دون أن يتذكر أنه شاهد ذلك حين زار طليطلة: «فكان علي-هكذا يقول رلكه-أن أكتشفها. فواصلت السير دون أن يكون على غير هدى. واستولت علي الرغبة -أثناء هذه الاستكشافات-في أن أتلفت حوالي، مثلما يفعل الأطفال في اللحظة التي يتعلمون فيها شيئا جديدا، كيما أعرف من هو شاهد علي ويلذ له أن يراني وأنا أقوم بهذه الاكتشافات».

ويعود إلى وصف مدينة طليطلة في رسالة إلى الأميرة ماريه بتاريخ 11/13، فيصفها بأنها «مدينة السماء والأرض، لأنها في كلتيهما، وتمر بكل درجات الوجود. وقد حاولت حديثا أن أقربها من فهم بيا فلمارانا Pia Vilmarana في جملة واحدة فقلت: إنها بالدرجة نفسها حاضرة في عيون الموتى والأحياء والملائكة على السواء. والواقع أننا بإزاء موضوع يمكن أن يكون ميسورا لمراتب الرؤية الثلاث الشديدة التفاوت فيما بينها، ويدرك

المرء أنه أمام هذا الموضوع يمكن للمراتب الثلاث أن تتوحد ولا يتكون لها غير انطباع واحد. إن هذه المدينة التي لا نظير لها يصعب عليها أن تحتوي-داخل أسوارها -على المنظر الجاف غير المتناقض وغير المطواع: الجبل، الجبل المحض، جبل التجلي-إذ تنهض الأرض على نحو رائع خارج أسوارها، وتصبح مباشرة أمام أبوابها: عالم، خلق، جبل، خلق وتكوين. ولدى تقري هذا الإقليم، ينبغي علي أن أفكر دائما في نبي ينهض وسط المأدبة، تاركا هناك ضيوفه والجماعة، ولا يكاد يصل إلى القبة حتى تنزل عليه روح النبوة ورؤية هائلة مؤلفة من صور لا ترحم. على هذا النحو تتصرف الطبيعة حوله المدينة، بل وفي داخلها، هنا وهناك ترفع الطبيعة النظرة، وتتجاهل المدينة، وتأتيها رؤية.

أما عن نفسي، وسط هذا كله، فأنا لا أزال في دهشة من الطريقة التي هُيئت بها لمواجهة كل واحدة من هذه الوقائع. وعلى هذا النحو شعرت أمام اللوحات-في «صالون العقل» في بادونا، -أن كل شيء يحدث على شكل صور، تجر في الخارج إلى حياة، وعمل وحاجة، بحيث كان كل شيء حاضرا أمامي وصار مألوفا، كما لو كان ينبغي على هذا المشهد أن يترك لي بكل صفاته، وأن يكون ثم أثر للدهشة... إنني الآن أذهب كل يوم إلى الكاتدرائية، وأجلس عند قدمي تمثال كرستوبال المارد الذي يبلغ منشأ القبة».

ويتحدث عما شاهده من أعمال فنان طليطلة العظيم: إلجريكو El Greco-فيقول:

«أما لوحات إلجريكو فقد شاهدت منها الكثير، وأستشعر أمام بعضها بإعجاب مطلق. أما في جملتها فينبغي وصفها باطنا في مكان آخر من الآن فصاعدا. حتى الآن، وفي أي مكان شوهد، فإنه كان بمثل هذا كله. أما بالنسبة إلى من هو في طليطلة، فإنه يختفي أولا في المحيط الموجود، ولا يبدو إلا كقرط جميل يحيط بالتجلي الكبير حول الأشياء. إنه حجر نفيس هائل مودع في هذا الصندوق من الذخائر الرهيب السامي».

وقد أمضى رلكه في طليطلة -حيث نزل بفندق قشتالة - أربعة أسابيع بالضبط.

ب – في قرطبة

ومن طليطلة سافر إلى قرطبة في 30 نوفمبر لكنه ضاق بها، ورثى لحالها، فقال:

«انظري إلى هذا المسجد (يقصد: جامع قرطبة الشهير)! أي غم، أي بؤس، أي عار في تركه هكذا ينحط وينهار! وهذه الكنائس التي تتلوى في داخله المتلبك، يود المرء أن يجتثها بضربات من المنسط بوصفها عقدا في شعر جميل. والقابلات بقيت كأنها لقم ضخمة في حلق الظلام الذي فصد فصدا لابتلاع «الله» باستمرار وبهدوء كأنه عصير فاكهة يذوب. واليوم أيضا لا شيء أشد إزعاجا من سماع الأورغن وترنيمات القساوسة وهي ترن في هذا المكان (الذي يشبه صرخة جبل من الصمت). إن المسيحية لا تكف عن التهام «الله» كأنه كعكة شهية. لكن إله المسلمين بقي، في مقابل ذلك، كاملا تاما: إن إله المسلمين سليم».

واحتجاج رلكه هاهنا على ما أصاب جامع قرطبة العظيم، الذي كان يعد من أروع التحف الفنية في العالم كله، نقول: ما أصابه من تخريب وتشويه وانتهاك أثيم من جانب النصارى الإسبان منذ أن استولوا على قرطبة سنة 1236 م بقيادة فردينند الثالث، حتى الوقت الذي فيه زاره رلكه في أوائل ديسمبر سنة 1912. نقول: إن هذا الاحتجاج الصارخ الصادق النبرة الصادر عن شعور بجلال الفن وعظمة الإسلام لهو شهادة ينبغي أن يعتز بها كل مسلم، ومن أجلها يجب عليه أن يقر لرلكه بعرفان الجميل.

ولم يتغير حال مسجد قرطبة كثيرا عما كان عليه أيام زيارة رلكه له: كل ما هنالك ترميمات هينة، وتخليص له من بعض القابلات الكنسية التي زحمته كالعليق العنيد حوله وفي أغصان هذه التحفة المعمارية النادرة المثال في الفن العالمي كله.

جـ -في أشبيلية

ومن قرطبة مضى إلى أشبيلية، حيث نزل في «فندق مدريد». ومن هناك كتب إلى الأميرة ماريه تاكسس بتاريخ 4 ديسمبر 1912 يقول إنه لم يكن ينتظر من أشبيلية شيئا غير الشمس، وأن الإشادة بها تتسم بالمبالغة. «لأول مرة منذ جئت إلى إسبانيا، لا أجد هاهنا (في أشبيلية) شيئا رائعا، بل كل ما فيها مفهوم بطبعه. وربما يضيف الفصل الجميل (الربيع) شيئا من الإغراء الذي لا يوجد الآن مع اقتراب فصل الشتاء. بيد أن الحدائق فيها الآن تشبه مائدة فُرغ للتو من تناول الطعام عليها: فكل شيء فيها رديء منحط المستوى، تجاري ومليء بالأفكار الثانوية.

د. في رُنْـده

لهذا لا يقيم في أشبيلية غير ستة أيام، ويتوجه إلى رنده Ronda فيصل إليها في يوم 15 ديسمبر، وينزل في فندق «الملكة فيكتوريا». ومن هناك يكتب رسالة بالغة الأهمية في وصف مشاعر رلكه نحو الإسلام، وتاريخها 17 ديسمبر 1912 من مدينة رنده، وبعث بها إلى الأميرة ماريه. وهاك نص كلامه عن الإسلام في هذه الرسالة:

«لا شك أنك لاحظت أنني منذ أن زرت قرطبة قد أصبحت فريسة كراهية شديدة للمسيحية: إني أقرأ «القرآن»، وفي مواضع عديدة منه أجده يتكلم بصوت فيه أدخل أنا بكل قواي مثل الريح في الأورغن. إن المرء هاهنا يعتقد أنه في بلد مسيحي، لكن المسيحية قد تم التغلب عليها هاهنا منذ زمان طويل. إن هذا البلد كان مسيحيا من غير شك مادامت هناك شجاعة على الاغتيال على مبعدة مائة خطوة من أبواب المدينة. وعلى هذا الأساس ازدهر العديد من الصلبان الحجرية الخالية من الادعاء والتي كانت تحمل هذا الشاهد البسيط: «هنا مات فلان». لقد كانت تلك صورة المسيحية في هذه المواضع. ومنذ ذلك الحين ساد عدم الاكتراث إلى درجة لا حد لها، ولم يبق ثم غير كنائس خاوية، كنائس منسية، وكابلات جائعة. حقا، لم يعد هناك ما يدعو إلى التوقف طويلا أمام هذه المائدة الخالية من الطعام، ولا شيء بعد ينتظر منها: لقد صار الوقت هو وقت غسل الأصابع. لقد مُصّ عصير الفاكهة، فلم يبق بعد إلا بصق القشرة، إن جاز استعمال هذا التعبير الخشن. وهاهم البروتستنت والمسيحيون الأمريكيون يفكرون في أن يصبوا، مرة أخرى، الماء الساخن على أوراق الشاي هذه التي خرجت عصارتها منذ ألفي سنة! لقد كان «محمد» على كل حال هو العنصر الأقرب، ومثله مثل نهر يجري خلال جبل من الأصول، قد شق طريقا إلى الله الواحد الأحد، الذي يحق للمرء أن يتحادث معه على نحو جليل رائع كل صباح، دون اللجوء إلى تلفون «المسيح» الذي فيه يصرخ المرء باستمرار: «ألو!» مَنْ الذي يتكلم؟» دون أن يجيب أحد.

«والآن! تصوري، أيتها الأميرة أنني لا أبعد عن جبل طارق إلا بمسافة تقطع في ثلاث ساعات، ثم بمسافة تقطع في خمس ساعات للوصول إلى طنجة إن كان البحر مواتيا. فما أقوى الإغراء، وأنا على هذه الحال، كيما

أجتاز المضيق للوصول إلى ديار المغاربة (أو: المسلمين) غير أني-من ناحية أخرى-أخشى أن يكون من نتائج ذلك أن تعلو طبقة مضيئة جدا على الطين الأحمر الداكن لإسبانيا».

في هذا النص الثمين يقر رلكه بعدائه للمسيحية وإعجابه بالإسلام، لأن المسيحية، بفكرة الوسيط بين الله والإنسان-وهو يسوع المسيح-قد قطعت العلاقة المباشرة بين الله والإنسان، وصار هذا الأخير ملزما بالمرور بهذا الوسيط الذي ربما يتوسط، وربما لا يتوسط. وقد شبه رلكه الوسيط هنا-أي يسوع المسيح-بأنه مثل آلة هاتف (تلفون) ينادي منه الإنسان كي يتصل بالله، لكن لا أحد يمسك بالسماعة على الطرف الآخر. وعبثا يصيح: «ألو»، «من يتكلم؟» فإنه لا يرد عليه أحد.

أما في الإسلام فقد وجد رلكه أن الاتصال بين الله والإنسان اتصال مباشر: «ادعوني، استجب لكم»(سورة غافر، آية 60)، ولا حاجب بينهما ولا سلك ولا وسيط. فما بالك، وفي المسيحية قد تعدد الوسطاء إلى غير نهاية: المسيح، ونائبه على الأرض (البابا)، وسلسلة لا حصر لها من رؤساء الأساقفة فالأساقفة، فالقساوسة، فالشماسة، إلخ.

ولهذا- هكذا يقول رلكه-تبرم الناس بالمسيحية، ولم يعد هناك غير كنائس خاوية، كنائس منسية، ومحاريب جائعة. ومائدة الإيمان خلت من كل غذاء، وعادت المسيحية مجرد قشرة ينبغي على المرء أن يقذف بها، ما دامت عصارتها قد امتُصَّت.

وشبه حركات التبشير البروتستنتية، والأمريكية منها بخاصة، بمن يحاول أن يصب ماء ساخنا على تفل شاي كانت أوراقه قد طلّ ما فيها من جوهر.

أما النبي محمد فهو يشبه نهرا يشق طريقه من الينابيع الأصلية في الجبال ويجري فيضه الثر حتى يصل إلى الله مباشرة. وبهذا أصبح في وسع المسلم أن يتحادث مع الله مباشرة كل صباح، وذلك في الصلوات اليومية، دون حاجة إلى وسيط يصل بينه وبين الله.

وتراود رلكه فكرة العبور إلى الشاطئ الآخر من مضيق جبل طارق، كيما يندمج في جماعة المسلمين. لكنه يتهيب القيام بهذه الوثبة الكيفية، على الرغم من سهولة الوثبة المادية، أعني عبور «الزقاق» الفاصل بين عالم المسيحية وعالم الإسلام. وحسبنا هذا هاهنا، فقد فصلنا في الفصل

الخاص بـ «رلكه في مصر» موقف رلكه من الإسلام والنبي محمد.

ونعود إلى مدينة رنده التي وصلها رلكه في 10 ديسمبر سنة 1912، واستمر يقيم فيها حتى منتصف فبراير سنة 1913. وقد نزل في فندف «الملكة فيكتوريا» الذي كان الإنجليز قد بنوه في رنده، لينزل فيه ضباط حامية جبل طارق وكبار السائحين الإنجليز. ومن رنده أرسل مجموعة من «الكارت بوستال»-التي تصور مناظر جميلة حول رنده-إلى «باشا»، نجل الأميرة ماريه تاكسس، «إذ لاح لي-كما قال رلكه في الرسالة نفسها (بتاريخ 12/17) -أن من المحتمل أن يكون المنظر الفريد لهذه المدينة-المتكدسة على كتلتين صخريتين يواصل بينهما الحلق الضيق العميق للنهر- يتجاوب مع صورة أحلامه: إنه موقع يفوق الوصف.. والمجموع محاط بواد فسيح، فيه مستويات الحقول، وأشجار السنديان تشيع حياة مشبوبة، بينما في المواجهة تبرز من جديد الكتلة الخالصة للجبال كأنها تستريح، وكل جبل منها وراء الآخر، وبهذا تؤلف أنبل الأقاصي. أما المدينة نفسها فإنها في مثل هذه الظروف لا يمكن أن تكون إلا ذات طابع خاص: فهي في مصاعد ومهابط دائمة. وهنا وهناك تقذف بنفسها في الهاوية، على نحو لا تجرؤ أية نافذة أن تتطلع منه. إن فيها قصورا صغيرة تحت قشرة من البياض المجرد في كل عام، وكل واحد منها يبرز بلون بوابته. وتحت الشرفة رنك مزدحم بالزخارف في أعلاه. لكن الدرع واضحة كاملة ممتلئة كأنها رمانة.

«ولا شك في أن هاهنا المكان المرموق للعيش والسكنى على الطريقة الإسبانية الخالصة، لولا فصل الشتاء ولولا نفوري من التعرض لمتاعب أخرى غير تلك التي لا مفر منها (متاعب فطرية وأخرى مكتسبة بقوة)، وفضلا عن ذلك، فإن الشيطان قد أوحى هاهنا إلى الإنجليز بفكرة بناء فندق ممتاز حقا. وأنا أقيم فيه طبعا، والإقامة فيه لا لون لها، وغالية التكاليف، وكما يتمناها البعض. وعندي من الوقاحة ما جعلني أعلم الناس في كل مكان أنني أقوم برحلة في إسبانيا».

ويود رلكه لو كان قد زار رنده قبل ذلك بثلاث سنوات، إذن لكان قد استطاع أن يمتلئ إعجابا «بمنظر هذه الجبال، وهذه المنحدرات المفتوحة في الهواء البالغ السمو، كأنها صفحات مدونة موسيقية جاهزة للإنشاد». أما الآن «فيبدو لي-هكذا يتابع القول أن انتقل إلى أبعد من هاهنا بألف

فرسخ، وأنا أشاهد كثيرا من الأشياء تسير في الاتجاه نفسه دون أن تعلم أنها ستصل إلى غايتها».

وإنه ليشعر بأن أقل صرخة لطائر تمسه وتعنيه. ويود أن يأتي الربيع، كيما يستطيع أن يكرس كل أحاسيسه للطبيعة.

وكان أول استكشاف قام به في ضواحي مدينة رنده هو كنيسة سان فرنشسكو San Francisco.

وفي الرسالة نفسها يعود إلى ذكر أشبيلية وانطباعاته السيئة عنها فيقول:

«أما أشبيلية فلم يحدث بيني وبينها أي اتصال متبادل، على الرغم من أن أهل أشبيلية قد تحمسوا جدا لعيد مريم، وأنه تم تخصيص ثمانية أيام كاملة للمواسم والطقوس، غير أني لم أشاهد إلا أوائلها.

أما الكاتدرائية فإنها لم تثر في نفسي إلا النفور، على نحو لا يثير مثله إلا الشيء الكريه: فليس فيها شيء جاد، بل إن شيئا مبهماً متفلتا لا أدرى ما هو يتجلى في هذه الكاتدرائية التياهة كبراً وغروراً. إذ تسري فيها روح من الانفلات والتهرب يهدف إلى التهرب من الله نفسه، وإلى الوصول إليه من أعلى، إن صح هذا التعبير. والأرغنات الخشبية كانت بأصواتها المخنثة تغمر المكان برطانة تجعل الأعمدة الضخمة هي نفسها تترنح إعياء.. ومهما كانت الحيلة رائعة، فإن هذا الإرخاء للحجر يبعث على عدم الاكتراث».

الانطباع العام عن رحلة رلكه في إسبانيا

وهذا يسوقنا إلى وصف الانطباع العام عن هذه الرحلة:

١- يلاحظ أولا أنه شعور عام بالانقباض من طليطلة، ومن أشبيلية. أما من أشبيلية، فقد أتينا على ذكره منذ لحظة، أما من طليطلة فنضيف إلى ما ذكرناه تحت عنوانها ما قاله في رسالة كتبها إلى هيلانة فون نوستتس Helena von Nostitz:

«هل تتصورين أنه من بين أمور هذه المدينة التي تفوق الوصف، يظل هناك ذلك النوع من التوتر القائم بين الشبح وبين من يتجلى له هذا الشبح: عجز متبال عن التصديق، ومواجهة بين شيء وشيء، وانقطاع نفس. إن فزعا ينصب الأبراج نحو الأعالي وصرخة تجعل من الأبواب ما هي،-والجسور وقد ترنحت صارت مقببة. وكل هذا لا قدرة له على السكون والراحة، لأن جبلا مفزوعا يطيل فيه ومن حوله بعمق. وفي أسفل يمد النهر حلقاته كما

لو كان يريد أن يخنق. والجسور التي-شأنها شأن العيون المغلقة-تصل إلى الماوراء، وتتطلع إلى أعلى، تجد نفسها أمام طبيعة بالغة الوحشية. والطريق الذي أوصلت إليه حتى ذلك المكان يستغلق على شكل أشواك غليظة أمامي ويرتد وهو يضرس بأسنانه». ويخيل إلى المرء أنه إنما يصف طليطلة من خلال لوحات إلجريكو، لا بأم عينيه.

2- وحتى رنده، على الرغم من أنها فوق جبل وتشرف على واد مرتج، فإنها هي الأخرى لم تسلم من نقده الجارح، لأنها ذات مصاعد ومهابط لا تسمح لمن في قصورها الصغيرة أن يتطلعوا من نوافذها لينظروا إلى واديها.

3- لكنه شديد الإعجاب بالفن الإسلامي المتمثل في مسجد قرطبة، ويود لو تخلص هذا المسجد من كل التشويهات التي صنعها به رجال الدين النصارى الذين حولوه إلى كنيسة، فقضوا على جمال خطوطه وعظمة معماره، وصفاء تقاسيمه المعمارية، وجلالة أساطينه. لكن من الغريب أنه لم يزر غرناطة، حتى يشاهد مجموعة من أجمل الآثار الإسلامية في الأندلس. ومادام قد زار قرطبة وأشبيلية، فماذا منعه من زيارة غرناطة القريبة منهما؟!

4- كذلك يلاحظ أنه لا يحدثنا عما قرأه من الأدب الإسباني، باستثناء قوله: «أحيانا في المساء (والاحتقان في عيني يحد من قراءاتي) أقرأ «دون كيخوته» في ترجمة ألمانية. ومن رأيي أن هذا الكتاب صبياني الطابع، على الرغم من أنه، من الناحية الفنية، لا يعرف أية حدود، اللهم إلا تلك التي يعرفها في الواقع تمويه لوذعي بارع، وتلك الحدود قد تم تجاوزها في أحيان كثيرة باستخفاف» (من رسالة إلى الأميرة ماريه، بتاريخ 17 ديسمبر 1912).

ولكن لاشك في أن جهل رلكه باللغة الإسبانية قد حال بينه وبين تذوق الأدب الإسباني. ولو كان يعرف الإسبانية، لتغير حكمه على هذا الأدب، وبالأخص في رواية «دون كيخوته»، التي تعد واحدة من روائع الأدب العالمي الأربع الكبرى.(2)

عودة إلى باريس

ويغادر رنده في 15 فبراير 1913، فيمر بمدريد، ويمضي فيها ثمانية أيام على قسر منه. وكان في الأيام الأخيرة من مقامه في رنده معتل المزاج. وهو يعزو ذلك، ماديا، إلى الطقس، إذ كان في الصباح هو طقس شهر فبراير، أما عند الظهر فإنه يتحول إلى طقس شهر أغسطس ويعزوه معنويا إلى

خيبة أمله وخمود إحساسه وحماسته للإنتاج. يقول رلكه في رسالة إلى الأميرة ماريه «أما من الناحية المعنوية (ولنقل هذا فيما بيننا) فقد كانت حالي أسوأ. إذ حدثت في النفس بداية للإنتاج منذ بضعة أسابيع، لكنها ما لبثت أن زالت وامّحتْ عقب ذلك، بحيث صرت في حالة شبيهة بالحالة التي تعقب الإجهاض (ولا يمكن التعبير عنها بعبارة أقل خشونة). فخاب أملي، وهمدت حماستي، واأسفاه!» (رسالة بتاريخ 27 فبراير 1913).

وقد أمضى تلك الأيام الثمانية في تأمل اللوحات الفنية في متحف البرادو El Prado الشهير في مدريد. يقول في الرسالة نفسها: «كنت أتأمل في لوحات إلجريكو في متحف البرادو بوجدان مشبوب،-ولوحات جويا Goya باندهاش-ولوحات بلاسكث VelasqueZ بأكبر قدر ممكن من الأدب». وقد وبخته الأميرة ماريه على هذه العبارة الأخيرة، وشعرت بالإهانة، لأنه أهان بلاسكث (رسالتها بتاريخ 9 مارس 1913).

وفي 23 فبراير استقل القطار إلى باريس، فوصلها في 25 فبراير 1913. وكان قد انقطع عنها منذ منتصف أكتوبر 1911. وسيبقى فيها هذه المرة حتى 6 يونيو 1913. وكان يتوقع أن ينزل في مرسم بشارع كمباني برميير Campagne Premiere رقم 17 (في الحي الخامس عشر من جادتي راسباي ومونبرناس)، لكنه وجده غير معد بعد للإقامة فيه. فاضطر إلى النزول في فندق لوتسيا Lutetia (جادة رسباي Raspail رقم 45)، وهو الفندق الذي أنزل أنا فيه دائما كلما كنت في باريس، منذ قدومي إليها لأول مرة في 23 يونيو سنة 1946 حتى اليوم. وهذا الفندق كان حتى سنة 1955 ثاني أفخم فندق في الشاطئ الأيسر لنهر السين في باريس، إلى أن أقيمت الفنادق الأمريكية الطابع (هيلتون وشيراتون، ونكو، إلخ). ولهذا لم أفهم ما قاله رلكه في آخر رسالته إلى الأميرة ماريه (بتاريخ 1913/5/27) حين قال: «سأبقى في هذا الفندق غير المعقول، إلى أن تستطيع شقتي استقبالي، وهي تقع في رقم 17 بشارع كمباني برمييري». فهل يقصد من وصف فندق لوتسيا بأنه «غير معقول» أن أسعار الإقامة فيه غالية باهظة؟ لكن رلكه-كما شاهدنا مرارا-قد تعود النزول في الفنادق الفخمة الغالية، فكيف يشكو من غلاء فندق كفندق لوتسيا؟ كل أنه بحسب علمنا لم يكن آنذاك غالي السعر، إذا ما قورن بنظائره في باريس.. أم أنه كان غاليا بالنسبة إلى ما

تعود عليه رلكه في باريس من النزول في فنادق من الدرجة الدنيا (مثل فندق أوروبا في شارع صغير متفرع من شارع سوفلو، أو الفندق القائم في شارع كاست، أو غرفته في قصر بيرون بشارع فارن)؟ هذا هو الأرجح، لأن الفنادق التي تعود النزول فيها في باريس كانت من أدنى المستويات.

وتستولي عليه باريس من جديد، وتمتصه في داخل وجودها. وعلى الرغم من أنه حزين شارد الذهن، فإنه يشعر بالابتسامة ترتسم على وجهه. ويصف شعوره بالعودة إلى باريس فيقول:

«كم في هذه المدينة من حقيقة رائعة! إني لا أكف عن الاندهاش باستمرار.. كم حاضرة فيها الآلام، والشقاء، والفزع، وكل واحد منها يزدهر مثل الخميلة!. إن أصغر حجر في الشارع المرصوف يبدو لك أنيقا أنيسا أكثر من أية وسادة في أي مكان آخر. ومع ذلك فهو حجر مطلقا، خشن الملمس، لكنه يبدو مع ذلك كما لو كان مأخوذا من الحجر الذي كان (النبي) يعقوب يضعه تحت رأسه. إن موت الفقير الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة على حجر من هذه الأحجار، ربما كان موتا رقيقا مع ذلك» (رسالة إلى الأميرة ماريه، بتاريخ 1913/3/21).

ويذكر رلكه في الرسالة نفسها المرسلة من عنوانه الجديد: 17 شارع كمباني برمبيير الذي استقر فيه تماما، وسيحتفظ به ويدفع قيمة إيجاره حتى أثناء الحرب العالمية-نقول إنه يذكر في الرسالة نفسها أنه تغدى في يوم 3/17/ 1913مع الشاعر البلجيكي فرهيرن Verhaern(1855- 1916) ومع رومان رولان Romain Rollan (1866- 1944). وكان هذا أول لقاء بينه وبين رومان رولان، وهو يقول عنه في الرسالة نفسها: «إن رومان رولان أحدث في نفسي انطباعا عميقا، هو نوع من التعاطف والمشاعر الإنسانية، حتى إنني دعوته بقوة إلى زيارة قصر دوينو، إذا ما سنحت له الفرصة، ذلك أنه في الطريق إلى إيطاليا، قاصدا روما. لكن هذه السفرة هي من أجل العمل، ولا يريد أن يقابل أحدا، وتبعا لذلك، لا ينبغي أن يحسب حسابه هذه المرة، اللهم إلا إذا هيأ بلاتشي Placci (وهو موجود في روما، ويعرف طبعا رومان رولان) لهذه الزيارة. وينبغي ألا يتوقع المرء أن يجد فيه فنانا، لكن لو قدر للمرء أن يلقاه في أي مكان، دون أن يذكر اسمه، فإنه لابد أن يشعر بانطباع قوي خاص لدي رؤية هذا الرجل الذي يرفع نظرة طاهرة صافية من أعماق نفس امتلكت ذاتها بشجاعة فائقة.

«ولقد شعرت بأنني وجدت نفسي أمام قارئ لا يكل أبدا. وقد قيض له الله-بلطف خاص منه-أنه حين تتعب عيناه من الاطلاع، فإن نظرته يعاد رسمها بلون أزرق صاف هو لون الطفولة. وقد استرسل كلانا إلى الآخر بحماسة شديدة وحب استطلاع. وكان فرهيرن رائعا. (رسالة إلى الأميرة ماريه بتاريخ 21/ 3/ 1913). لكنه في رسالة تالية (بتاريخ 10/ 4/ 1913) يقول إنه يقرأ الجز الثالث من رواية رومان رولان الضخمة التي عنوانها: «جان كرستوف». ولكنه يجده هزيلا جدا، بسبب إسهابه الفاحش، بينما الفن يقتضي الإيجاز. ورغم ذلك فإنه يقرأ هذا «الورد» Litanie لأن رومان رولان يهمني، وقد كان يزورني أمس الأول. إنه لطيف المعشر جدا، ممتاز، يؤثر في النفس. إنه يبدو كلوحة رمزية للشتاء في الريف: فهو يدخل مزملا بالمعاطف، وحول عنقه شيء أسود ناعم الوبرة، وقد تزود بكل أنواع الاحتياطات في الملابس».

وتنهره الأميرة ماريه على حكمه السطحي المتسرع على رواية: «جان كرستوف»[3]، كما انتهرته من قبل على تسرعه في الحكم المبتسر على لوحات بلاسكث، وتقوله له بغضب «لا تطعن في جان كرستوف. فهو بحاله التي هي عليه قد قرأته أنا بسرور بالغ رغم أنه خال من الإيجاز، وخصوصا الأجزاء الأولى»[4] (رسالة الأميرة ماريه بتاريخ 1913/4/14).

وإذا برلكه في جوابه عن رسالتها (بتاريخ 17/4) يتراجع ويعتذر عن حكمه المتسرع الجائر على رواية «جان كرستوف»-فيقول:

«أما فيما يتصل برواية «جان كرستوف» فلم يعد عندي سبب للشكوى منها. أنت إذن قرأتها كلها، بما في ذلك الجزء العاشر. إنني على وشك الفراغ من قراءة الجزء الرابع. وكلما تقدمت في القراءة ازداد صبري واحتمالي لهذا الورق الرديء الطبع، إنه ليس زيت الورد، قطعا، إنما هو شراب كافور Tisanc أخذ الوقت المطلوب لخروجه، حتى إذا ما ذاقه المرء ببطء وهدوء، فإنه يذكر بلطافة الزهرة الصغيرة السعيدة. والشخصيات النسوية المتعددة تتوالى فيه على نحو عيني مثير. وفي كل مرة يجد المرء بعض لحظات خصبة قبل أن تتوافق قسماتها مع النمط التقليدي الجامد لهذا النوع.

ولا ينقص الحكاية المعنونة بعنوان «سابين» Sabine إلا القليل كي تصبح عملا رائعا (الجزء الثالث: «المراهقة» ص. 71). لكنها على حالها التي هي

عليها تحدث على الأقل في النفس انجذابا مطلقا ساحرا صادرا عن بعض الشخصيات المرسومة... وقد رددت الزيارة لرومان رولان. وتلبثت ساعة عنده في مساء يوم الأمس، وذلك في مكتبه الصغير، في الطابق الرابع، المطل على ثلاث حدائق ملحقة بأديرة قديمة. الشقة ضيقة، ويسودها جو فتاة عانس (أنا أبالغ، ولكن المرء يشعر بشيء مشابه بهذا)، في هدوء حافل بالاحتياط. وبالجملة، تحادثنا، وكأن كلينا يعرف الآخر منذ زمان بعيد، دون أن نحتاج إلى أن يسبر كلانا الآخر كيما يكتشف مقدما ما عسى أن يكون قد حدث من جفوة. وقادنا الحديث إلى الكلام عن الموسيقى. وكانت على جهاز البيانو الموجود عنده سلسلة من الكراسات الموسيقية السوداء اللون، وهي مملوءة-كما أطلعني-بعلامات موسيقية مكتوبة بخط يده كتابه دقيقة رقيقة، وهناك نجفة تكاد أن تكون يابانية. ووضع إحدى هذه الكراسات على القمطر وليعزف لي قطعة موسيقية قديمة، هي «مرثية» ذات نواح تعوض عنه عظمتها. وتلاها بنغمات ربيعية صادرة عن قداس جريجوره، وهي قطعة قصيرة ذات صوت واحد، بعيدة عن كل مبالغة، لكنها حين تعزف ترد شيئا لا متناهيا إلى مقياس هادئ حافل (وبهذا أيضا تظل في التقاليد اليونانية) واحكمي أنتِ بنفسك: إن رومان رولان قد شعر بمقدار ما كان لها في نفسي من تأثير عميق. وفي الغداة بعث إلي بنسخة منها».

وهكذا كانت زيارة رلكه هذه المرة، لباريس (من 25 فبراير حتى 6 يونيو 1913) مشمولة ببركة الصداقة الخصبة بينه وبين رومان رولان.

أما من حيث الإنتاج، فإنا نجده يتحدث حديثا غامضا جدا عما اعتمل في نفسه إبان شهر مايو «من عيانات جديدة، تنمو وتتزايد» عيانات كانت مسطرة منذ وقت طويل. وهو يشبّه حاله بحال «العشب بعد الصقيع» (من رسالة إلى الأميرة ماريه، بتاريخ 1913/6/10). والشيء العيني الوحيد هو أنه صدرت له مجموعة قصائد بعنوان «حياة مريم» Marien Leben. وكان قد نظمها وهو في دوينو في يناير 1912. وتتوالى عنواناتها كما يلي:

ميلاد مريم -عرض مريم في المعبد -بشارة مريم - زيارة مريم لأليصابات -تشكك يوسف النجار- أبناء الرعاة -ميلاد المسيح -الراحة إبان الفرار إلى مصر-في عُرس قانا-قبل العذاب -البكاء على المسيح -مواساة مريم مع من قام من قبره موت مريم (ثلاث مقطوعات). ومجموع هذه القصائد يقع في

25 صفحة (من صفحة 611 إلى صفحة 635 في «قصائد راينر ماريا رلكه ط 2 سنة 1981 عند الناشر Insel في فرانكفورت). وقد ظهرت الطبعة الأولى في أول يونيو 1912، وطبع منها حتى سنة 1966 مقدار 162 ألف نسخة.

وأثناء شهري أبريل ومايو، قام رلكه بترجمة سوناتات الشاعرة لويز لابيه Louise Labe عن الفرنسية. وستنشر هذه الترجمة في سنة 1917 عند الناشر Insel. وعدد هذه السوناتات Sonnets أربع وعشرون. ولويز لابيه فتاة من ليون عشقت عشقا لم يبلغ أرَبَه (1523- 1566). وكانت تقيم ناديا أدبيا (صالون) تجمع فيه حولها أجمل النساء وأبرز العقول في مدينة ليون Lyon(في قلب فرنسا) التي كانت آنذاك مركز حركة إنسانية وشعرية ممتازة. وكانت شاعرة ممتازة قامت-إلى جانب الشاعرين موريس سيف Sceve وأنطوان هرويه Heroet بنهضة في الشعر قبل جماعة «الثريا». وقد نظمت سوناتات (مقطوعات من 14 بيتا) وإيلجيات تدور كلها حول الشكوى الغرامية، والنشوة في الحب، والهناء والشقاء في حبها الوحيد للشاعر أولفييه دي ماني 1561- 1530 (Olivier de Magny) الذي يبدو أنه لم يبادلها حبا بحب.

وقد ترجم رلكه هذه السوناتات نظما، مع شيء من التصرف، وجاءت الترجمة أجمل من الأصل.

ومن ناحية أخرى، كانت الأميرة ماريه تاكسس مشغولة في الفترة نفسها بترجمة بعض قصائد رلكه إلى اللغة الإيطالية. وكان يتولى تصحيح -أو تنقيح -هذه الترجمة شخص يدعى دامريني Damerini كان هو الآخر بسبيل أن يكتب دراسة عن رلكه. وتذكر الأميرة (في رسالة بتاريخ 1913/6/17) أنها أتمت ترجمة ثمان قصائد.

رلكه في الغابة السوداء

وهيلجندام، وليبتسج، وبرلين

ويغادر باريس في 7 يونيو 1913 متوجها إلى الغابة السوداء في مقاطعة بادن بجنوب غربي ألمانيا. وأقام في مدينة حمامات تدعى Bad-Rippoldsau تقع في قلب الغابة السوداء. وقد أمضى فيها عدة أسابيع للاستشفاء والاستجمام-من ماذا؟ لسنا ندري!

ومن هناك سافر إلى جيتنجن، فأمضى فيها ثمانية أيام عند لو أندرياس سالوميه. وبهذه المناسبة يقول عن لو «كم من أمور سامية تستطيع هذه

السيدة إدراكها! وما أقدرها على رد كل ما تفيده الكتب والموجودات إلى فهم ناصع في اللحظة المناسبة! وما أقدرها على فهم أعمق الأسرار وعشقها والتحرك فيها دون حذف، هذه الأسرار التي لا تضر بها في شيء، بل تجعلها تشع بأطهر أضواء النار! إني لم أعرف، منذ تلك السنوات البعيدة التي مضت منذ أن عرفتها لأول مرة ولقيتها لقاء ذا دلالة لا متناهية-أقول إني لم أعرف شخصا مثلها يستند إلى الحياة بكل هذه الثقة، ويقدر على أن يميز مثلها-في الأمور الأكثر ترويعا-القدرة الوحيدة التي تتوارى. لكنها، مع ذلك، حتى حين تقتل، تريد دائما أن تغطى» (من رسالة إلى الأميرة في 1913/7/29).

ثم يسافر إلى ليبتسج Leipzig ليلتقي بناشره د. كبنبرج. ومن هناك يسافر إلى مصيف بحري في شمال ألمانيا يدعى Heiligendamm ليستمتع بالأنسام البحرية. وهذا المصيف يعد-على حد قوله -«أقدم وأهدأ مدن الحمامات في إقليم مكلمبورج، وفيه يقيم بلاط إمارة مكلمبورج. وفي المدينة كازينو له أعمدة من الطراز الإمبراطوري، وفي واجهته ساعة ذات مينا زرقاء. وتحيط به فيللات قليلة وغابات من شجر الزان. وبعد أن أقام عشرة أيام في ذلك المصيف، توجه إلى برلين فوصلها في 21 أغسطس 1913.

ومن برلين سافر إلى منشن، حيث التقى مرارا عديدة بالقصصية آنيت كولب Annette Koib، وتحدث معها في تحضير الأرواح. «لكن الأرواح لم ترده». وذهب إلى عرافة تتبئ عن البخت بوساطة النظر في كرة من البلور. فأنبأته بأنه يملك سيالا Fluide يعادل مثلين من سيالها هي: «وأكدت لي-هكذا يقول رلكه-أنني سأتوصل إلى استخدامه (اللهم احفظني!) وأنني أستطيع في كل لحظة-دون حاجة إلى أحد-أن أكتب كتابة أوتوماتيكية». وأخبرت بهذه النتيجة آنيت كولب Kolb. فعملت على إحضار لوح من لندن. وقمنا معا بتجربة واحدة. لكنني قد بلغ بي النفور إلى درجة أنه خيل إلى أنني أخطئ حين أشارك في هذه الألاعيب، ولهذا لم أشأ تكرارها. ورغم ذلك، كان بودي أن تكلمني «المجهولة» » (من رسالة إلى الأميرة ماريه، بتاريخ 1913/10/21، وقد كتبها باللغة الفرنسية).

ثم سافر إلى درسدن Dresden، حيث التقى بالممثلة الشابة ليا روزن Lia Rosen، وعرف منها أنها ستمثل في مسرحية شلر Schiller التي عنوانها

«عذراء أورليان» في مسرح لسنج في برلين في العاشر من نوفمبر 1913.

وفي درسدن، كما في هلراو Hellerau التقى مرارا بالشاعر اليهودي الناشئ فرانتس فرفل (1890- 1945)[5]، وقد لقبته سبيريا ندهوني بـ «الصبي اليهودي». «ولم تكن في هذا النعت مخطئة تماما. لقد كنت مستعدا لأن أفتح ذراعي لهذا الصبي. لكني بدلا من ذلك احتفظت بهما على ظهري، مثل رجل غير مكترث يتريض. وكنت أردد مع نفسي عشر مرات في اليوم أنه هو الذي أنتج كل هذه البدائع، وفي وسعي أن استشعر حماسة له في غيابه. لكنه حين مثل أمامي، فإني تضايقت إلى درجة أنني لم أستطع أن أتطلع في وجهه. ومع ذلك فلم يكن ثقيلا إلى هذا الحد. لقد كان ذكيا جدا، أذكى-ربما-من شعره الذي يفقد الكثير إذا ما عد شعرا فكريا دبجته بحذق ومكر روح يهودية تعرف البضاعة أكثر مما ينبغي. لكن قيمة إنتاجه هي بحيث إنه سيكون من الممكن ذات يوم أن أكوّن عنه فكرة أقل حقدا وأفضل من تلك التي لدي عنه الآن. وقد شعرت لأول مرة بزيف العقلية اليهودية التي تشعر بأنها متحررة من كل ما يربطنا، مع أنها هي تتحدث عنه، وهي مملوءة بتجربة شبه سلبية. تلك الروح التي تنفث في كل شيء لأنها لم تمتلكه، مثلها مثل السم الذي ينفذ في كل موضع منتقما من كونه ليس جزءا من الجهاز العضوي» (من رسالة إلى الأميرة ماريه، بتاريخ1913/10/21).

ومن درسدن انتقل إلى ضاحيتها هلراو Hellerau وعلى مسرحها شاهد تمثيل مسرحية «بشارة مريم» تأليف الشاعر الكاثوليكي الفرنسي بول كلودل (1868-1955)، وذلك في 5 أكتوبر 1913، وكان هناك جمهور مختار جدا، راح يهنئ كلودل ويحتفي به بأدب ولطف. أما عن شعور رلكه فيقول «أعترف أنني لست بحاجة إلى مؤلفاته. وأخجل حين أقول ذلك، لأنه قال عكس هذا فيما يتصل بمؤلفاتي أنا. لكن ذلك كان مجاملة منه، شأن سائر المجاملات، هكذا أرجو» (الرسالة نفسها).

وهلراو كانت آنذاك من ضواحي درسدن. لكنها صارت ابتداء من سنة 1950 حيا من أحيائها، وترتفع 230 مترا فوق سطح البحر. وكان المهندس المعماري رتشرد ريمرشمدت Riemerschmidt قد شيد في سنة 1909 في هذه الضاحية نوعا من «الفيللا-الحديقة»، كما أسست فيها «الورش الألمانية» في سنة 1910. وأنشأ فيها جاك دلكروز Dalcroze معهدا للرقص الإيقاعي

والتعبير البدني. وبالجملة، صارت هذه الضاحية «مستعمرة للفنانين».

وكان من أهم معالمها ذلك المسرح الذي تحدث عنه رلكه.

في باريس من جديد

يعود إلى باريس من جديد، فيصلها في 1913/10/18، ويقيم في 17 شارع كمباني برمبير.

وعلى عادته يتبرم بباريس، رغم إصراره على العودة إليها، لأنه كان قد تجول بما فيه الكفاية، فلم يكن أمامه إلا العودة إلى «المرفأ الأخير» دائما، أعني باريس. وعن تبرمه هذا يقول: «إن لم أكن مخطئا، فإني أجد الحياة هاهنا محزنة وهابطة بشكل مروع. ولن أستطيع أن أقضي هاهنا ما يسمى بفصل «الشتاء».-ولهذا فإني قبل أن أستقل القطار، قاومت الرغبة في السفر إليك [أي: إلى الأميرة ماريه، التي كانت آنذاك في قصر دوينو] وأن أواصل السفر بعد ذلك حتى صقلية. لكن ذلك كان سيكون على سبيل المصادفة والمخاطرة، لأن هاهنا على الأقل كتبي (التي لا تخبرني بشيء)، وأثاثي (الذي أكرهه). لكن هناك مع ذلك سببا خارجيا، فإني في كل مكان أشعر بأنني زائد على الحاجة. أما هاهنا [أي في باريس] فإني قد هيأت نفسي لهذا المقام الصغير الذي كثيرا ما سخطت من قبل عليه. لكن ينبغي على المرء أن يشرب الحساء الذي أعده على النار».

ويصف شعوره حين عاد إلى شقته في رقم 17 شارع كمباني برمبير فيقول:

«لما وصلت إلى هنا [أي: إلى باريس] كنت مرتاعا من الأماكن التي تركتها، ومن الغرفة التي كانت بالهيئة نفسها، حتى إنني أمضيت يوم الأحد في مدينة روان Rouen، وواستني الكاتدرائية [كاتدرائية روان] في محنتي. والغريب أن مدن الأقاليم في فرنسا لطيفة عطوف، حتى إن فندقا صغيرا حوله حديقة صغيرة يغريني بأن أقضي فيه بقية عمري. والنوافذ الملونة في كاتدرائية روان رائعة، وما أعجب التركيز فيها: إن المرء ليشاهد دم الألوان» (الرسالة نفسها).

وفي رسالة إلى لو سالوميه (بتاريخ 1912/10/21) عبر رلكه عن المشاعر نفسها نحو باريس، فقال إنها «مدينة صعبة، وتأثيرها في النفس يشبه ما يحدث لشريحة تصوير فوتوغرافي عرضت للتحميض أكثر مما ينبغي» ومع ذلك ينتهي إلى توكيد أنه لا يستطيع أن يعيش إلا في باريس!! ويشير

إلى ميلاد فرقة مسرحية جديدة في حي مونبارناس، هي الفرقة التي أنشأها ألفرد كوبو Copeau (1879- 1949) باسم «مسرح برج الحمام القديم»-Vieux-Colombier، نسبة إلى شارع بهذا الاسم يمتد من ميدان الصليب الأحمر حتى ميدان كنيسة سان سولبيس. وقد أتيح لي أن أشهد أواخر أيام هذا المسرح في سفرتي الأولى إلى باريس في صيف 1946 والثانية في صيف 1947.

وترد عليه الأميرة ماريه برسالة تاريخها 1913/10/26 فتقول: إنه يحزنها جدا أن يتضايق رلكه من باريس، «ولا أعرف ماذا ينبغي علي أن أقوله لك، لك أنت أيها الجوال الذي لا يستريح». وتواصل الكلام فتقول: «من العجب عندي أنك قد شغلت بمصر، ذلك لأنني في هذه الأيام مشغولة أيضا بمصر. وثم إمكان-لا يزال غامضا-أن أسافر هذا العام إلى مصر بصحبة ألكسس. كيف، ومتى؟ هذا لم يتحدد بعد، ومع من سنستأجر «ذهبية»[(6)] تشق عباب نهر النيل دون الاستعانة بشركة كوك Cook‘s ؟ فهل لو كان هناك مكان خال (وربما سافرنا وحدنا)-تنظر في فكرة أن تكون أنت ضيفا علينا في هذه الرحلة على نهر النيل؟ والأفضل أن نكون نحن الاثنان فقط [هي وابنها] وأنت، وربما أيضا بيا فلمارانا Pia Valmarana. لكن الأمر، كما قلت لك، لا يزال كله غامضا. وسيكون الموعد حوالي نهاية شهر ديسمبر، على أن تستغرق الرحلة كلها شهرين.

«أجبني فورا. وأرجوك فورا. وأرجوك ألا تخبر أحدا بهذا الأمر. فكما قلت لك، أنا لا أعلم هل أخبر ألكسس أحدا بهذا الأمر... إننا نريد «ذهبية» لأربعة أشخاص أو ستة. وأرجو أن تكتب إلي بما ينبغي أن أقرأه عن مصر وربما كان هذا كله مجرد سراب، كما هو الشأن في كثير من شؤون حياتي».

ويرد عليها رلكه برسالة تاريخها 1913/10/31 معتذرا عن عدم إمكانه مرافقتها في هذه الرحلة في مصر. ويسوق لذلك أسبابا ثلاثة: الأول هو أنه متعب أشد التعب، ولا يأنس في نفسه القدرة على القيام بأية رحلة أو مغامرة. والثاني: أنه على الرغم من قلة موارده بحيث كان سيرحب بهذه الضيافة، فإن لديه مشروعات لابد له أن ينجزها خلال هذا الشتاء. والثالث: أن هذا الشتاء هو عنده بمثابة مفترق طرق، ولا يريد أن يكون بعيدا لهذا السبب؟

ما مفترق الطرق هذا؟ إن رلكه يريد دراسة الآثار المصرية واللغة العربية. وفي شهر نوفمبر (1913) ستبدأ في باريس في «مدرسة الدراسات العليا»

الملحقة بالسوربون، وكذلك في «الكوليج دي فرانس»-سلسلة من المحاضرات التي تتعلق بمصر وبالدراسات العربية. ويقول: «لقد فكرت في تسجيل نفسي لمحاضرات في علم المصريات، وفي اللغة العربية وما شابه ذلك ابتغاء أن أبذله ما ينبغي من الاهتمام والجد لمتابعة هذه الدراسات، التي ستتيح لي أن أتعرف إلى الكتب والأفكار التي ستجعلني أتقدم في هذا الطريق، وتزيد من تشوقي للشؤون المصرية واهتمامي بها، وحينئذ سيكون ذا معنى مقبول-وإن كان متواضعا-أن أشاركك في مشروعاتك هذه».

وفيما يتصل بالكتب التي طلبت منه أن يدلها عليها للاستعداد للقيام برحلة إلى مصر-أشار عليها بالكتب التالية:

1- ألكساندر موريه Moret (1868-1938): «ملوك مصر وآلهتها» (1914) ويقع في جزأين.

2- «صور ونصوص عن الشرق القديم» صلوات أمينوفيس (الرابع) - أخناتون-للشمس، الحوار بين متعب من الحياة وبين نفسه، الأمثال الرائعة المنقولة عن الدولة القديمة.

3- لكن خير إعداد هو كتاب برستد Breasted «تاريخ مصر». وأصله بالإنجليزية، لكن له ترجمة ألمانية مقبولة، قام بها الدكتور هرمن رانكه Ranke.

لكن، فيم الإعداد لهذه السفرة إلى مصر، مادامت لن تتم؟! لقد ظلت مشروعا يداعب ذهن الأميرة ماريه تاكسس، ولم تتحقق.

5 الحبيبة المجهولة

في يناير سنة 1914 تلقى رلكه-وهو في باريس- رسالة من موسيقية تدعى ماجدا هتتجبرج Magda Hattingberg، كانت قد قرأت «قصص الإله الطيب» تأليف رلكه، فأعجبت بها أيّما إعجاب. فأنشأت تكتب له رسالة، على عنوان الناشر، تعبر فيها عن بالغ تقديرها للمؤلف، فتقول:

«صديقي العزيز!

إن كتابك: «قصص الإله الطيب» مُهدى إلى إلن كيي Ellen Key وفي هذا الإهداء الرائع تقول إن هذا الكتاب ينتسب إليها لأنه لا يوجد إنسان يمكنه أن يحب هذا الكتاب أكثر منها. وأنا لم أرغب أبدا أن أكون شخصا آخر غير نفسي. بيد أني في هذه المرة أود لو كنت إلن كي، حتى يكون لي الحق في هذا الإهداء، لأنني أعتقد حقا أنني أحب «قصص الإله الطيب نفسه أكثر من أي إنسان آخر في العالم».

ولما كان هذا الكتاب مليئا بالموسيقى، فقد أرادت أن تعبر عن سرورها وافتتانها بالموسيقى، لأن الموسيقى هي عنصر حياتها، ولأنها تتجاوز كل الكلمات.

وبعد ذلك بأسبوع، وصلها رد من رلكه (بتاريخ 26 يناير 1914) يقول فيه إن رسالتها أحيت في نفسه الحنين إلى الموسيقى. يقول: «إني أعيش الآن

محروما من الموسيقى وفي تعاسة باطنة عميقة. لكن موسيقاك هي أمامي مثل فصل مقبل، فإن لم تأت للقائها هنا أو هناك، فمن الممكن أن أعترض طريقها، مثلما يذهب المرء إلى صقلية ليجد الربيع الذي تأخر مجيئه في الشمال على نحو يدعو إلى اليأس».

وفي الغداة يعود فيكتب إليها، وكان اليوم هو يوم أحد، فيقول: «اليوم يوم الأحد، وبودي أن أقدس هذا اليوم وأن أكتب إليك أنت، يا من تسعدينى بمستقبل رائع بين يديك، مستقبل له القدرة على أن يجلب علي عواصف وأنواء وألوانا من الصفاء، هي أنقى هزات للوجود، وفقا لهواه. يا صديقتي، أنا لا أسأل متى سيحدث ذلك، لكني أعلم أنه سيكون. إني لم أضع أبدا أسئلة، حتى حين كنت صبيا ضائعا في المدرسة العسكرية حيث لا يمكن الحياة أن تنفذ أبدا، كلا ولا أية نسمة للحياة، ومع ذلك فقد حدث كل شيء. نعم، كثير من الأشياء كان هناك، وكل مقاسات الحياة في النهاية من فيض ثرائها. أما الموسيقى فإني أكاد أن أخشاها، إذا لم تنتشر في كاتدرائية، متصاعدة مباشرة نحو الله، دون أن تتوقف بالقرب مني. ولقد علمت أنه في مصر القديمة. وأنا أتفهم هذا-كانت الموسيقى ممنوعة: فلم يكن يسمح بعزفها إلا في مواجهة الله ومن أجله هو، كما لو كان هو وحده الذي يستطيع احتمال إفراطها وإغراء عذوبتها. وكما لو كانت قاتلة لكل كائن منحط المرتبة. أليس هذا صحيحا يا صديقتي؟ أو لعل الموسيقى أن تكون بعثا للموتى؟ هل يموت المرء على هامشها، ويبعث من جديد في داخلها وهو يشع نورا؟ لكن هل قلبي من القوة بحيث يموت فيها، كيما يبعث من جديد بكامله؟.. حين أتذكر القوة الأولية الصادرة عن أقل شذرة من الموسيقى القديمة-مثل تلك التي سمعتها أحيانا في إيطاليا وإسبانيا، أو في جنوب روسيا-فإن بيتهوفن يبدو لي مثل رب الجيوش الذي له سلطان على القوى، والذي يفتح مهاوي الخطر ابتغاء أن يلقي فوقها بجسور منقذة وشعشعانية».

ويتدفق قلب رلكه بفيوض من الحماسة فيقول: «بودي أن أكتب إليك في جملة واحدة كل الرسائل الممكن كتابتها خلال سنوات. أنت تعلمين أنه على شاطئ البحر في بعض الأصبحة تكون الفرحة القوية كل الأمواج تميل إلى الانطلاق دفعة واحدة. ليس بيننا غير السرور، السرور الواضح. والقرى القاصية تلوح، والنواقيس تدق خلال الهواء السهل التحريك. أي صديقتي،

أيتها السيدة، يا سروري الواضح، يا نفسي الظافرة! إن الصداقة قربت إلى قلبك -الواحد بعد الآخر-الكتب التي كتبتها منذ زمان بعيد. ماذا كنت آنذاك؟ ومن أنا الآن؟ وماذا كان سيحدث إذا كنت-بدلا من هذا الكتاب - قرأت مؤلفا نثرا في مجلدين فيه اعتقدت أنني استنفدت احتياطيي من الآلام القديمة، بفضل العمل، دون أن أدرك أنني عالجت فيه آلامي الحقيقية في أوقات لا يبلغها الوصف. وما ذلك لأنني تركت إيماني بما هو عظيم، أو أنني صرت خجولا. لقد تابعت طريقي حقا، لكن عندي شعورا بأنني دخلت مباشرة في جبل، كما لو كنت تنفست حجارة، بنوع من سلسلة من المعجزات الخارجة على الطبيعة، لا توجد إلا في الصخر. بيد أني لا أحب «المعجزات»، بل على العكس: أنا مولع بالطبيعة، ولهذا نظرت مرارا إلى نفسي كما لو كنت وحشا في جبل. وتمنيت لو جاء أحد فخلصني بوخزات، وأنقذني بضربات مقص، ومددني على جرح، في الرياح العاصفة ولا يقول شيئا، وسيكون ماثلا هناك».

وراح رلكه في رسائله المتواصلة إلى «ماجدا فون هتنجبرج» التي سيدعوها باسم Benvenuta- يحدثها عن سنوات صباه الجامعة بين السعادة والقلق: حدثها عن الأحداث الكبيرة والصغيرة في صباه، وعن بيت أبويه، وعن التقوى الغريبة التي كانت تمارسها أمه «التي كانت تصلي مثلما يشرب الآخرون القهوة».

ولم تفهم «ماجدا» السر في تدفق رلكه في الإفضاء إليها بمشاعره، وفي تصوره لها على أنها جاءت لتنقذه، إذ كتب إليها يقول:

«عزيزتي، صديقتي، أختي! هل أنت هناك؟ أمن الممكن أن يكون الله قد أرسلك إلي، في هذه السنوات من شقائي، كيما أتغلب عليه؟ هل في وسعي أن أحس بالعالم وأنا أستنشق الهواء، وأنا متيقن بأنه يحويك، أي صديقتي، مثلما أعلم أنه يحتوي الله الذي اكتشفته لا متناهيا في سعادة عملي، كما اكتشفته أنت في موسيقاك».

وتقول «ماجدا» في كتابها الذي عنوانه: «رلكه وبنفنوتا: رسائل وذكريات»[1] «بقدر ما لاح له العالم خفيفا ومحبوبا حين يكون ساجي النفس، كان يراه مملوءا بالأشباح حين كان يتجلى الأسيان في نفسه، ويهدد بالاستيلاء عليه». وتورد، للتدليل على ذلك، ما كتبه في رسالة إليها يقوله فيها:

«ما أكثر الأشباح في كل مكان، يا بنفنوتا! ذات يوم كنت غائبا عن البيت منذ الصباح، ولم أعد إلا متأخرا في المساء. وأمام بابي، على السلم، وجدت كمية من الأزهار الواردة من الريف، وأغصانا كبيرة مزهرة من أغصان شجر الخوخ والتفاح. وكان ذلك من أروع ما يمكن أن يجده الإنسان. لكني تعبت كثيرا- طوال ساعتين-في ترتيب الأزهار في بيتي. ولم يكن هناك إناء كبير بدرجة كافية كي أضع فيه الأغصان الثقيلة. وفي كل مرة كنت أظن أنني رتبتها، كان لا يزال هناك أزهار. ففرشتها، على ضوء المصباح، على الأرض، وعلى الكراسي الساندة، وخلال الكتب. وبحثت عن آنية أخرى. وبهرني النور في الظلمات العالية، فلم أعثر على الأزهار، واكتشفت أخرى غيرها! وبدت لي، أوّاه، ذابلة كأنها مغشي عليها. فركعت، ووضعت شمعتي على الأرض، وحاولت فكها. ولما رفعت بصري، ارتسم ظل الأغصان على الجدار أمامي، كأنه مخلب هائل، ولما أفلحت أخيرا في إنجاز هذه المهمة، قلبت-مصادفة-الآنية العالية التي تضم الأغصان، فتدفق سيل من الماء. أي بنفنوتا! هل يوجد جحيم؟-خلال هذه الساعات الليلية لاح لي كأنما عصرت في قلبي قطرة فقطرة أمرّ العبرات، وعلي أن أذيبها. بيد أني لم أكن أملك إلا حرارتي الباطنة، وا أسفاه! معذرة لك أن أكتب هذا كله، يا عزيزتي!»

وقد فزعت «ماجدا» من لهجة ومضمون هذه الرسالة، وظنت أن رلكه مريض. فنصحته باستشارة طبيب. فرد عليها رلكه قائلا: «لست أخشى من أعراض المرض، لأنني لا أريد التوقف عندها، وإنما أريد أن أحتملها وأن أتغلب عليها. وأعتقد أنه حين لا يخطئ المرء ولا يلاطفه في نفسه، فلا شيء أسرع زوالا من المرض. إن المرض نفسه يتمنى أن يكون غير واقعي وأن يكون في مكان آخر متى ما وجد أرضا راسخة. إنني لم أستطع أبدا التفاهم مع طبيب. إن نقطة انطلاق الأطباء هي عدم الثقة بما يقوله المريض. ولدي في الحال شعور بأن هذا (أي الطبيب) رجل أجنبي غريب يسد علي الطريق. عمّ يبحث بين طبيعتي ونفسي؟».

ثم يدعوها إلى الالتقاء به، فتلبي الدعوة، على أن يكون اللقاء في محطة مجهولة بين أناس غير مكترثين بعضهم لبعض. وتذكر له من بين هذه المحطات: محطة فيرنتسه، أو لوتسرن، أو جنيف. فيرد عليها رلكه بأنه لم يشاهد جنيف من قبل، وهو يؤثر أن يكون اللقاء في مكان لم

يشاهده من قبل، أي أنه يوافق على أن يكون اللقاء بينهما في محطة السكك الحديدية في جنيف.

بيد أنها تلقت في تلك الأثناء دعوة للاشتراك في تقديم حفلة موسيقية في برلين. فاضطرت إلى السفر إلى برلين، حيث أقامت ضيفة على آل دلبروك Delbruck في حي جرونفلد Grunewald في جنوب غربي برلين. وفيه عدة بحيرات، ويعد من أماكن النزهة. وكان منزل آل دلبروك يستروح السرور والسكون، ويسوده الجو الفني. وفي صالون السيدة دلبروك كان يوجد تمثال برونزي من عمل رودان، اسمه «القنطورة» Centauresse. وفي مكتب رب البيت كان يوجد تمثال نصفي من المرمر للإمبراطور فريدرش الثاني-ملك بروسيا-صنعه شادوف Schadow.

وحفل المنزل أيضا بأثاث ثمين، وبيبلوهات من كل نوع، وبيانو كبير ذي ذيل. وأحاط بالبيت بستان يطل على جادة سانت هوبرت.

وتحدثت ««ماجدا»» مع السيدة برتا دلبروك عن رلكه، وراحت تقرأ لها بضع صفحات من «صحائف مالتي لوردز برجه» . وكانت برتا لم تقرأه بعد. وفي غمرة هذا الحديث عن رلكه، قالت برتا: «يالها من خسارة ألا يكون رلكه معنا اليوم! مهما يكن حبه للوحدة، فلربما كان سيشعر بالأنس هاهنا». فكان لهذه العبارة أثرها في نفس ««ماجدا»»، وجعلتها تفكر في دعوة رلكه إلى اللقاء معها في برلين، هاهنا في منزل آل دلبروك. فكتبت إليه تدعوه إلى برلين، وتغريه بالمجيء إلى هذا البيت الجميل في حي جرونفلد الرائع. وبعد تمنع وتردد، أبرق إليها رلكه بالبرقية التالية «غدا». ووصل رلكه إلى برلين، ونزل في «فندق الغرب» (4 شارع ماربورج) فذهبت ««ماجدا»» للقائه في هذا الفندق. وصعدت إلى الطابق الثالث، وقرعت باب الغرفة رقم 24، ففتح رلكه الباب وصاح: «بنفنوتا! هاأنت ذي أخيرا، أخيرا!» وأمسك كلاهما بيد الآخر، وجلسا على أريكة من المخمل الأخضر، وتطلع كلاهما في الآخر وهو يضحك ويبكي معا. وتناسيا الوقت، وشعرت ««ماجدا»» بأن «العالم قد ولد اليوم». ثم خرجت من عنده، واتعدا صباح الغد للقاء. وكان رلكه بعد وصوله إلى برلين قد أعد لها رسالة، سلمها إياها لدى هذا اللقاء. وقد ختم هذه الرسالة بالقصيدة التالية:

«مثل الريح اخترقت الخمائل

ومن كل بيت كان ينبعث دخان
وبينما كان الآخرون يستمتعون بما اعتادوه
بقيت أنا شبيها بعادة غريبة
يداي دخلتا دخولا رهيبا
في مصير الآخرين المعلق
الكل، الكل تنامى بين فيض أهرق
أما أنا فلم أستطع إلا أن أهرق

***

أرأيت! حتى من أجل التطلع في النجوم
لابد من سند أرضي
لأن الثقة لا تتولد إلا في الثقة
كل إحسان هو فعل بمثابة مقابل
أواه! لم يتطلب مني الليل شيئا
لكن حين توجهت نحو النجوم
الجريح نحو السليم
أين كنت أنا؟ هل كنت هاهنا؟

***

في هذه الرحلة المزدوجة
هل جاءت حرارة قلبك للقائي؟
طوال ساعات وبحنان
سأضع يدي في يديك
أواه! منذ متى لم تسترح يداي؟
هل تتصورين أنه منذ سنوات
أنا أسير، غريبا بين غرباء،
وهاأنت ذي أخيرا تستقبلينني في البيت!»

***

ويتردد رلكه على منزل آل دلبروك، فيلتقي هناك بـ «ماجدا»، وبالسيدة دلبروك، وبالابن الأكبر لفروتشيو بوزوني Busoni. وقد أكد هذا الابن لرلكه أن أباه يسره أن يلتقي برلكه. وقد وصف بوزوني رلكه بأنه موسيقار الألفاظ.

وبوزوني (ولد في Empoli بالقرب من فيرنتسه في أول أبريل سنة 1866، وتوفي في برلين في 27 يوليو 1924): مؤلف موسيقي وعازف بيانو إيطالي-ألماني، لأنه وإن ولد ونشأ في إيطاليا كانت أسرته قد استقرت في جراتس GraZ (في النمسا) سنة 1876 وهو في العاشرة من عمره، وتعلم في جراتس على يد فلهلم ماير، الذي كان مؤلفا موسيقيا بارزا اشتهر باسم مستعار هو A. Remy.

ولما بلغ بوزوني الثانية عشرة ألف موسيقى لنشيد «العذراء الحزينة» Stabat Mater Dolurosa، كما وضع موسيقى لنشيد «السلام عليك يا مريم». وفي سن الخامسة عشرة اختير عضوا في أكاديمية بولونيا (إيطاليا) للموسيقى. وألف موسيقى لقصيدة ليوبردي: «سبت القرية» في سنة 1882.

وانتقل بعد ذلك إلى فيينا، فلقي أول نجاح كبير في العزف على البيانو، وأصبح صديقا لكارل جولدمارك. وعن أوبرا «مولين» Morlin لهذا الأخير ألف قطعة للبيانو. كذلك تعرف إلى برامس Brahms (1833-1897)، وأهدى إليه «دراسات» (المؤلف رقم 16 و17 من مجموعة مؤلفاته).

وانتقل من فيينا إلى ليبتسج سنة 1886 بناء على وصية من برامز. وهناك التقى بتشايكوفسكي، وجريج، ومالر. وسافر إلى هلسنكي وتعرف إلى سيبليوس Sibelius وسافر إلى موسكو في 1889 حيث تزوج جردا ميبوستراند، ابنة نحات سويدي. ثم انتقل إلى برلين في سنة 1894، وبقي فيها حتى آخر حياته، وفيها توفي في 27 يوليو 1924.

ومؤلفاته الموسيقية عديدة جدا. ومن أبرزها أوبرا «دكتور فاوست»، وهي أوبرا من ثمانية مناظر. وقد اعتمد فيها على مسرحية «فاوست»، تأليف مارلو، و «فاوست» تأليف جيته. وأمضى في تأليفها المدة من سنة 1916 حتى سنة 1924. وعرضت لأول مرة في درسدن في 21 مايو 1925، أي بعد وفاته بأحد عشر شهرا. وله أبحاث في فن الموسيقى، نذكر منها: «مخطط جماليات فن الموسيقى» (1907)، «في وحدة الموسيقى» (برلين 1922)

ويقول رلكه في حديثه مع ««ماجدا»» إنه قرأ كتاب «مخطط جماليات فن الموسيقى» تأليف بوزوني «وقد وجدته كتابا رائعا ووجدت متقنة الطريقة التي بها عبر المؤلف باللغة الألمانية ويزداد الأمر إدهاشا حين يعلم المرء أن المؤلف لاتيني» -أي إيطالي. وقد أضافت ««ماجدا»» قائلة «إن أحدا لا يقدر

على عزف موسيقى باخ وبيتهوفن أكثر ألمانية وأروع من بوزوني، ربما باستثناء كاسالس Casals الذي كانت لي سعادة مصاحبته مرارا. وهو أيضا لاتيني»[2] لأن بابلو كاسالس (29 ديسمبر 1876-22 أكتوبر 1973) إسباني قطالوني.

وأقيمت في قاعة «الفلها رمونكا» في برلين حفلة موسيقية أحياها بوزوني، وحضرها رلكه بصحبة ««ماجدا»» وأثناء فاصلة موسيقية لم يكن فيها مصاحبة بيانو، تلفت بوزوني نحو «ماجدا» وحياها بعينيه، وتطلع في رلكه، ولم يكن قد رآه من قبل. وتقول «ماجدا» عن انطباع رلكه: «وجد رلكه أن بوزوني أسمى مما توقع»، (الكتاب نفسه ص 64).

وعلى أثر ذلك تعرف رلكه إلى بوزوني. ودعاه هذا إلى تناول الغداء في يوم الأحد، في منزله الواقع في ميدان فكتوريا رقم 11. وتقارن ««ماجدا»» بين الرجلين في هذا اللقاء فتقول: «بوزوني مملوء بنار مشبوبة، وروح؟ ويؤكد حيويته. وهو رجل يحب الضحك، ساذج، يؤمن بالخرافات. أما رلكه فإنه حيي، متحفظ مملوء بالحكمة الجادة القلقة، متأمل ساكن الجأش، ذو مزاج لا يتألق إلا في لحظات متفرقة. بوزوني يشيح عن كل ما هو ذابل ماض، وفي باطنه شباب، ويحيا مع الشباب. أما رلكه فيثير في النفس فرار كل الأشياء، ويصف البائسين، والمهانين، ويعرف آلام كل المخلوقات وأيضا يعلم سعادة الخالق. لكن هذين الرجلين المتناقضين يجمعهما المعرفة، والاحترام المتبادل لرسالة كليهما، وتفهم كل ما هو كائن. وقد تبين ذلك منذ اللحظة التي تصافحا فيها بمودة، وصارا صديقين بالمعنى الأسمى لكلمة: صداقة» (الكتاب نفسه، ص70).

ويجري الحديث حول «الجماليات الجديدة لفن الموسيقى» تأليف بوزوني. وقد اهتم رلكه بإمكانات إنشاء نظام موسيقي يقوم على أساس أرباع النغمات، واستطال الحديث حول النظريات القديمة، والجديدة، ومشروعات أوبرات كان بوزوني بسبيل التفكير فيها، وحول مدونة أوبرا «توراندو» Turandot. ولما قال بوزوني إنه معجب بقصيدة رلكه التي عنوانها Piccola Marina (وهي مطبوعة ضمن مجموعة «قصائد جديدة» أخذ رلكه في تلاوتها من الذاكرة بحرارة باطنة مشبوبة. «ولن أنسى-هكذا تقول «ماجدا»-وجهه الساكن المائل، ونبرة صوته التي وهبت القصيدة حياة جديدة، هذه القصيدة التي كانت موسيقى وصورة معا» (الكتاب نفسه، ص 71).

كلاهما في الطريق إلى باريس

ويغادران معا برلين: رلكه و«ماجدا»، ووجهتهما الأخيرة باريس. لقد نزلا أولا في منشن. فأقام رلكه في فندق مارينباد، أما «ماجدا» فأقامت عند أختها ماريه في حي نيمتفنبرج. ولم يلتقيا أثناء إقامتهما في منشن إلا مرتين. وغادرا منشن وتوجها إلى إنسبروك (في النمسا)، فأقاما بها بضعة أيام، بعدها دخلا سويسرا، ومرا ببحيرة زيورخ ومدينة فنترتور. ونزلا في بازل، وزارا متحف المدينة. وما لبثا أن غادراها متوجهين مباشرة إلى باريس، فوصلاها في 26 مارس 1914. وكانت إقامتهما في منشن من 10 إلى 20 مارس.

وفي باريس نزلت «ماجدا» في فندق يقع على رصيف فولتير المواجه لمتحف اللوفر على الضفة الأخرى لنهر السين. أما رلكه فقد عاد إلى مرسمه الذي كان قد استأجره في العام السابق (1913) والواقع في رقم 17 شارع كمباني برمبير (الممتد من بوليفار رسباي إلى بوليفار مونبرناس).

وتصف «ماجدا» في «يومياتها» أول انطباع لها عن باريس فتقول:

«كانت برلين ماضيا هادئا سعيدا، أما باريس فهي مستقبل قلق غير مأمون. ولأيا أستشعر ماذا ستكون هذه المدينة بالنسبة إلي. إني لا أعلم شيئا عن طابعها الحقيقي. بيد أني أحزر أن المرء يضيع فيها، وأنه مسلم إليها، وأن فيها مصائر مجهولة، وأنها تشتمل على كل شيء: السعادة واليأس، الألم والنشوة»(الكتاب نفسه، ص 92). وفي الأيام التالية تجولا معا في أنحاء باريس، وزارا فرساي.

وأحيا بوزوني حفلة موسيقية في باريس، حضرها رلكه و«ماجدا» كما حضرها الشاعر الإيطالي جبرييلي دننتسيو (1863-1938). وبعد انتهاء الحفلة قدم بوزوني دننتسيو إلى «ماجدا» فتعانقا. وفي اليوم التالي بعث دننتسيو بغلام ليخبرها أنه سيكون سعيدا بلقائها يوم الخميس في فندق ميريس Meurice (في شارع ريفولي أمام حدائق التويلري) فلبت الدعوة، وكانت لتناول الغداء. وتطيل «ماجدا» في وصف ما شاهدته إبان هذه الدعوة.

وتستمر إقامة رلكه و«ماجدا» في باريس من 26 مارس الى21 أبريل سنة 1914. وفي رسالة إلى أختها ماريه، تزعم «ماجدا» أن رلكه سألها هل تقبل أن تبقى معه مدى الحياة. لكنه لم ينطق بكلمة «الزواج»، لأنه على الأقل كان لا يزال متزوجا من كلارا، وإن كانا منفصلين بالفعل.

كلاهما في دوينو

ويكتب رلكه إلى الأميرة ماريه (بتاريخ 12 مارس 1914) يلتمس منها أن تتفضل فتقبل أن يحضر رلكه معه في زيارته القادمة إلى قصر دوينو «إنسانا عزيزا، وإنه من المهم لحياتي أن تتعرفي إليه. إنه ليعز على أن هذا لم يحدث خلال كل هذه الأسابيع إنها صديقتي السيدة فون هتنجبرج Hattingberg. وأنا أعلم أنك ستستلطفينها، وأعتقد أنني بوساطتها سأستطيع أن أتذوق الموسيقى كما حدث لي بالنسبة إلى نحت رودان Rodin. أي صديقتي العزيزة! إني ولا أعرف ماذا أقول الآن. كل ما هنالك أنني أتمنى أن تعرفي هذه السيدة، وأن أقرأ «الإيلجيات» عندك بحضورها، وأن أريها قصر دوينو، بوصفه ذلك المكان الذي صار ذروة أعوامي الأخيرة. فهل يمكن ذلك في نهاية هذا الشهر أو في بداية شهر أبريل؟ والأجمل هو أن ننعم طوال يومين بالصحبة وحدنا نحن الثلاثة، مع عزف الموسيقى وتمضية ساعات شرب الشاي في بهوك، وساعات المساء في الصالون الأحمر. لقد تحدثت عنك كثيرا مع السيدة فون هتنجبرج، وهي لا تكاد تفكر إلا في أن تراك في أقرب وقت. فهل يمكن تحقيق ذلك؟»[3]

وتوافق الأميرة ماريه على التماس رلكه هذا، وترحب بمجيء السيدة فون هتنجبرج إلى دوينو. ولهذا ستأمر بإصلاح البيانو الخاص، وكذلك الكلافسان (راجع رسالتها بتاريخ 31 مارس 1914).

ويصل رلكه بصحبة «ماجدا» إلى قصر دوينو في 20 أبريل 1914 ويمكثان فيه حتى 4 مايو. وتصف «ماجدا» قصر دوينو وصفا مفصلا (من 146-155) وكذلك عزفها على البيانو للسوناتة رقم 109 لبيتهوفن ومقطوعات موسيقية أخرى لبيتهوفن وموتسارت، وشومان، ودفوراك (الخماسية). أما رلكه فقد قرأ فقرات من «الإيلجيات».

وقد أحست «ماجدا»، وهي في دوينو، أن بعض الغيوم أخذت تتجمع في سماء علاقتها برلكه، كما أحست بذلك أيضا الأميرة ماريه.

وكان على الأميرة أن تسافر إلى فينيسيا لزيارة بعض الصديقات والأصدقاء. وستقيم في القصر القديم المطل على قناة سان فيو San Vio، وكانت تملك فيه بعض الغرف في الطابق الأرضي. فجرى الاتفاق بينها وبين رلكه وصاحبته «ماجدا» على قضاء أسبوع في فينيسيا.

«لكن بدأت آنذاك-فيما تقول «ماجدا»-فترة من التردد القاسي: في الصباح قرر رلكه السفر، وفي المساء عدل عن هذا القرار. وأراد حينا أن يأتي معنا، وحينا آخر تساءل: هل سأسافر معه. ولا تمر ساعة حتى يتخذ قرارا، مايلبث بعده أن ينقضه. وأخيرا قررت الأميرة أن تسافر معي، وأن يلحق بنا رلكه حينما يستقر قراره». («رلكه وبنفتوتا»، ص 180).

وسافرت الأميرة وبصحبتها «ماجدا». أما رلكه فبقي في دوينو لكنه ما لبث أن لحق بهما في اليوم التالي!. وراح رلكه و«ماجدا» يذرعان أنحاء مدينة فينيسيا، ويشرح هو لها معالمها الفنية. وكان في كل مساء يرسل إليها باقة من الورد.

وذات مرة قال لها رلكه إنه يفكر في السفر إلى مدينة أسيزي Assisi (بلدة القديس فرنشسكو، في وسط إيطاليا) فأجابته بأنها تتمنى له سفرة سعيدة وقضاء أيام حافلة بالعمل والهدوء. فقال لها: «وأنت؟»

فقالت: سأسافر إلى أختي ماريه.

وبعثت إليها الأميرة ماريه تطلب منها أن تأتي إليها لتحدثها وحدها. وذهبت إليها «ماجدا». وهناك أخبرتها الأميرة أنها-أي «ماجدا»-لا تسلك الطريق الصحيح، وأن عليها أن تغير مجرى حياتها، لأن الحياة التي تحياها «هي مجرد هروب، وإطاعة للضرورات، وسلسلة من المتاعب مع وكلاء الفنانين». ثم أشارت -بلباقة -إلى أن رلكه ليس هو الرجل الذي يصلح لها، لأنه فريسة دائمة للآلام.

«إن لك عليه سلطانا كبيرا. وربما لا تعرفين إلى أي مدى هو يحبك. لكن لشيطانه أيضا سلطانا كبيرا عليه. وهو يتردد دائما بينك وبين مهمته. ويبدو لي أحيانا مرهقا خائب الآمال، لأن لك شخصيتك الخاصة بك والمملوءة بالحيوية. وما أنت بالكائن المطواع المعدوم الإرادة الذي هو في حاجة إليه. إنه لا يرى إلا بنصف وضوح. أحيانا يعبر عما يشعر به، وأحيانا أخرى يتشبث بما يضيع قدرتك وحيويتك. هكذا جبل هو: عنده «نعم» و«لا» في الوقت نفسه ويلوح لي أن من المستحيل عليكما أن تعيشا معا مدة طويلة، إذ سينجم عن ذلك صراع باطن مستمر، فيه سيكون عليك أن تضحي بكل صور، ابتغاء حياة من الآلام والعزوف.

- وإذا أنا فعلت ذلك مع ذلك؟ هكذا صحتُ يائسة!

- كلا، هكذا قالت الأميرة. لن تفعلي ذلك، ليس هذا من حقك، لأنك ستحطمين حياتك أنت، دون أن تكوني له ذات فائدة. إن واجبه هو أن يكون متوحدا وتضحيته هي الألم الذي يسمو به نحو مهام خلاقة، عظيمة، جديدة. أما أنت، فإن رسالتك هي النور أتفهمينني؟

وتطلعت في وجهي وكلها حب ورحمة:

- إذا شئت أن تري شاعرنا «السرافي» فيما بعد، فسيكون كل شيء واضحا وأكثر هدوءا وجمالا مما هو اليوم.

فقبّلتُ يدها، وقبلتني هي. وقالت لي: وداعا يا ابنتي. واحتفظي بذكرى عزيزة لقصرنا في دوينو ولجمال هذه الأسابيع» («رلكه وبنفنوتا» ص 205).

والتقى بها رلكه في اليوم التالي، وأفضى إليها بدخيلة نفسه قائلا:

«إن طبيعتي الخائرة المريضة تجلت لي على نحو أظهر على ضوء وجودك، هذا الضوء الحار القوي. وهذه الحياة لابد لها الآن أن تواصل مسيرتها كما كانت قبل مجيئك، وقد أثرت فقط من أمر التجارب» (الكتاب نفسه ص 209).

وعن آلامها وعزوفها وعن الوداع النهائي. فقال لها رلكه: «ألم أكن في أعمق عمائق نفسك وقلبك مثل الطفل في حضن أمه؟! أي لحظة خالدة أبدية؟ إن الشعور بذلك لا يمكن انتزاعه منا، ولن يستطيع أن يجعلنا نتعذب أكثر في حياتنا».[4] وفي الغداة ودعها رلكه الوداع الأخير. «وتصافحنا مرة أخرى وللمرة الأولى والأخيرة تبادلنا قبلة بتقوى عميقة ساكنة، مثلما يحدث في الصلاة الصامتة، وكانت التكريس النهائي لحياتنا المشتركة. ثم نزلت على السلم دون أن أتلفت ورائي» (الكتاب نفسه، ص 211).

وودعها رلكه في محطة القطار. «وعلى سبيل التوديع، أودعت كل عواطفي وحبي الأعمق في نظرتي وفي قلبي مع امتناني الحار الصامت» (الموضع نفسه).

وهكذا انتهت هذه التجربة الغرامية العذرية بين «ماجدا» فون هتنجبرج (بنفنوتا) ورلكه. وقد استمرت من نهاية فبراير إلى 10 مايو 1914، أي شهرين و11 يوما.

سافرت «ماجدا» إلى بولتسانو Bolzano (الآن في شمالي إيطاليا، وكانت آنذاك في التيرول النمساوي التابع للنمسا) لزيارة أختها ماريه. أما هو فقد سافر في يوم 11 مايو إلى أسيزي Assisi القريبة من بيروجيا، وبلدة القديس فرنشسكو، مؤسس الطريقة الرهبانية الفرنشسكانية. لكن قبل

أن نتحدث عن رلكه في أسيزي، يخلق بنا أن نتم الحديث عن العلاقة بين رلكه و«ماجدا» بعد انتهاء تجربة غرامهما في فينيسيا.

إثر مصرع أرشيدوق (= ولي عهد) النمسا في 28 يونيو 1914، أعلنت النمسا الحرب على الصرب في 28 يوليو. وأعلنت روسيا التعبئة العامة ابتداء من 29 يوليو. فأدى ذلك بألمانيا-حليفة النمسا-أن تعلن الحرب في أول أغسطس. وفي اليوم نفسه أعلنت فرنسا التعبئة العامة، فأعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا في 3 أغسطس. فقامت بريطانيا فأعلنت الحرب على ألمانيا في 4 أغسطس. وأعلنت النمسا الحرب على روسيا في 5 أغسطس. وأعلنت فرنسا في 11 وإنجلترا في 13 أغسطس الحرب على النمسا. وهكذا قامت الحرب العالمية الأولى بين كتلتين: ألمانيا والنمسا والمجر وحلفاؤهم ضد التحالف الفرنسي الإنجليزي وحلفائهما.

وكان رلكه قد غادر باريس في 19 أغسطس، وسافر إلى جيتنجن ثم ليبتسج، ثم منشن التي وصلها في أول أغسطس. وبقي في منشن طوال مدة الحرب العالمية الأولى.

وراحت «ماجدا» تسأل عن حال رلكه بعد أن قامت الحرب، فوصلتها منه رسالة وهو في أرشنهاوزن Irschenhausen على نهر إيزر Isar بنواحي منشن-يخبرها فيها عن حاله. ثم سافرت إلى منشن فوصلتها في 24 أكتوبر، وكانت قد أعلنت عن وصولها. فجاءها رلكه وزارها في فندقها. وراحا يتبادلان الذكريات دون أن يجرؤا على التحدث عن المستقبل في هذا الجو الرهيب من المعارك.

وتصف «ماجدا» هذا اللقاء من جديد بعد الأفتراق في فينيسيا فتقول:

«تطلعت في وجهه، وفي عينيه اللتين كانتا تلتمعان وهما صافيتان وساجيتان. وتذكرت ما كنا نفكر فيه مرارا إبان أيام القلق في فينيسيا: لو قدر لنا أن نلتقي من جديد، فسيكون ذلك كما لو أن شخصين بعثا إلى الحياة والتقيا، بعد أن تغلبا على كل آلام حياة سابقة. كل شيء فيه بدا هادئا. وفي الأيام الجميلة التالية تفتحت فيما بيننا مودة أخوية خالية من الهموم، جعلتنا سعيدين، وساعدتنا على احتمال وطأة الأحداث الخارجية. ولم نشأ، ولم نستطع أن نتحدث عن المستقبل المحجوب وراء الأحداث، لكننا رحنا نتكلم عن ذكرياتنا المشتركة الجميلة، خلال نزهاتنا الطويلة التي

قمنا بها في نهاية الخريف هذه في الحديقة الإنجليزية (في منشن) وهي ترف بزينتها من العشب الذي كان لا يزال أخضر، وبأشجارها ذوات الأوراق المفوّفة.. وفي كثير من الأحيان، حوالي الظهر، كنا نجلس على مقعد في الشمس، ونتأمل جريان ماء النهيرات الصافي، ونستمتع بلعب الأطفال والكلاب» (الكتاب نفسه ص 224-225).

ودعاها رلكه ذات يوم بصحبته، إلى زيارة أسرة كانت تسكن في حي أشفابنج، هي أسرة بروكمن Bruckmann، وكان رلكه يتردد عليها. ومن ثم انعقدت الصداقة بين هذه الأسرة وبين «ماجدا». وكان هوجو بروكمن ناشرا كبيرا في منشن. وفي بيته وبيت زوجته-وهي أميرة من بيت كنتاكوزن Cantacuzeine -تلتقي نخبة من المفكرين والأدباء في منشن، يذكر منهم (فون تيلر، مدير المتحف الألماني، وفريدرش كلوزه Klose، وكورفوازييه -Cour voisier، والدكتور بودمر Bodmer، ونوربرت فون هلنجرات -Hel lingrat، ولدفج كلاجس Klages.

ثم افترقا بعد عدة أسابيع. وكان الوداع هذه المرة مع أمل اللقاء من جديد عن قريب، إذ تواعدا على اللقاء في برلين، حيث ستقيم «ماجدا» عدة حفلات في مختلف المستشفيات العسكرية ترفيها عن المحاربين.

وبعد بضعة أشهر التقيا في برلين. وكان رلكه في برلين-كما تذكر «ماجدا» (ص 232) هدفا لدعوات عديدة تلقاها من كبار رجال المال في برلين.

وفي هذه المرة زارا معا متحف برلين، وتوقفا طويلا أمام تمثال أمينوفيس الرابع (أخناتون)، وكان قد حدثها من قبل عن هذا التمثال (في رسالة له في فبراير 1914 ولم يكونا قد تعارفا بعد)، فقال: «إذا شاهدت في متحف برلين رأس أمينوفيس الرابع، في الفناء المركزي للمتحف المصري (ولدي الكثير من الأخبار عن هذا الملك) فستشعرين على هذا الوجه بما معنى أن يكون المرء في مواجهة العالم اللانهائي، وأنه يوازن على مساحة محدودة كهذه، بوساطة ترتيب القسمات، كل عالم الظواهر.. ألا يستطيع المرء أن ينصرف عن ليلة مرصعة بالنجوم، ابتغاء أن يجد في هذا الوجه ازدهار القانون نفسه والفطنة نفسها، والعمق نفسه-التي لا يمكن تصورها؟ بمثل هذه الأمور، تعلمت أن أرى، وحينما صارت-فيما بعد وأنا في مصر-تحت نظري بعدد كبير، في طبيعتها الحقيقية نفذت فيها بأمواج كانت من القوة بحيث كنت على وشك أن أبقى طوال الليل، مستلقيا عند قدم أبي الهول العظيم وكأنني مطرود من حياتي.

«تركتُ وقت العشاء يمر. وكان الأعراب يجلسون القرفصاء عن بعد، حول نارهم. وحالت الظلمة دون رؤيتي. وكنت قد انتظرت دخول الليل، بعيدا في الصحراء. ثم دخلت هناك ببطء، من وراء أبي الهول، وحسبت أنه وراء الهرم الأقرب، والذي أشعله مغيب الشمس بقوة، سيكون القمر بسبيل الشروق، لأن الليلة كانت ليلة بدر. وبالفعل، حينما درت حول أبي الهول، كان القمر عاليا في السماء، بحيث إن فيضا من الضوء انتشر مع هذا المنظر اللامتناهي، حتى إنني اضطررت أن أحمي نفسي من ضوئه بكفيّ، ابتغاء أن أعثر على طريقي بين أنقاض الحفائر وخنادقها.

وفي مواجهة الوجه الهائل (وجه أبي الهول) بحثت عن مكان، ولففت نفسي بمعطفي، وبقيت راقدا، مرتاعا، منفعلا على نحو لا يبلغه الوصف. ولست أدري هل كنت على وعي كامل بوجودي، إبان هذه الساعات الليلية التي انتزع من وجودي فيها كل قيمته وإلا، فما قيمة وجودي، لو قورن بهذا كله؟ والمستوى الذي انحط إليه، ألقى به في الظلام، وكل ما كان عالما ووجودا تجلى على مستوى أسمى فيه تواجه إله وصمت... هنا نهض شكل يتلاءم مع السماء، لم يكن لآلاف السنين تأثير فيه، غير خدش لا قيمة له. والأعجب هو أن هذا الوجه اتخذ عادات أعضاء النجوم. إن بعض ملامح ابتسامته قد تهدمت. لكن مشارق السموات ومغاربها وضعت عليه انعكاسات مشاعر تجاوزته. وكان لابد من مرور وقت طويل قبل أن تتكيف عيناي، وأن تدركا هذا الكائن، وأن تتحققا من هذا الفم، وهذا الخد وهذا الجبين-التي تغير عليها بتغير ضوء القمر والنجوم باستمرار...

وبينا أنا في هذا التأمل، صرت مرة أخرى-وفجأة وعلى نحو غير مفهوم-عالما بالسر. فأدركت (معنى) هذا الخد، وتلقيت من منحناه أكمل إدراك... انظري إذن: خلف بروز الخوذة، على رأس أبي الهول، كانت توجد بومة، وبطيران بطيء مسّت الوجه، هذا الوجه الرقيق المتجلي تجليا لا يبلغ مداه التعبير، في الصفاء العميق لليل: وهاهو ذا هذا الخد تمثل وكأن معجزة رسمته، في سمعي الذي أضاءته ساعات من الصمت الليلي».(5)

أما تمثال أمينوفيس الرابع في المتحف (القسم) المصري بمتحف برلين - فتصفه بنفنوتا «ماجدا» فتقول: «إن رأس الملك يقوم على قاعدة بسيطة، إن هذا التمثال النصفي نموذج للنحات، محفوظ حفظا تاما. وهو مصنوع من

الحجر الجيري، والوجه ذو جمال يفوق الوصف، بيد أن العينين-وهما مغلقتان ولا تصدر عنهما نظرة-تبدوان مع ذلك كأنهما تتأملان الزائر بتعبير ينم عن الحكمة، عميق وعن طيبة حالمة-طيبة تضيء كل هذا الوجه الطفولي. ومن هنا يفهم كيف أن هذا المؤسس لديانة جديدة قد خص الشمس بالعبادة، وآمن بالإشعاع القدير لهذا النجم العظيم، الحافظ للحياة» (الكتاب نفسه، ص 236).

وبعد أيام قليلة من زيارة المتحف المصري، أقامت «ماجدا» حفلة موسيقية في قاعة كلندفورت شرفنكا Klindworth-Scherwenka. ولما عادت في منتصف الليل، وجدت في بيتها نسخة مصبوبة من تمثال أمينوفيس الرابع، ومعها عود من الورد. وكان رلكه هو الذي أرسل إليها هذه الهدية.

وبعد ذلك بعام، التقيا من جديد في منشن في أكتوبر 1915. وفي حاشية على رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس بتاريخ 2 أكتوبر 1915 مرسلة من منشن-كتب رلكه يقول: «السيدة فون هتنجبرج موجودة هنا، ويلوح أنها على صداقة حميمة مع الأميرة تيتي Titi. لكن، يا إلهي، كم صارت غريبة ومليئة بالمشاغل وفي تقدم باهر! حين أتذكر...»، ولكنه لا يكمل العبارة.

وتقول «ماجدا» إنها حين رأته هذه المرة في منشن، لاحظت أنه «لم يعد أبدا متوحدا: بل كان معه دائما شخص، وحدثني مرارا عن امرأة رسامة، كان يراها مرارا، وكانت تلتمس منه المعونة. وظل يقول لي: إن هذا يسبب لي تعبا شديدا، ويحملني مسؤولية ثقيلة. لكن، ما العمل! ولم يتحدث أبدا عن عمله. وحين لا يصاحبه من يعطف هو عليهم، كان يشاهد في معارض الفن أو في متحف البيناكوتيك Pinacothek أمام لوحات الجريكو El Greco أو برويجل Breughel، وهو تائه في أفكار جادة».

وبعد ذلك كان رلكه يرسل إليها رسائل بين الحين والحين. ثم توقفت رسائله «وأخبرني أصدقاء مشتركون فيما بيننا أنه دعي للخدمة العسكرية، وأنه أغمي عليه أثناء مناورات متعبة. ولهذا صار الآن يخدم في الداخل» (الكتاب نفسه، ص 242).

وتقول «ماجدا» إنها رأته للمرة الأخيرة في فيينا. وكانت بصحبته امرأة شاحبة الوجه، مشوبة الخدين من آثار البودرة. «لمحني فجأة وأشعل الخوف المفاجئ عينيه الصافيتين في وجهه الشاحب، ونظر إلي -في خجل -بتعبير ينم عن الألم... وخفض رأسه. وفصل بيننا مارة عابرون... لكن بدا لي

فجأة أن جمالا كثيرا ما حملته في قلبي قد مات. لقد مر راينر (رلكه) بجانبي، دون أن يحييني» (الكتاب نفسه، ص 242).

وكانت هذه آخر مرة يرى فيها كلاهما الآخر. ومضت سنوات الحرب. وبعد انتهاء الحرب-وقد علمت أن رلكه في سويسرا-أسدت إلى رلكه خدمة، دون أن يعلم من الذي أسداها. ذلك أنها كانت لها أقارب في سويسرا. فكتبت إلى أحد أقاربها في سويسرا تقول له إن رلكه كان قد ترك في باريس-لما نشبت الحرب-كل ما كان يملكه. وعلمت أن أثاث شقته في باريس وكتبه ومخطوطاته التي تركها في 17 شارع كمباني برمبير Compagne Premiere-قد بيعت بالمزاد. وكان قريبها الذي في سويسرا صديقا لرومان رولان فأخبره بما حدث لشقة رلكه في باريس. فقام رومان رولان بإجراء ما استطاع إجراءه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أثاث رلكه وكتبه ومخطوطاته المتروكة في باريس.

وبعد وفاة رلكه بعدة أشهر، تلقت «ماجدا» الرسائل التي كتبها إليها رلكه، ومن بينها رسالة كتب رلكه على ظرفها: «آخر رسالة إلى بنفنوتا» وهي رسالة تفيض بالحزن، وبالتأثر العميق الذي أحدثه في قلبه حبه لبنفنوتا. ففي هذه الرسالة يقول:

«على ضوء وجودك الذي يرسل أشعته علي اتضحت كل الأسرار غير القابلة للشفاء، الأسرار القاسية لطبيعتي-اتضحت اتضاحا حاسما. كنت أنت هناك يا بنفنوتا، يا نجمتي، وأردت أن تلمعي فوق معركتي، ومن أجل انتصاري. لكنني لم أكن مثل يوشع: فلم أجرؤ، ولم أعتقد أنني قادر على الإمساك بالشمس. لكن على الرغم من كوني لم أفلح في ذلك، فإن الله اقتادني إلى الجبل وأظهرك لي» (الكتاب نفسه ص 249-250).

تقويم هذه التجربة

وقد اختلف الباحثون في تقويم غرام رلكه ب «ماجدا» فون هتتجبرج (بنفنوتا).

فقد شكك البعض منهم في صحة الأخبار التي أوردتها بنفنوتا «ماجدا» في كتابها: «رلكه وبنفنوتا» Rilke und Benvenuta وقالوا إنها في هذا الكتاب نسبت إلى نفسها من المفاخر والأفضال ما لا أساس له من الواقع. ولهذا عدوه غير صالح لأن يكون وثيقة تاريخية يؤخذ بما فيه لبيان حقيقة العلاقات بينها وبين رلكه. لكننا نرى أن تقدير هذا الكتاب على هذا النحو، تقدير ظالم، للأسباب التالية:

ا- أنها لم تنسب إلى نفسها في هذا الكتاب أمورا غير عادية، بل كل ما ذكرته بصدد علاقتها مع رلكه يتفق تماما مع أقل ما ينتظر أن تكون عليه العلاقة بينهما.

2- وهي لم تنسب إلى رلكه أية خيانة أو وعود أخلفها. ولم تشر إلى عرض رلكه الزواج بها إلا تلميحا غامضا جدا حين قالت في يومياتها: «سألني راينر (ريكه) هل أقبل أن أبقى معه طوال الحياة؟ وقد نطق بكلمة: «دائما»-وهي كلمة مشبوهة في نظره ويتجنبها في العادة-بحمية وثقة أشاعتا الاضطراب في نفسي. وأظن أن وجهي علاه الشحوب بشكل مخيف لأن دمي كله ارتد نحو قلبي. وأخذ يديّ وقبلهما بحركة من الاحترام المؤثر جعلت الدموع تطفر في عيني. ثم رجاني بعد ذلك ألا أنطق بكلمة، أو أن أجيب بأي جواب. وما كان ينبغي لي أن أعد بشيء، بل كان علي فقط أن أفعل ما قدر لي «من الأبد». لكن لابد لي أن أعلم أنه يسأل الله كل يوم أن يجعله قادرا على أن يحبني على النحو الذي يسهم في سعادتي. وإذا كان علي-مع ذلك- في هذه الأيام التي يعيشها والأيام القادمة، أن أشعر بأنه سيكون من المؤلم جدا لي أن أتحمل وأن أشارك في حياة مثل حياته، فقد طلب مني أن أنطوي في حياتي الخاصة دون وعود، ودون أن أفكر فيه، ببساطة وجسارة «لكن منذ بداية الزمان كلانا يسعى نحو الآخر-إني واثق من ذلك، وعندي رجاء مقدس فيه»-هكذا قال.. «أي عزيزتي ماريه[6] ! ربما لن تفهمي أبدا أبدا إلى أي حد اضطربت أفكاري. لقد سألت نفسي هل أحببته كما تحب امرأة رجلا، الرجل الوحيد الذي تريد هي أن تنتسب إليه طوال حياتها؟. وهل كنت أحبه إلى درجة أن أشتهي أن أكون أم أولاده؟. وعلي أن أجيب: كلا إنه في نظري صوت الله، والنفس الخالدة، وفرا أنجلكو[7] Fra Angelico، وكل ما هو خير، وسارّ ومقدس، على سطح الأرض. لكنه ليس إنسانا. إني أشعر بخوف، يتجاوز الوصف، من أن أرى الشعور العميق الذي أشعر به نحوه والذي يستبعد ماعداه-يتخذ شكلا إنسانيا، ومن أن أراه في الواقع اليومي الأرضي، الذي لا يستطيع هو البقاء فيه دون أن ينكر ذاته على نحو لا محدود. ثم إن هناك شيئا آخر أيضا: في موضع ما من العالم توجد له زوجة وبنت. فهل تتصورين أن من الممكن ببساطة الإطاحة بحقوق هذين الكائنين. والاستيلاء عليها لصالحي أنا؟. صحيح أنني أعلم أن هذه حقوق خارجية. ورلكه قد

تحرر-منذ زمان طويل-من كل خضوع. ومع ذلك يبدو لي أن هذه الحقوق تأمر من هم خارج هذه المشكلة بأن يحترموها، وإن كنت أعلم-بحكم تجربتي الذاتية المرة-جملة الآلام وألوان سوء الفهم التي تمثلها حياة زوجية. تقررت في وقت مبكر جدا» («رلكه وبنفنوتا» ص 124- ص 125).

وليس في هذا الذي كتبته «ماجدا» في «يومياتها»-المنقولة في كتابها هذا-ما يدل على كذب. أو ادعاء، بل هو طبيعي للغاية. فما الداعي إذن إلى التشكيك في أقوالها هذه؟!

3- وما أوردته من اختلاء الأميرة ماريه بها كي تدعوها إلى فض العلاقة بينها وبين رلكه ليس فيه ما يستغرب. وسواء أكانت الأميرة هي التي بادرت بإسداء هذه النصيحة لصالح رلكه وصالح «ماجدا» معا، أو كان رلكه نفسه هو الذي وسط الأميرة لتتولى هذه المهمة-لما أن شعر بأن العلاقة بينه وبين «ماجدا» أخذت تبهظ كاهله، فأصبح يود الخلاص منها، لأنه قلق متبرم، ينشد الوحدة، ويخشى من الارتباطات الإنسانية المقيدة لحريته-فإن الأمر واحد ومتوقع: فإن رلكه حريص على استقلاله الذاتي، وعلى حريته التامة، وعلى عدم الارتباط بأية رابطة إنسانية تقيد تصرفاته.

لهذا كله فإننا نعتقد أن كتاب «رلكه وبنفنوتا» الذي كتبته «ماجدا» (بنفنوتا) هو وثيقة صادقة في مجموعها، وينبغي الاعتماد عليه في بيان العلاقة بين كليهما. وليكفف هؤلاء «النقاد» المولعون بالإفراط في الأحكام السلبية- عن القدح في هذه الوثيقة الثمينة التي هي في الوقت نفسه عمل أدبي رائع.

ولقد صدق رلكه حين وصف تجربته هذه مع «ماجدا» فون هتنجبرج فقال: «إن ما انتهى في النهاية إلى شقائي تماما، قد بدأ برسائل عديدة جدا، رسائل خفيفة، جميلة، انطلقت متدفقة من قلبي... من هذه الرسائل انبثقت حيوية إرادية، وكأني اصطدمت بسورة كاملة لكياني... وبينما كنت أكتب يوما إثر يوم، أحسست بفيضها الهانئ وبالراحة المستسرّة التي بدت مستعدة للقبول في نفس إنسان يتلقاها على نحو طبيعي جدا... وتملكتني ثقة قوية، كما لو كان قد وجد الخلاص من التمزق الكسول في نوع من المقدور الذي لا مفر منه... إن ثلاثة أشهر (غير مفهومة) من الواقع وضعت عليها ما يشبه الزجاج القوي البارد» (من رسائل إلى لو سالوميه بتاريخ 8 - 9 يونيو 1914).

6 إبان الحرب العالمية الأولى

سافر رلكه إذن إلى مدينة أسيزي، وأقام بها من 9 إلى 23 مايو سنة 1914. ومن هناك عاد إلى باريس، مارا بمدينة ميلانو. ووصل إلى باريس في 26 مايو، وأقام فيها حتى 19 يوليو. ومن هناك سافر إلى جيتنجن حيث التقى بلو سالوميه. واندلعت الحرب في الأيام الأولى من شهر أغسطس 1914 ورلكه في ألمانيا. فاستمر في الإقامة بألمانيا والنمسا حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى في 11 نوفمبر 1918.

ويصف رلكه شعوره وانطباعاته عن مدينة أسيزي Assisi، بلد «الفقير، فرنشسكو أسيزي»[1] في رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 18مايو 1914) فيقول إنه لم يشعر بروح الفقر في هذه المدينة، التي تحولت إلى مورد وفير للمال يأتي به السائحون العديدون من مختلف أصقاع العالم. لقد تحول «الفقر» الذي دعا إليه «فقير أسيزي» إلى ثراء، فصار «فقرا مفرط الثراء». ولما زار الكنيسة السفلى حيث الرسوم الجدارية التي رسمها جوتو Giotto (1337-1266) ضاق ذرعا بملاحظات السائحين الإنجليز وهم يقولون: Lovely أو Charming دون أن يفقهوا شيئا من سحر هذا الكهف ورسومه.

وتجيبه الأميرة ماريه برسالة (تاريخها 27 مايو

1914) بعثت بها من قصر دوينو فتقول: «أعتقد أنه ينبغي عليك ألا تفكر كثيرا في «الفقر» و «الفقير» (فرنشسكو). بل دع الطبيعة الرائعة تؤثر فيك. وضع نفسك عند مغيب الشمس في الفناء الداخلي Chiostro لكنيسة أسيزي. وتأمَّل الظلام البنفسجي في وادي نهر التفره. واذهب إلى Castello dell abate-وهو مكان ساحر على رابية، يوجد فيه برج مربع قديم لكنيسة مهجورة، حيث لا يزال يوجد-إن لم أكن مخطئة-آثار رسوم جدارية، وبالقرب من ذلك فناء داخلي حالم، فيه سلسلتان من الأعمدة الرومانية الطراز».

وبعد أن أقام في أسيزي أسبوعين، لم يظفر منهما بأية تجربة مفيدة، وكانا فترة انتظار أولى من أن يكونا فترة تجربة روحية-كما قال هو في رسالة إلى الأميرة ماريه (بتاريخ 28 مايو 1914 من باريس) -توجه إلى باريس، فوصلها في 26 مايو، ونزل في مرسمه المعتاد (في رقم 67 شارع كمباني برميير).

ويذكر رلكه في رسالة إلى الأميرة ماريه (بتاريخ 13 يونيو) أنه قرأ مؤلفات برجسون Bergsun (1859- 1941) الفيلسوف الفرنسي الشهير. لكن أكثر القراءات تأثيرا في نفسه في تلك الأيام هي المقالة التي كتبها موريس ميترلنك (1862- 1949) الشاعر والمؤلف المسرحي البلجيكي عن خيول البرفلد، في إحدى المجلات!

ويغادر رلكه باريس في 19 يوليو متوجها إلى ألمانيا. فيسافر أولا إلى جيتتجن Gottingen حيث تقيم لو سالوميه مع زوجها أندرياس، الأستاذ في جامعة جيتتجن.

وفي 28 يوليو أعلنت النمسا الحرب على الصرب بسبب مقتل ولي عهد النمسا في سراييفو في صربيا التي كانت حليفة ومحمية لروسيا، فأدى ذلك إلى إعلان روسيا تعبئة جزئية على جبهتها الجنوبية. ولما كان رلكه من رعايا النمسا، فإنه كان عليه أن يتوقع استدعاءه للانخراط في الجيش.

ولما أعلنت النمسا الحرب على روسيا في 5 أغسطس، وكان رلكه في منشن، يقيم في فندق Marienbad. فكتب رسالة إلى الأميرة ماريه بتاريخ 6 أغسطس 1914 من منشن ليسألها أن تشير عليه فيما ينبغي عليه أن يفعل وقد قامت الحرب، ويبلغها أن مكانه هو عمل كتابي في الجيش.

وردت عليه الأميرة (بتاريخ 11 أغسطس) فأخبرته أن ابنها إسكندر الملقب بـ «باشا» موجود في بوسنيا، وأن ابنها الأكبر «إرش Erich» موجود

في غاليسيا. وكلاهما يقاتل في جيش النمسا ضد صربيا وروسيا منذ اليوم الأول، أي منذ يوم 28 يوليو، وقد رقي «إرش»،Erich بعد ثلاثة أشهر إلى رتبة قومندان كل سيارات الجيش الرابع النمساوي، أما إسكندر «باشا» فقد رقي في الفترة نفسها إلى رتبة ملازم أول وكان يحارب في الميدان الجنوبي، ويحمل معه دائما أحد كتب شوبنهور، وسفرا من أسفار بوذا.

ومن منشن سافر رلكه إلى برلين في 22 نوفمبر 1914، وبقي فيها حتى 6 يناير 1915. وفي تلك الفترة التقى بزوج الأميرة ماريه حين مر ببرلين.

ثم عاد إلى منشن من جديد. ونزلت في قرية في وادي نهر إيزر Isar (أحد فروع نهر الدانوب) وتقع هذه القرية على مسافة تقطع في ساعة من منشن. ويصف مقامه في هذا المنزل (في رسالة إلى الأميرة ماريه بتاريخ 24 فبراير 1915) فيقول: «إني هنا ألفُّ نفسي في أغطية وأجلس، كلما استطعت، في الشرفة مستضحيا لشمس الشتاء، دون أن يخطر ببالي أي خاطر سليم، ودون أن أشعر بأي إحساس. لست مريضا، ولكني متعب إلى درجة أنني أعيش وراء النوم، وفي المساء أحشد خاطري وأقرأ «مراسلات فلوبير Flaubert». وما يسترعي النظر هو رسائله في عامي 1870 و 1871. وتتفق حالي الآن مع حاله آنذاك. وقبل ذلك قرأت الكثير من كتابات اشترندبرج Strindberg: إنه مارد على ساقين من الطين، لكنه صلب الجذع جدا».

ويعود إلى الإقامة في مدينة منشن (برقم 2 في شارع فنكن Finken الطابق الرابع) وفي رسالة إلى الأميرة ماريه (بتاريخ 18 مارس 1915) يذكر أن رجلا يدعى ألفرد شولر Alfred Schuler قد ألقى ثلاث محاضرات تحدث فيها عن العالم الروحاني، وزعم فيها أن عالم الموتى هو العالم الحقيقي، وأن ملكوت الموتى هو الوجود الحق، وأن حياتنا الدنيا هي مجرد فترة من الحياة القصيرة، وهي بمثابة استثناء كحياة عالم الموتى. وأيد هذه المزاعم بقراءات هائلة، متحدثا بإيمان عميق. «وقد استمعت إلى المحاضرة الأخيرة فقط-هكذا يقول رلكه-من المحاضرات الثلاث، وأدركت الخلاصة العامة لآرائه. لكني شعرت نحو مجموع ما قاله هذا الشخص الغريب بشعور هائل. بيد أنني لا أستطيع أن أقدم إليك صورة دقيقة. وقد أمضيت مع هذا الرجل بضع ساعات، ولا أدري هل من الممكن أن أراه مرة أخرى. غير أنني أشعر إزاء كيانه-لأني لا أستطيع أن أسأله المزيد - أقول: إنني أشعر

بأنني مجذوب إليه ومنفصل عنه في آن واحد معا، وكأنني بإزاء المجهولين».

وفي الرسائل التالية المتبادلة بين رلكه والأميرة ماريه يكثر الحديث عن عمليات «السحر» و«تحضير الأرواح» و «الكتابة تحت إملاء اللاشعور» وما شابه ذلك من أمور سحرية وروحانية كانت الأميرة ماريه مولعة بها منذ سنوات، وكان رلكه يشاركها في الجلسات التي تعقد في قصرها في دوينو. ولا ندري هل كان ذلك عن إيمان منه بصحة هذه الأمور الروحانية، أو ممالأة للأميرة ماريه الشديدة الولوع بهذه الأمور.

وتزعم الأميرة ماريه في رسالة بتاريخ 8 أبريل 1915 من قصر دوينو أنه أقيمت جلسة سحر، فسمع صوتا قال فجأة:

«لماذا لا يغني؟

«سؤال: من الذي ينبغي عليه أن يغني؟

«جواب: الشاعر. اكتبي إليه وقولي إن عليه أن يغني، إن هذا واجبه. وتلك مهمته. عليه أن يفعل ذلك. إنه سيعاقب ذات يوم من جانبي-كلا! اكتبي إليه وقولي إنني أريد. وعليه ألا ينسى أنه من أجل هذا يحيا، وإلا فقد الجانب المكتسب. نعم! لقد نطقت. أنا من يكاد يرى كل الخيط».

وكان كسنر Kassner يشارك في هذه الجلسات، ويبدو أنه كان يؤمن بالسحر وتحضير الأرواح وما شاكل ذلك من الروحانيات.

وبعد ذلك بأسبوع - في 15 أبريل-تتحدث الأميرة عن جلسة تحضير أرواح-أو كما تسميها: «سحرياتنا» -أخرى.

ضرب قصر دوينو بالمدافع

وأعلنت إيطاليا الحرب على، النمسا في 24 مايو 1915، لكنها في الوقت نفسه تحاشت إعلان الحرب على ألمانيا. وكان هدفها الرئيسي هو تخليص الإيطاليين في تريستا وإقليم التزتينو من حكم النمسا. بيد أن جيش إيطاليا كان ضعيفا هزيلا، لهذا لم يكن له أثر ظاهر حين نشبت الحرب بينها وبين النمسا، وظلت الحدود النمساوية مع إيطاليا صامدة وفي قبضة النمسا. بيد أن إيطاليا لجأت إلى الأكاذيب، فأعلنت أنها ضربت بالمدافع ودمرت مونفالكوني وسجرادو ودوينو. وقرأ رلكه هذه المزاعم في الصحف، فكتب إلى الأميرة ماريه بتاريخ 10 يونيو-وكانت هي في فيينا-يسألها عن حقيقة هذه الأنباء. لكن الأميرة-وقد قرأت هذه الأنباء في الصحف-بادرت، قبل

أن تصلها رسالة رلكه-فكتبت إليه بتاريخ ١١ يونيو تقول: «أقول بضع كلمات عن الحالة التي ربما تكون قد قرأت فيها ما أعلنته إيطاليا من أن دوينو قد ضرب بالمدافع وتحول إلى رماد. الحمد لله! إنه ضرب حقا بالمدافع من البحر. لكنهم أخطأوا الأهداف. ولم تصبه إلا ست طلقات، وكان الضرر قليلا جدا». وكان ابنها اسكندر (الملقب بـ «باشا») موجودا في ذلك اليوم في دوينو، فبادر بإنقاذ «المحفوظات»، ونقلها إلى مكان أمين.

ووصلتها رسالة رلكه. فألحقت برسالتها رسالة ثانية بتاريخ 12 يونيو فيها حددت الأضرار بدقة، فقالت: «دوينو، ومونفالكوني، وسجرادو-كل هذه الأماكن الهادئة الأليفة قد صارت في غمرة القتال العنيف-ولهذا سأرحل عن دوينو، وسجرادو-تصور سجرادو، وبيتي السعيد قد دمر نصفه (بفعلنا نحن، لأنه موقع مهم جدا)-وماذا سيبقى منه؟..»

وبتاريخ 22 يوليو 1915 تقول الأميرة ماريه في رسالة إلى رلكه: «إن دوينو في خطر عظيم، وإن كان لم يصبه حتى الآن أضرار كبيرة والحمد لله» وفي رسالة تالية بتاريخ 17 أغسطس 1915 تقول: «أمس الأول انتابني الفزع من جديد، إذ سرت شائعات بأن دوينو قد «دُمّر»-لكن والحمد لله، يلوح أن هذه الشائعات ليست صحيحة».

ولكنها في رسالة بتاريخ 22 أغسطس تقول إن سجرادو دمرت تماما.

وفي رسالة بتاريخ 19 سبتمبر 1916 تقول إن «دوينو قد أصابه نصيبه (بالضرب بالمدافع) من جديد. ومن المحتمل جدا ألا يبقى منه شيء» وبتاريخ 21 أغسطس 1917 تقول إن «الموقع الأشد سخونة (في القتال) هو دوينو المسكين-فماذا عسى سيبقى منه؟!»

وتنتهي الحرب. ويصبح دوينو تابعا لإيطاليا. ويتخذ ألكسندر «باشا» الجنسية الإيطالية في سنة 1923 باسم «أمير دلاتوري وتاسي» Principe Della Torre e Tasse. ويموت في قصر دوينو في 11 مارس 1937، بعد أن أعاد بناءه، وكان برجه قد نجا من الدمار.

رلكه يستدعى للخدمة العسكرية

لما اندلعت الحرب العالمية الأولى في مستهل أغسطس سنة 1914، تحمس رلكه لقيام الحرب، وعلى حد تعبيره: «استولى عليه إله الحرب». فانطلق يمجدها في خمسة أناشيد، نظمها في أغسطس 1914.

لكن كلما استطالت الحرب، خفت حماسة رلكه، وقال: «الآن صارت الحرب منذ زمان طويل غير مرئية. لقد صارت روح جنية، ولم تعد إلها بل غضبة إلهية على الشعوب. ولم يعد ثم ما يمكن فعله غير أن تصمد النفس. والشقاء والشر لم يعودا تحت التصرف كما كانا من قبل، بل صارا أشد عينية ونشاطا وبروزا للعيان. ذلك أن الشقاء الذي تعيش فيه الإنسانية منذ البداية لا يمكن زيادته تحت أية ظروف» («رسائل رلكه، سنة 1950، ج 2 ص 14). ولقد رأى في هذه الحرب شقاء في مجرى حياته. ولهذا أجفل من التفكير في الإنتاج الأدبي.

وفي رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 2 أغسطس 1915) يعبر عن مشاعره إزاء الحرب ويتساءل: من يدري ماذا كانت عليه أمور الحياة قبل ذلك؟ وإني لأقول لنفسي مئات المرات: أكان هذا هو ما شعرنا أنه يرزح علينا ضغطه في السنوات الأخيرة؟ ذلك المستقبل الرهيب، الذي هو الآن حاضرنا المروع؟ لابد أن أفكر في هذا. إني ذات يوم قلت لمارتا: مارلا Martha، لن يكون أمامنا إلا الكوارث والمخاوف وألوان الجزع. معك تنتهي خيرات حياتي» وتأدّى بي ذلك إلى الشعور بأنه في وسط سكون الريح انفجرت عاصفة في نفسي، فأرعيت السمع ولم أفكر إلا في مصيري الغريب، ولم يخطر ببالي أن العالم بسبيل السقوط في اضمحلال عظيم. وبدت على مارتا Martha مراسم من يطلب الحماية. والآن، أنا أدرك كيف أن رجلين عجوزين قويين، هما تولستوي Tolstoi وسيزان Cezanne قد أطلقا تحذيرات وتهديدات، مثل أنبياء ميثاق قديم سينتهك عما قليل، ولم يشاءا أن يعيشا[2] تجربة هذا الانتهاك. فليكن ما يكون. إن أسوأ ما في الأمر هو أن نوعا من براءة الحياة التي نشأنا عليها لن يتيسر وجوده لنا من جديد في المستقبل. إن السنوات القادمة، أيا كان عددها، لن تكون إلا انحدارا بركب جاثية، من جبل الآلام هذا الذي يدفعوننا عليه قدما».

ويشبه حياته إبان فترة الحرب بأنها «حياة بين قوسين» (من رسالة إلى الأميرة ماريه بتاريخ 24 أبريل 1918).

وطوال سنوات الحرب التي جاوزت أربع سنوات، لم ينتج رلكه شيئا، باستثناء:

- ترجمة بعض «سوناتات» ميكلنجلو،
- ونظم الإيلجيا الرابعة (في نوفمبر 1915)،

- ونظم مرثية طفلة Requiem
- وبضع قصائد قصيرة.

ولما كان رلكه نمساوي الجنسية، فقد ظل ينتظر، وهو في منشن، أمر استدعائه للالتحاق بالجيش. وبلغ بهذا الأمر في مستهل شهر يناير 1916، على أن يسافر فورا إلى فيينا ليلتحق بالخدمة العسكرية بوصفه جنديا في الجيش الداخلي. وكان قد مر عليه خمسة وعشرون عاما منذ أن ترك المدرسة العسكرية في سانت بولتن. وطوال هذه المدة لم يمارس خدمة عسكرية، باعتباره غير لائق بدنيا لذلك.

وقد استمر رلكه في خدمة الجيش هذه من 4 يناير حتى 9 يونيو سنة 1916، أي خمسة أشهر وخمسة أيام.

وقد كتب إلى ناشره أنطون كبنبرج Kippenberg عن التحاقه بخدمة الجيش النمساوي فقال:

«في الرابع (من يناير 1916) استدعيت للخدمة العسكرية، وبقيت طوال ثلاثة أسابيع تقريبا في الخدمة والتدريب في المعسكرات، ولحسن الحظ توافق «اعتباري غير لائق بدنيا» مع طلب جديد للخدمة في «محفوظات الحرب». وفي الأيام الأخيرة من يناير (1916) عينت للخدمة هناك. وهناك الآن مقر عملي... وهو من حيث الظاهر أكثر إراحة وأفضل، لكنه ربما كان غير محتمل إذا لم أفلح في أن أتكيف مع العمل الآلي للنسخ والتسجيل، لأن العمل الثقيل الذي تعود عليه السادة منذ عام ونصف العام غير ميسور لي أبدا» (من رسالة إلى أنطون كبنبرج في 15 فبراير 1916).

لكن رلكه لا يذكر هنا فضل أولئك الذين توسطوا له كي ينقل من معسكر الجيش الداخلي إلى قسم «محفوظات الحرب» ومن التدريب الشاق المرهق على الضرب بالنار ومن القيام بالأعمال العسكرية العنيفة إلى الجلوس في مكتب هادئ في قسم الأرشيف الحربي.

وفي 17 يناير 1916 علم رلكه من استفن اتسفايج (1881- 1942) عن الجهود التي يبذلها رومان رولان لمعرفة مصير أوراقه وكتبه وأمتعته التي تركها في شقته بالبيت رقم 17 شارع Campagne Premiere في باريس. وقد كتب اتسفايج Zweig إلى رومان رولان يقول: «كان رلكه عندي اليوم (وهو بلباس الجندي) وقد تأثر بعطفك. لكنه بسبب إرهاقه الجسماني والمعنوي فإنه لا يستطيع أن يكتب إليك».

وبتاريخ 11 يناير 1916 كتب أندريه جيد Gide إلى رومان رولان، بعد أن قام هو وجاك كوبو Copeau (1879-1949) بزيارة مسكن رلكه هذا-ما يلي: «لقد بيع كل شيء -هكذا قالت البوابة -وهي امرأة طيبة كانت تبكي وهي تروي لنا ما حدث. ولكنها استطاعت أن تحفظ في حقائب جديدة الرسائل والمخطوطات وكل الأوراق التي لم تكن قابلة للبيع. وهذه الحقائب موجودة الآن في مرسم أو قبو عند مستأجر»-غير أن هذه الحقائب ما لبثت أن وضعت تحت الحراسة، وظلت كذلك حتى سنة 1923، حين نقلها أندريه جيد إلى مخازن «المجلة الفرنسية الجديدة» NRF. وظلت في هذه المخازن عامين، إلى أن جاء رلكه في سنة 1925 واستردها.

لقد بيعت كتب وأمتعة رلكه دون علم أصدقائه في فرنسا. وكانت حصيلة بيعها هي 538 فرنكا فرنسيا فقط!!

ومنذ أن نقل رلكه إلى قسم «محفوظات الحرب»في 27 يناير 1916 سكن في فندق Hopfner's Park Hotel في حي هيتسنج Hietzing (القسم الثالث عشر من فيينا). ومن أغرب المصادفات أنني نزلت في هذا الفندق حين زرت فيينا لأول مرة في أغسطس سنة 1950، دون أن أعلم أن رلكه كان قد أقام فيه!.

وبعد أن يعود من العمل، كان يغلق على نفسه في غرفته كل يوم لأن «الوحدة-كما قال رلكه-هي دائما خير الأمور حين لا يحدث شيء وأكون متعبا وسيئ المزاج، دون أي سبب: سيئ المزاج -نعم أنا سيئ المزاج. وفي غمرة هذا التعب، قرأت كتاب «جولم»[3] وكتاب «الإنسان الإوزة»[4] وكتابين آخرين من النوع نفسه. وحزنت كثيرا حين وجدت أن هذه الكتب هي نصف-نصف» (من رسالة إلى الأميرة ماريه بتاريخ 25 فبراير 1916).

وكان من زملائه في قسم «محفوظات الحرب» استفن اتسفايج، وألفرد بولجر Polgar، وفرانتس شوكور Csokur، ود. هانز ملر، ولودج كوشتاد، وفرانتس جنتسكي Gin zkey ورودلف بارتش Bartsch، وتسيجا زلبرر Zega Silberer. وقد وصف هذا الأخير عملهم في قسم «محفوظات الحرب» فقال: «كانت مهمتنا الأولى هي أن نكتب عن التفاصيل الدقيقة لمجريات الحرب، أعني أن نزود الجمهور بأخبار صغيرة عن الحرب، مصوغة في قالب قصصي، بأقصى سرعة» وتجمع هذه الأقاصيص، ويتولى مدير القسم-العقيد ألويس فلتسه Alois Velza نشرها.

وتبين أن رلكه لا يحسن هذا العمل، الذي كان يسمى «تزيين أبطال». لهذا كلف بتسطير كشوف المرتبات: «فكان يرسم خطوطا أفقية وعمودية طوال ساعات بجد واهتمام. وكانت الفواصل بين السطور لا تزيد على 2 مليمتر. وهذه الشبكة الهندسية الدقيقة المؤلفة من خطوط بالقلم الرصاص كانت تنبئ عن إحساس جمالي في العمل، بل كانت بمثابة عمل فني» (من مقال في «جريدة براج» بتاريخ 1931/3/1). كذلك كان رلكه يكتب بطاقات الفهارس للأعمال الحربية.

ومن 12 إلى 16 فبراير قضى رلكه أربعة أيام في منشن، لأمور تتعلق بـ «الخدمة العسكرية».

وفي يوم 14 فبراير جرى حديث طويل بينه وبين البارون ردفتس حول إمكان استئناف كتابة التماس لتسريح رلكه من الخدمة العسكرية: واتفق الحاضرون على أن هذا الالتماس تتولى تقديمه دار النشر Insel «لأنه لا أحد-هكذا يقول رلكه في رسالة إلى ناشره كبنبرج بتاريخ 15 فبراير-لا أحد يهمه أمري، بالمعنى الفكري والعملي، ولا أحد يعرف-على نحو أفضل وأسرع بين العديد من أصدقائي، والأشخاص الذين لهم سلطة في هذا الشأن-منك أنت».

وإلى جانب ناشره، أهاب رلكه أيضا بالسيد فون كولمن. وعن هذه الأيام الأربعة التي قضاها في منشن «لأعمال مصلحية»، كتب رلكه إلى الأميرة ماريه (بتاريخ 17 فبراير) يقول: «لقد وصلت اليوم، وسافرت طوال الليل... وطبعا لم تبد لي منشن جميلة وحرة ومليئة بالعطف مثلما بدت لي هذه الأيام: لقد كان فيها أناس يثرثرون ويتأملون في الشؤون الماضية، وكان فيها كتب، كل أنواع الكتب. وفي أول مساء، عرضت مسرحية «التحضير لعيد الميلاد» Advent تأليف اشترندبرج، في تمثيل رائع خالص النية في «مسرح الأنس». كذلك يذكر-في هذه الرسالة-أنه رأى-إبان هذه السفرة في منشن-أرتين Aretin، وكليمانس فرانكنشتاين والبارون ردفتس، الذي كان ياورا للأمير لدفج فردينند. ورأى ابنته راعوث، فوجدها «حسنة الحال. وقد بذلت جهودا كثيرة من أجلي. وجاء الكل، وتمنوا لي السلامة. وانتشرت شائعة تقول إنني سرحت من الخدمة العسكرية. فلما أوضحت لهم الأمر، تمنى لي الجميع التسريح السريع الكامل». ثم عاد رلكه إلى عمله في فيينا في يوم 17 يناير 1916.

ووصلت الأميرة ماريه تاكسس إلى فيينا في 25 فبراير. وكتبت إلى رلكه

في اليوم نفسه تسأله عن كتاب «الفنون التشكيلية في الوقت الحاضر» لأن ابنها «باشا» (ألكسندر) يريد أن يأخذه معه. فيرد عليها رلكه بخطاب مستعجل يقول فيه إنه سيزورها في عصر اليوم نفسه. أما الكتاب فكان قد أعاره إلى جار له في قسم «محفوظات الحرب»، وأنه سيعمل على استرداده منه وإحضاره إليها. ومن ثم صار رلكه يتردد على الأميرة ماريه تاكسس مساء كل يوم تقريبا، إلى أن غادرت فيينا.

ويواصل رلكه مساعيه للتسريح من الخدمة العسكرية. فيكتب في 8 مارس 1916 إلى المستشار رتشرد فيننجر Weininger يرجوه أن يساعده على تحقيق الالتماس الذي قدمه للتسريح من الخدمة العسكرية.. وأثناء أمسية مع الزملاء، في 14 مارس، يتلقى رلكه توكيدا من الجنرال يحمل الأمل الوثيق في تحقيق التماسه هذا.

وفي 28 مارس استدعاه العقيد فلتسه Veltze، رئيسه في قسم «محفوظات الحرب»، وسأله عن أحواله. ثم أخبره أنه طلب إرسال قرار القيادة في منشن إلى قسم «محفوظات الحرب» ومتى ما وصلت هذه الوثيقة، فإنه سينظر ماذا يمكن عمله، وهو يؤمل في أن يحصل رلكه حينئذ على قرار بتسريحه من الخدمة العسكرية.

لكن الأمر سيطول ولن يصدر قرار تسريح رلكه من الخدمة العسكرية إلا في 9 يونيو سنة 1916.

وقبل صدور هذا القرار، انتقل رلكه إلى ضاحية رودناو Rodnau في نواحي فيينا، في 25 مايو (1916) وظل يقيم فيها حتى 29 يونيو، حين عاد إلى مدينة فيينا ونزلت في Hotel Imperial.

وفي 27 يونيو (1916) انقطعت علاقته مع قسم «محفوظات الحرب». وفي رسالة بتاريخ أول يوليو كتب رلكه رسالة إلى كترينا كبنبرج، زوجة ناشره، يقول فيها: «إنني وجدت عند كسنر، وعند هوفمنزتال وعند أشخاص آخرين- رضا عني، بل وإعجابا بي.. وربما تعود لولو ألبرت في منتصف الأسبوع القادم إ،ط منشن. أما أنا فسأبقى في فندقي هذا (هوتل أمبريال) ثلاثة أيام أو أربعة، ثم أعود في يوم الاثنين إلى مسكني في شارع Victor gasse».

وبعث برسالة إلى الناشر (بتاريخ 11 يوليو1619) يلتمس منه أن يرسل إليه مبلغا معقولا من المال حتى يستطيع الاستعانة به على العودة إلى

منشن. وعلى الرغم من الجانب المرهق المضني لهذه الفترة في فيينا، فإن هناك جوانب مشرقة أفاد منها رلكه فوائد جمة:

1- فقد تعرف إبانها إلى الرسام أوسكار كوكوشكا Oscar Kokoschka (ولد في أول مارس 1886 في Pochlarn على نهر الدانوب في النمسا-وتوفي في فيلنف في سويسرا سنة 1980). وكان شاعرا أيضا. ومرت حياته الفنية بثلاث مراحل: الأولى حتى ارتحاله إلى درسدن (أي من سنة 1958 حتى سنة 1918)، وتمتاز برسم صور أشخاص من جوانبهم النفسية العميقة، والثانية (من سنة 1918 إلى 1924) وفيها اتسمت لوحاته بالتركيز الدرامي، والثالثة، وتبدأ برحيله عن درسدن في سنة 1924، وفيها تتجلى نزعته التعبيرية، وكذلك تبرز فيها ميول مشابهة لتلك التي نجدها عند دوفي Dufy (1877-1953) وأوترِ يو Utrillo(1883- 1955)، وفيها يتجاوز فنه المستوى الألماني القومي.

ولم يكن رلكه يعرف غير صور قليلة من إنتاج كوكوشكا. وفي 20 مارس (1916) أطلعه مقتني تحف فنية يدعى Reichel على لوحات لكوكوشكا. وفي 28 مارس حضر كوكوشكا محاضرة لرلكه ألقى فيها بعض قصائد من مجموعته: «قصائد جديدة».

2- كذلك تعرف إلى الموسيقار أرنولد شينبرج Schonberg(ولد في فيينا في 13 سبتمبر 1872، وتوفي في لوس أنجليس بالولايات المتحدة الأمريكية في 13 يوليو 1951). وقد ولد يهوديا، لكنه اعتنق المسيحية البروتستنتية وهو في سن الثانية عشرة. غير أنه عندما طرد من ألمانيا سنة 1933 لجأ إلى فرنسا وعاد إلى الديانة اليهودية. وقد حاول التجديد في التأليف الموسيقي، فلقي معارضات شديدة. ورلكه تحدث عن حضوره حفلة موسيقية أحياها شينبرج، وذلك في بطاقة (بغير تاريخ) أرسلها إلى الأميرة ماريه تاكسس.

3- إلى جانب هذا، كان يلتقي كل يوم باستفان اتسفايج كما التقى مرارا عديدة بهوفمنرتال.

بعد التسريح من الخدمة العسكرية

وهاهو ذا رلكه مسرّحا من الخدمة العسكرية وقد وصل إلى منشن في 18 يوليو 1916، ونزل في رقم 11 بشارع كيفر.

وقد كتب إلى سيديا Sidie في 20 يوليو، واصفا حاله عقب وصوله إلى منشن فقال:

«عزيزتي سيديا

هأنذا قد عدت. وكم أنا مدين لك بأنني عدت فوجدت نفسي أمام منضدة الكتابة نفسها والمحيط نفسه اللذين خلفتهما قبل سبعة أشهر!... في باطني يلوح كل شيء ممزقا. أما من حيث الظاهر، فإني أتقدم تدريجيا نحو المواضع التي فيها النشاط يتلفع بالشعور الباطن».

وقد كتب زيجموند فرويد Freud (1856- 1939) - مؤسس التحليل النفسي- إلى لو سالوميه (بتاريخ 27 يوليو 1916) عن رلكه يقول: «إن رلكه (الذي كنت أود أن أهنئه على العودة إلى حياة الحرية الشعرية) قد أوضح لنا في فيينا أنه لا يمكن عقد علاقة مستمرة معه. وعلى الرغم من ابتهاجه بزيارته الأولى، فإن ذلك لم يبعثه على القيام بزيارة أخرى». وكان رلكه قد زار فرويد في ديسمبر 1915. والسبب في عدم تكراره الزيارة لفرويد، هو أن رلكه قد ضاق ذرعا بالتحليل النفسي، ولم يشعر بأي ميل إليه.

وفي رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 28 أغسطس 1916) يقول عن مقامه في منشن وعن فيينا «إن منشن الخاوية قد صارت أكثر خواء، بل هي في خواء كامل. لكن ذلك يلائمني إلى أقصى درجة بعد فيينا الصاخبة المضطربة. أواه، أيتها الأميرة! كم أكره هذه المدينة (فيينا)!. ولولا شارع فكتور Victorgasse لكنت قد انفجرت من الضيق». وشارع فكتور هو الشارع الذي كان يقيم فيه في البيت رقم 5 بالطابق الأول منه.

ويشكر رلكه لناشره كبنبرج ما بذله من جهود حتى يسرّح رلكه من الخدمة العسكرية (في رسالة إلى كترينا كبنبرج بتاريخ. 1916/8/30). ويبعث إليه الناشر (برسالة مؤرخة في 1916/9/27) بكشف حسابه. ومنه يتبين أن رلكه قد حصل من الناشر في العامين الأخيرين على نحو 25 ألف مارك ألماني، وأن حسابه عند الناشر مدين بمبلغ ألفين من الماركات.

ولهذا يكتب رلكه إلى Philipp Schoy بتاريخ 9/29 يشرح سوء أحواله المالية، ويلتمس منه قرضا، يتعهد بأن يرده إليه تدريجيا بعد انتهاء الحرب.

وفي أول أكتوبر 1916 تبدأ صداقته مع جريتا لشتنشتاين - Greta Lichtenstein (توفيت سنة 1948). وكانت على صلة بالحياة الفنية في منشن، لكنها لم تنتج شيئا.

وقد نشر الكتاب السنوي للناشر Insel-Almanach (لسنة 1917)

«مقطوعات شتوية» من نظم رلكه، وسلسلة من ترجمات رلكه لبعض سوناتات ميكلنجلو: السوناتات أرقام 38- 39- 42- 61- 62- 64 لكن هذا كله نشر دون ذكر اسم رلكه.

ولما علم أصدقاء رلكه بما آلت إليه أحواله المالية، قاموا-وعلى رأسهم سيديا نادهرني Sidie Nadherny -بالتبرع له بمبلغ من المال يساعده في هذه الضائقة المالية. وبتاريخ 18 نوفمبر يبلغ كارل كراوس سيديا نادهرني بأنه مستعد للاشتراك في جمع هذا المبلغ. ويعلم رلكه بهذا الأمر، فيكتب إلى سيديا بتاريخ 13 ديسمبر 1916 أنه لا يفهم شيئا عن «المفاجأة التي سيقوم بها بعض الناس الأعزاء الطيبين الذين تتحدثين عنهم-ولابد أن تصلني في هذه الأثناء... وستكون ذات قيمة ثمينة جدا عندي» ويطلب منها معلومات أدق في هذا الشأن.

وتأتي المعونة تباعا. إذ يكتب رلكه بتاريخ 1916/12/24 إلى Philipp Schley يشكر له «وللأصدقاء الفييناويين» إرسالهم إليه مساعدة مالية قدرها ثلاثة آلاف مارك ألماني نقدا، وألفان وخمسمائة مارك بشيك، فالمجموع هو 5500 مارك. ويقرّ رلكه بتسلم المبلغ الأول والشيك. وهؤلاء الأصدقاء هم: سيديا نادهرني، وفايننجر، وفيليب شاي.

وهكذا اطمأن رلكه وزالت مخاوفه من الناحية المالية. وعد ما حدث معجزة ستسهل عليه أمور الحياة المدنية، كما قال في رسالة إلى السيدة فايننجر Weininger بتاريخ 31 ديسمبر 1916.

آخر رحلاته في ألمانيا

ويسافر رلكه إلى برلين في 18 يوليو 1917، ويقضي فيها حتى 24 يوليو. وكانت هرتا كينج Herta Koenig (ولدت 1884، وهي شاعرة غنائية، التقى بها رلكه في بيت الناشر المعروف صمويل فشر S. Fischer في برلين سنة 1910. وقد ألفت كتابا عن أم رلكه. وعاشت في ضيعة بوكل Boeckel بنواحي بيرن Bieren بدائرة هوفورد.)-نقول إن هرتا كانت قد دعت رلكه إلى الإقامة عندها في ضيعتها هذه، منذ وقت طويل. وهاهو ذا رلكه يلبي هذه الدعوة القديمة الآن، فيقضي المدة من 25 يوليو حتى 4 أكتوبر1917 في ضيافة السيدة هرتا كينج في ضيعتها المسماة Boeckel الواقعة في إقليم فستفاليا بغرب ألمانيا.

ومن هناك يسافر إلى برلين، فيقضي فيها بقية أكتوبر وشهر نوفمبر، وفي هذه الفترة يزور المتاحف، ويحضر الكونسرتات الموسيقية، ومعرض الرسام شجا ل Chagall (1887- 1985) في جاليري اشتورم Sturm، بصحبة الشاعر فالتر ميرنج Merring الذي كتب مقالا عن اللقاء الأول بين رلكه وشجال (نشر المقال في جريدة «فرنكفورتر الجماينة» بتاريخ 11/12/ 1985) وصف فيه رلكه آنذاك بأنه كان بخيلا، متصنعا، وعلى ركبتيه شريطان بلون الزبدة، ومعه منظار مكبر إطاره من الذهب، وقال: «لقد كان (رلكه) ارستقراطيا حقيقيا في عالم تسوده ملابس بلون رمادي-هو لون الملابس العسكرية في ألمانيا».

وفي أثناء هذه الفترة في برلين، كان رلكه يغشى الأدباء، مثل جرهرت هاوبتمان، وميرنج،-والفنانين مثل النحاتة رينيه Stntenins Renee، وعازفة البيانو الشهيرة: فندا لاندوفسكا Wanda Landowska. كذلك كان يتردد على بعض رجال السياسة والصناعة، مثل الكونت هاري كسلر Kessler، وهو دبلوماسي وفالتر راتناو Rathenau مدير «الشركة العامة للكهرباء» A.E.G. وقد صار فيما بعد وزيرا للخارجية في جمهورية فيمار التي حكمت ألمانيا عقب الحرب في سنة 1922 ووقع معاهدة دابلر، ثم اغتاله بعد ذلك بقليل اثنان من الوطنيين الألمان (وقد ولد سنة 1867). كذلك التقى رلكه مع وزير الدولة للشؤون الخارجية. رتشرد فون كولمان الذي سيتولى توقيع معاهدة برست لتوفسك عن الجانب الألماني بين ألمانيا وروسيا التي استسلمت لألمانيا. وسيكون رلكه ضيفا على أسرة كولمان في سبتمبر سنة 1918 في ضيعة بالقرب من أولشتاد.

وبلغه نبأ وفاة النحات رودان في 18 نوفمبر 1917، فحزن عليه، كما حزن من قبل على وفاة فرهيرن في 1911/11/27. وقد كتب إلى سيديا نادهرني (بتاريخ 1911/11/27) قائلا: «توفي فرهيرن، وتوفي رودان فمضت شواهد على ماض رائع حافل بالمساعي.. إني أزيد في إغلاق عيني، حتى لا أفقد الجوهر الباطن الذي به ثبت كل هذا داخلا على نحو رائع».

ويغادر برلين إلى منشن، ويقيم فيها من 10 ديسمبر 1917 حتى 7 مايو 1918، وينزل في فندق كونتننتال Continental. ومنذ 8 مايو انتقل إلى مسكن يقع في رقم 34 (الطابق الرابع) بشارع أينملر Ainmiller في منشن.

الأزمة السياسية في سنة 1917 في النمسا وألمانيا

لما استطالت الحرب بين الدول الوسطى (وهي: ألمانيا والنمسا- المجر، وتركيا وحلفاؤها) من ناحية-وبين الحلفاء (روسيا وفرنسا وإنجلترا، وإيطاليا) من ناحية أخرى دون نتائج حاسمة لصالح أحد الطرفين المتحاربين، تملك الإعياء الجبهة الداخلية عند كلا الفريقين: ففي فرنسا أخذ الجنود يرفضون الذهاب إلى خطوط القتال، بل قاموا في بعض المواقع بالتآخي مع الجنود الألمان. وأفكرت بعض الألوية في الزحف إلى باريس لإسقاط الحكومة الفرنسية والمجيء بأخرى تعقد الصلح مع الفريق الآخر. وطالب بعض كبار الساسة الفرنسيين، مثل كايو Caillaux (1863-1944)، بعقد صلح متساهل مع ألمانيا. لكن أنصار الصلح المتساهل في فرنسا أخفقوا أمام كليمنصو الذي صار رئيسا للوزراء في نوفمبر 1917، وكان شعاره هو: «الحرب حتى النصر النهائي».

وفي ألمانيا طالب «الريشستاج» (البرلمان) بعقد صلح متسامح. واندلعت تمردات عديدة بتحريض من الإسبارتكيين وهم اشتراكيون. لكن هندنبورج ولودندورف استأثرا بالسلطة المطلقة، وقضيا على تمردات الإسبارتكيين Spartakusbund.

وكانت أحوال الحلفاء في نهاية سنة 1917 بالغة السوء: فالجيش الروسي هزم هزيمة منكرة. وما لبثت الثورة أن اندلعت في روسيا: المرة الأولى في فبراير، والثانية في أكتوبر (= نوفمبر) سنة 1917.

وانهزمت إيطاليا هزيمة شائنة في معركة كابورتو Caporetto (في 24 أكتوبر 1917) فأسر من الإيطاليين 293 ألف جندي، وتركوا أكثر من ثلاثة آلاف مدفع ميدان (نصف مدافعهم) ومخازن هائلة ملأى بالسلاح والذخيرة ومواد التموين. فأصبح سهل نهر بو مفتوحا لغزو الجيش النمساوي الظافر.

لكن وقعت المعجزة التي أنقذت الحلفاء: إذ دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في صف الحلفاء. ففي 2 فبراير 1917 وافق الكونجرس الأمريكي على قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا. ولما أصابت الغواصات الألمانية شحنات أمريكية بالطوربيدات، أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على ألمانيا في 2 أبريل 1917.

وفيما يتصل بالأحوال الداخلية في النمسا في سنة 1917، نقول إن

العمال الاشتراكيين في النمسا تمردوا على السلطة الحربية المطلقة. وفي 21 أكتوبر 1916 اغتيل رئيس وزراء النمسا الكونت اشتورج Sturgh. وفي 21 نوفمبر توفي إمبراطور النمسا فرانتس يوسف الذي كان يتجسد-وحده- الإمبراطورية النمساوية متعددة القوميات واللغات طوال جيلين. ولما كان الأرشيدوق فرانتس فردينند قد اغتيل في سراييفو في 28 يونيو 1914، فقد كان ولي عهده هو كارل. فتولى كارل حكم إمبراطورية النمسا-المجر بعد وفاة فرانتس يوسف، وكان ضعيفا جاهلا بالسياسة، ومن ناحية أخرى كانت تتحكم فيه زوجته اتسيتا Zita، وهي أميرة من بيت بوربون-بارما الحاكم في بلجيكا. فقامت مفاوضات بين الإمبراطور النمساوي الجديد- كارل وبين فرنسا لعقد صلح سريع. وبدأت هذه المفاوضات من يناير حتى أبريل 1917. لكنها أخفقت بسبب مطالب إيطاليا من النمسا، وهي مطالب أقرها الحلفاء في مؤتمر سان جان دي موريين في 19 أبريل 1917.

وعاد البرلمان النمساوي إلى الانعقاد في 31 مايو 1917، وكان قد عطل منذ اندلاع الحرب في أغسطس 1914 فطالب التشيك والسلافيون الجنوبيون بالاستقلال على أساس قومي تحت تاج آل هبسبورج. لكن تبين لهم أنهم لن يحققوا هذا المطلب إلا إذا دمرت الإمبراطورية النمساوية المجرية. لهذا عملوا على هزيمتها: فقام المهاجرون والفارون من الخدمة العسكرية والأسرى التشيك في الخارج بتنظيم أنفسهم لهذا الغرض. وتزعمهم توماس مازاريك Masaryk (1850- 1937)، أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا التي ولدت إثر انتهاء الحرب. وكان من أبرز مساعديه إدورد بنش Benesch (1884- 1948) الذي سيخلفه على رئاسة تشيكوسلوفاكيا وحاول هؤلاء أن يكسبوا الحلفاء لفكرة تدمير إمبراطورية النمسا-المجر كوسيلة لإيجاد دول مستقلة على أنقاضها.

وعرض البابا بندكتوس الخامسة عشر (بابا من 1914 إلى 1922) أن يتوسط للصلح فقام القاصد الرسولي باتشلي Paccelli (البابا بيوس الثاني عشر فيما بعد: من 1939 الى 1958) بتوصيل رسالة من البابا بندكتوس الخامس عشر إلى مستشار ألمانيا بتمن-هولفج Bethmann-Holiweg (1856- 1921) في 26 يونيو 1917. وفي هذه الرسالة البابوية أوضح البابا أن تحرير بلجيكا شرط أولي لقيام الصلح بين ألمانيا-التي كانت قد احتلت بلجيكا منذ بداية الحرب-وبين الحلفاء. وعلى الرغم من أن بتمن هولفج لم يوافق صراحة

على التخلي عن بلجيكا، فقد اعتقد البابا أن في وسعه الاستمرار في مساعي الصلح لكن دون جدوى، فقد زادت ألمانيا من حرب الغواصات لإرغام إنجلترا على التسليم. وحاولت من ناحية أخرى حسم الحرب لصالحها بأن قامت بهجوم كبير في الجبهة الغربية لكن على الرغم من انتصار ألمانيا على فرنسا في داخل فرنسا وعند جبل كمّل Kemmel(في أبريل 1918) فيما يعرف بمعركة Sarmentieres ومن تقدمها في جبهة نهر اين Aine-لم تستطع ألمانيا الحصول على نصر حاسم في الجبهة الغربية، واضطرت القوات الألمانية إلى التراجع حتى خط هندنبورج.

وفي شهر مايو 1917 بدأت حركات تمرد في بعض سفن الأسطول الألماني: «فستفالن»، و «القيصر»، و«القيصرة»، و«الملك ألبرت».

طعنة الخنجر من داخل ألمانيا

ومنذ سنة 1915 قام الزعماء الاشتراكيون اليهود بالتآمر لبث الفتنة في صفوف الشعب الألماني، وتدمير روحه المعنوية-وذلك بالدعوة إلى وقف الحرب. ورأس هذه المؤامرة الهالكة ضد الشعب الألماني ثلاثة من اليهود المنضوين تحت لواء الحزب الاشتراكي الألماني SPD وهم:

1- روزا لوكسمبورج Rosa Luxemborg (5 مارس سنة 1870- 15 يناير 1919) وهي من أسرة يهودية تحترف التجارة في بولندا. وحصلت على الجنسية الألمانية بزواج وهمي، وعملت صحفية في جرائد الحزب الاشتراكي الألماني. ولما قامت الثورة الروسية الأولى في فبراير 1905، انتقلت إلى بولندا واشتركت في الثورة. وفي سنة 1907 صارت أستاذة للاقتصاد السياسي في مدرسة الحزب الاشتراكي في برلين. وقامت بالدعاوى العنيفة ضد النزعة الحربية في ألمانيا فحكم عليها بالسجن لمدة عام في 20 فبراير 1914. ولما قامت الحرب، راحت في سنة 1915 بعد خروجها من السجن تكتب المنشورات ضد الحرب، وتهاجم الجناح المناصر لاستمرار الحرب داخل الحزب الاشتراكي. ومن هذه المنشورات نذكر منشورا بعنوان: «أزمة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية» (سنة 1916) وقامت بتنظيم الجناح اليساري من هذا الحزب، بالتعاون مع ليبكنشت، ويوجيش.

2- كارل ليبكنشت Karl Liebknecht (13 أغسطس 1871- 15 يناير 1919): كان محاميا وصار عضوا في مجلس النواب البروسي في سنة 1908. وكان

يهوديا. وكان أبوه ماركسيا، انضم إلى كارل ماركس سنة 1855 ومنذ سنة 1912 صار كارل يدعو ضد الروح العسكرية. وفي جلسة البرلمان (الريشستاج) بتاريخ 2 ديسمبر 1914 دعا إلى وقف الحرب. وبسبب تحريضه على وقف الحرب حكم عليه في أول مايو 1916 بالسجن أربع سنوات بجريمة الخيانة العظمى. لكن عفي عنه في أكتوبر 1918، وصار من زعماء رابطة اسبارتاكوس. لكنه اغتيل هو وروزا لوكسمبورج في 15 يناير 1919 في برلين على يد رجال الجيش الذين أخمدوا الثورة التي اشترك فيها كلاهما في برلين.

3- كورت أيسنر Kurt Eisner (14 مايو 1867-21 فبراير 1919) هو ابن صاحب مصنع يهودي.. وعمل في تحرير الجرائد الاشتراكية الديمقراطية من سنة 1899 حتى سنة 1905 في جريدة «إلى الأمام»، ومن سنه 1910 عمل في جريدة «بريد منشن» ولما قامت الحرب العالمية الأولى بدأ مناصرا لها، ثم ما لبث أن تحول إلى معارض شديد للحرب. وصار في سنة 1917 رئيسا لفرع «الحزب الاشتراكي الألماني» في منشن. وفي يناير 1918 رأس حركة الاحتجاج ضد مواصلة الحرب. فسجن، وظل في السجن حتى عفي عنه في أكتوبر 1918. وفي 7 نوفمبر أعلن الجمهورية في مقاطعة بافاريا (بايرن)، وصار رئيسا لوزارة مؤلفة من 3 أعضاء من الحزب الاشتراكي. وبعد الهزيمة المنكرة التي لقيها حزبه في الانتخابات المحلية في يناير 1919- اضطر إلى الاستقالة. ولما كان في طريقه إلى المجلس المحلي لإعلان استقالته قتله الكونت أركو فالي Arco Valley الذي كان ملازما في الجيش، وذلك في يوم 21 فبراير 1919. وبعد مصرعه بأسبوع (في 28 فبراير 1919)، أعلنت «الجمهورية البافارية لمؤتمر المجالس البافارية للعمال والجنود والفلاحين»، وهي المعروفة اختصارا باسم «جمهورية المجالس». ولم تدم هذه الجمهورية إلا شهرين وبضعة أيام.

وكان الاثنان الأولان-روزا لوكسمبورج وكارل ليبكنشت-هما المؤسسين لرابطة اسبارتاكوس. وكانت هذه الرابطة تتألف من «مثقفين» ليست لهم أية قاعدة جماهيرية. وانضمت في سنة 1917 إلى «الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المستقل» USPD. لكنها في داخل هذا الحزب-المنشق عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي-كانت تدعو إلى آرائها السياسية الخاصة، أعني إلى القيام بثورة في ألمانيا على غرار ثورة أكتوبر في روسيا.

غير أنه لم يكن لهذه الدعوة صدى يذكر. وإنما كان لهم تأثير في الاعتصامات التي قامت في ألمانيا في أبريل 1917، ويناير 1918. وفي صيف 1918 ضعفت الرابطة ضعفا شديدا على أثر سجن زعمائها.

ولما أعلنت الهدنة في 11 نوفمبر 1918، نشطت حركة رابطة اسبارتاكوس من جديد، وصار ليبكنشت على رأسها. وفي 19 نوفمبر 1918 اتخذت «العلم الأحمر» راية له، ودعت إلى الاستمرار في الثورة. لكن زعماءها اختلفوا مع زعماء «الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني المستقل» USPD وسائر زعماء الثورة. ومنذ نهاية نوفمبر 1918 نظمت هذه الرابطة اجتماعات جماهيرية في برلين أدت إلى ثورة يناير 1919 التي على إثرها اغتيلت روزا لوكسمبورج وكارل ليبكنشت.

وفي 27 أكتوبر 1918 التمس إمبراطور النمسا، كارل، عقد صلح منفرد مع الحلفاء. وفي اليوم نفسه أعلن التشيك، واليوغسلافيون، والمجريون استقلالهم عن الإمبراطورية النمساوية.

وفي 8 نوفمبر 1918 هرب ملك بافاريا، لودفج فون بايرن من منشن.

وفي 11 نوفمبر 1918 أعلنت الهدنة بين ألمانيا وبين الحلفاء. وأعلن الإمبراطور كارل، إمبراطور النمسا، اعتزاله العرش، وذهب إلى المنفى في سويسرا.

رلكه في غمرة هذه الأحداث

ماذا كان موقف رلكه تجاه هذه الأحداث الجسام؟

يعترف رلكه بأنه وقف من هذه الأحداث موقف «المتفرج والمستمع، لكن مع الأمل قبل كل شيء» -الأمل في المستقبل، لكن بقلق بالغ (رسائل رلكه، ج2 ص 109).

ومع ذلك فإنه كان يغشى الاجتماعات السياسية العامة، التي كانت تعقد في منشن في أواخر أكتوبر وطوال الأشهر الثلاثة التالية. وفي رسالة إلى زوجته كلارا Clara (بتاريخ 7 نوفمبر 1918) يصف أحد هذه الاجتماعات فيقول:

«بين الآلاف كنت أنا أيضا في يوم الاثنين مساء في قاعات فندق فجنر. وتكلم الأستاذ ماكس فيبر Weber، أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة هيدلبرج، ويعد واحدا من أفضل العقول، وخطيبا جيدا. واشترك في المناقشة بعده: موهزام Muhsam-وهو فوضوي متطرف-وطلاب، ورجال قضوا أربعة أعوام في جبهة القتال. واتسم كلامهم بالبساطة والصراحة والشعبية...

وتصاعدت الأبخرة من البيرة ومن التدخين ومن الشعب، على نحو يشعر المرء بالضيق، لكن لم ينتبه لذلك أحد، لأن الأمر كان جادا وملحا حتى قيلت الأمور التي كانت في محلها. وكان الأبسط والملائم منها يلقى من الجمهور الهائل تصفيقا وموافقة. وفجأة نهض عامل شاب شاحب الوجه، وتكلم بكل بساطة قائلا «هل عرضتم أنتم، وأنتم، وأنتم اقتراحا بالهدنة ووقف القتال؟ إن علينا، مع ذلك، أن نفعل نحن هذا، وليس أولئك السادة الذين هم فوق. لنستول نحن على محطة راديو، ولنتحدث كأناس عاديين مع أناس عاديين هناك. وفورا سيكون هناك سلام».

ويصف اجتماعا آخر عقده كورت أيسنر في دار لشرب البيرة، فيقول في رسالة إلى آني ميفس Anni Mewes (بتاريخ 6 نوفمبر 1918).

«بقينا أربع سنوات في ضوء النار، وانطفأت سائر أنوارنا، إلى حد أن الحرب المنطفئة ستتركنا في ظلام مروع جدا، هو أشد الظلمات ترويعا، إن لم يوقد الشعب في مخبئه نارا أخرى تشعل النيران في أطراف الجماهير. ويا ويلتاه أن نتصور أن قوة إضاءة ما هو روحي في هذا الجو الجديد ستكون عاجزة وعديمة الإشعاع، كما حدث طوال أربع سنوات في جو الحرب!. بالأمس دعا أيسنر Eisner إلى اجتماع في دار لشرب البيرة في مرج تريزا. لكن تبين أن القاعة ضيقة جدا، لهذا تجمع الناس تحت سماء الليل، وبلغ عددهم سبعة آلاف».

وتورط رلكه أكثر فأكثر مع هؤلاء الثوريين: إذ صارت شقته ملتقى لجماعة من الثوريين والشيوعيين مثل إرنست تولر Ernst Toller، وألفرد كورلا Korella (الذي صار بعد الحرب العالمية الثانية نائبا لرئيس أكاديمية الفنون في ألمانيا الشرقية). كذلك كان رلكه صديقا لكورت أيسنر، وإدجار جفه Jaffe.

ويجدر بنا أن نورد نبذة عن بعض هؤلاء الثوريين:

1- أما إرنست تولر (1 ديسمبر 1893- 22 مايو 1939) فكان اشتراكيا وشاعرا وكاتبا. وهو من أسرة يهودية تحترف التجارة. وتطوع في الحرب العالمية الأولى، ثم سرح سنة 1916 بعد إصابته بجراح. وعاش في منشن. وتحت تأثير كورت أيسنر صار اشتراكيا. وبعد اغتيال أيسنر في فبراير 1919 صار رئيسا «للحزب الاشتراكي الألماني المستقل» USPD.

وابتداء من أبريل 1919 صار من قادة «جمهورية المجالس» في منشن.

وبعد القضاء على هذه الجمهورية، حكم عليه بالسجن خمس سنوات، في أثنائها كتب معظم قصائده، كما كتب مسرحيات ذات نزعة تعبيرية وثورية. فلما استولت النازية على الحكم في 30 يناير 1933، هرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، مارا بسويسرا وفرنسا وإنجلترا. وعاش هناك في ظروف بالغة الصعوبة. وفي نوبة من نوبات الاكتئاب النفسي، انتحر في 22 مايو 1939 في نيويورك.

2- أما إرش موزام Erich Muhsam (6 أبريل 1878 في برلين -10 يوليو 1934) في أوراتينبورج) فثوري اشتراكي وكاتب. وقد عاش منذ سنة 1901 كاتبا حرا في منشن وبرلين. وشارك في تحرير مجلات انتقادية يسارية - منها مجلة «العفريت المسكين»، ومجلة سمبلسموس-Sim Plicimus. وفي عامي 1918 و1919 أصدر مجلة «قابيل» مجلة للإنسانية.

واشترك في ثورة نوفمبر في إقليم بافاريا. وصار في سنة 1919 عضوا في المجلس المركزي «جمهورية المجالس» في منشن. وبعد القضاء على هذه الجمهورية حكم عليه بالسجن 15 سنة، لكن عفي عنه في 1924.

وقد سجل تجاربه هذه في كتاب بعنوان «من أيسنر إلى لفينه Levine» (1929). وتعاون فترة من الزمان مع كارل ليبكنشت ومع أوتو اشتراسر Strasser. لكنه ظل دائما فوضوي النزعة. ولما جاءت النازية إلى الحكم في 30 يناير 1933 أودعته السجن في معسكر اعتقال، وهناك لقي حتفه في 10يوليو 1934.

وكان ماكس أمير بادن Max, Prinz von Baden 10 يوليو 1867- 6 نوفمبر 1929) قد عين في 3 أكتوبر 1918 مستشارا للرايش Reich الألماني خلفا للكونت هارتلنج Hartling. وألف حكومة من الوسط ومن الحزب الاشتراكي الألماني ومن حزب الشعب التقدمي. وفي 5 أكتوبر 1918 أبلغ ولسون Wilson- رئيس الولايات المتحدة الأمريكية-أن ألمانيا تطلب الصلح وفقا لمبادئ ولسون الأربعة عشر. وكذلك طلب إعلان الهدنة.

وأنهى حرب الغواصات، وأعفى الجنرال لودندورف Ludendorf (1865- 1937) من الخدمة وأعاد النظام البرلماني في 28 أكتوبر 1918. لكنه لم يستطع، مع ذلك، منع ثورة نوفمبر. وفي 9 نوفمبر 1918 أعلن استقالة الإمبراطور فلهلم الثاني، وترك منصب مستشار «الرايش» لفريدرش إيبرت Ebert(4 فبراير 1871- 28 فبراير 1925).

ويقول رلكه عن حكم الأمير ماكس فون بادن:

«من رأيي أن الحكومة التي تجعل نفسها شعبية بأن تتجنب المخاطرة بالدفاع، فإنها تتحرز من اندلاع ثورة، أو على الأقل تؤجل اندلاعها. لكن عليها حينئذ التعجيل بتحقيق بعض التوقعات العامة: ذلك أن تصرفاتها كلها يحلق عليها الاتهام الخفيف بالتردد وأنصاف الحلول. لقدر محتوم على المتباطئ أن الانفجار العنيف للإرادة الشعبية -التي أهملت طويلا-أن يلتقط أنفاسه في هذا التأخير».

وفي حاشية على الرسالة التي أرسلها إلى زوجته كلارا Clara بتاريخ 8/7 نوفمبر يقول:

«إن وراءنا ليلة عجيبة. لقد أنشئ مجلس للجنود والفلاحين والعمال. وكان كورت أيسنر أول رئيس له. والصفحة الأولى كلها في الجرائد الصادرة في منشن يملؤها قرار صادر منه بمقتضاه يعلن أن الجمهورية البافارية تضمن الراحة والأمن للسكان. وسبق هذا القرار اجتماع عقد في مرج تريزا، اشترك فيه مائة وعشرون ألفا من الناس... لكن بقي الأمل في أن ينتج هذا الوضع غير المألوف التعقل في النفوس وألا تنجم عنه سكرة قاضية. وحتى الآن يبدو كل شيء هادئا وليس أمام المرء إلا التسليم بأن الزمان على صواب، إذا حاول القيام بخطوة كبيرة».

الشرطة تتعقب رلكه

ونتيجة لصلاته هذه مع الزعماء الثوريين وحضوره اجتماعاتهم، صار رلكه هدفا للاتهام بأنه ضالع مع الحركات الثورية التي اندلعت في منشن في أواخر أكتوبر وطوال الأشهر الثلاثة التالية، أعني من أواخر أكتوبر سنة 1918 حتى يناير 1919.

يقول أوسكار جراف Oskar Graf في «ذكرياته عن راينر ماريا رلكه»: «بسبب معرفته بتولر Toller وآخرين من رجال الثورة بدأت شرطة منشن في تعقب الشاعر «رلكه». ثم إن كونه-إلى جانب ذلك «أجنبيا» لأنه مواطن تشيكي-قد بدا مدعاة أكثر للشك فيه».

بيد أن رلكه يصرح في حديث شفوي مع فالترميرنج Walter Merring (ولد 1896) قائلا: «إنني لم أطرد من منشن، التي فيها كنت أقيم في سنة 1919. والمضايقة الوحيدة التي عانيتها هناك هي تفتيش بيتي من قبل

الشرطة، لكن لم يرغمني أحد على مغادرة المدينة. إنما استجبت لدعوة جاءتني للذهاب إلى سويسرا» («يوميات» تأليف فالتر ميرنج، بتاريخ 15 أغسطس 1925، السنة السادسة، الكراسة رقم 33).

ويروي فلهلم هاوزنشتاين Hausenstein أنه بعد انهيار جمهورية «المجالس»في منشن في مايو 1919، قرع باب رلكه بعض رجاله الشرطة قائلين إنه «بلشفي».

والواقع هو أن الشرطة، بعد انهيار الحركات الثورية في منشن، قامت بتفتيش منزل رلكه في الخامسة صباحا مرتين.

ولا شك في أن رلكه رحب بقيام الثورة في منشن وفي سائر ألمانيا في نوفمبر 1918، بدليل ما قاله في رسالة إلى دوروتيا ليدبور Ledebuhr (بتاريخ 19 ديسمبر 1918). قال «أعترف بأنني أوليت الثورة ثقة سريعة مسرورة، لأنني منذ صرت قادرا على التفكير، لم أتمن للإنسانية شيئا ملحا أكثر من أن تفتح صفحة جديدة تماما من صفحات المستقبل، وينبغي ألا يسجل فيها جماع أخطاء الماضي.

وبدت لي الثورة أنها هي اللحظة المواتية لذلك. بيد أن الثورة إنما قامت بها أقلية عارضة هي في أعماقها غير ملهمة. وبعد حدوثها بالفعل، حاولت الروح أن تسري فيها؛ لكن هذه الروح كانت روحا بالاسم فقط، ولم يكن لها شباب، ولم يكن في طبيعتها أية نار حقيقية وربما تكون الثورات غير ذلك إلا في لحظات دامية جدا، وبعد سفك دماء لمدة تزيد على أربع سنوات».

ومعنى هذا أن رلكه رحب باندلاع الثورة أول الأمر لتكون فرصة لطي صفحات الماضي وفتح صفحة جديدة تماما في المستقبل.

لكن ما لبث أن تبين له أن الذين قاموا بها-في نوفمبر 1918- هم أقلية عارضة جاهلة، لا يشيع في نفوسها أي مبدأ. ومحاولتها بعد ذلك بث مبادئ فيها إنما هي محاولة لاحقة للأحداث. والروح التي زعموا أنها تسري في حركتهم هي روح زائفة، قد خلت من الإيمان والحماسة للمبادئ، وعدمت الشباب. لهذا تراجع رلكه عن موقفه الأول، وصار ينتقد هذه «الثورة»، وينعتها بأنها «هواية» سياسية غير جادة، وأن القائمين بها خلو من المعرفة والتجربة- كما قال في رسالة إلى آني ميفس Anni Mewes بتاريخ 19 ديسمبر 1918.

ويقول أوسكار ماريه جراف Graf في «ذكرياته»: «على مسكن رلكه بشارع

إنيملر Annimiller كان يتوافد ثوار نشيطون مثل تولر Toller أو الشيوعي كورلا Kurella، ومعهم جمع من أنصارهم الشباب، كما كان يجيء كتاب وبورجوازيون كانوا من أنصار الثورة. وكان مضمون اهتمامهم وتفكيرهم هو البحث في أسباب انهيار ألمانيا، ونصيبنا من المسؤولية عن الحرب، وإمكانات مستقبل ألمانيا. ومن الممكن أن يكونوا قد رجوا أن يجدوا عند رلكه تأييدا لموقفهم من هذه الأمور. لكن المحادثات كانت تجري دون نتيجة ولم ترضهم».

ثم يقول في موضع آخر: «وكان رلكه يستمع إلى كلام زائريه دون أن يبدي رأيا. وما كان يقوله بعد كلامهم ظل غريبا عن إفهام هؤلاء الناس... لكن كان يحملهم شيء على عدم مناقضة كلامه. وقد أدهشني أن معظم الناس كانوا يستمعون إلى رلكه أكثر من أن يكلموه، على الرغم من أنه لم يكن كثير الكلام أبدا. وكان صوته معتدلا، خفيضا، ذا نبرة قريبة. وحين يتكلم كان يتكلم بحذر بالغ، وبلفظ خال من كل ابتذال، وباحتياط إنسان لا يريد إيذاء أحد».

7 رلكه في سويسرا

وما كادت الهدنة تعلن في 11 نوفمبر 1918 حتى أفكر رلكه في ترك منشن، التي قضى فيها معظم سنوات الحرب العالمية الأولى. وكما قال في رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس: «إن الرحيل، كما أعرف نفسي، لا يعني بالنسبة إلي أمرا عارضا جانبيا، ولن يكون، بعد السنوات القاسية من إقامتي في منشن، مجرد انقطاع مؤقت، بل سيكون بالأحرى قطيعة. وأتصور (ولنقل هذا فيما بيننا) أنني لن أعود إلى منشن» (رسائل رلكه وماريه تاكسس، ص 570).

أما أنه لن يعود إلى ألمانيا بأسرها فهذا ما لم يفكر فيه آنذاك، بدليل أنه تواعد مع لو أندرياس سالوميه-التي كانت آنذاك تقيم معه في منشن- على اللقاء من جديد في أكتوبر 1919 في ألمانيا. وقد ذكرها هو بذلك وهو يركب القطار في 11 يونيو 1919 متوجها إلى زيوريخ (في سويسرا) وكانت في وداعه هي وزوجته كلارا وبعض الأصدقاء.

ويلوح أن تفكير رلكه في السفر إلى سويسرا للإقامة بها إنما بدأ في شهر يناير 1918 على الأقل. فهو في 28 يناير 1918 يسأل الكونت باول تون Paul Thun القادم من السفارة النمساوية في برن (عاصمة الاتحاد السويسري) عن إمكان السفر إلى سويسرا.

وفي 20 سبتمبر 1918 تشير كترينا كبنبرج على رلكه بأن يقيم إما في أوشي Ouchy (شاطئ لوزان على بحيرة جنيف) أو في مورج Morges (بلد صغير على شاطئ بحيرة جنيف في منتصف المسافة بين لوزان وجنيف)، وتقول له: «إذا دبرت مسألة جواز السفر، فإني أنصحك بالسفر فورا إلى سويسرا» (من كترينا كبنبرج إلى رلكه، بتاريخ 1918/9/20) وتخبره بأن دار النشر Insel ستضع تحت تصرفه مائة مارك شهريا.

وبناء على هذه النصيحة بدأ رلكه في الاستعداد للسفر إلى سويسرا فكتب إلى كترينا في 1918/9/24يقول: «قنصلنا مسافر الآن. لكن تنتظر عودته كل يوم. وسأسعى إليه في أبكر وقت. وسأضع بين يديه استعدادي التام للسفر فورا.. وأنا أسلم بأن السفرة إلى سويسرا هي في النهاية عين الصواب. ومنها أتوقع أن تسوق تيارا يحرك جمودي الحالي».

وفي 11 نوفمبر 1918 يخبر رلكه الدكتور بورشل Burschell بأنه: «ومع بريد هذا الصباح وصلني أخيرا الخطاب الذي كنت أنتظره من سفارة برن. وعليّ الآن أن أستعد للقيام بهذه السفرة في وقت أبكر مما تصورته بالأمس».

وفي تلك الأيام شارك رلكه في المحادثات التي جرت حول استقبال الجنود العائدين والعناية بهم.

وفي 17 ديسمبر 1918 منحه إمبراطور النمسا، كارل الأول، نوط «صليب الضابط» من نيشان فرانتس يوسف. لكن رلكه رفضه. وكان هذا القرار واحدا من آخر قرارات الإمبراطور كارل الأول قبل تنازله عن العرش.

وابتداء من أول عام 1919 بدأ رلكه في قراءة كتاب «انحلال الغرب» تأليف أوزفلد اشبنجلر. (راجع كتابنا: «اشبنجلر»، ط1، القاهرة سنة 1941).

وفي 4 يناير 1919 اقترحت عليه الاميرة ماريه تاكسس أن يقيم في البيت الصغير الخاص «بالباشا» في لاوتشن Lautschin.

وعلى الرغم من وصول موافقة سويسرا على تأشيرة دخول رلكه، فإنه لم يبادر إلى السفر. وبرر هذا التأخير في رسالة إلى سيديا Sidia نادهرني (بتاريخ 22 يناير 1919) قائلا: «إني لا أريد الرحيل لوقت قصير، بل إذا سافرت فلا بد أن يكون السفر لعدة أشهر. والآن نحن في الشتاء، وقد بدأت أشعر بالأنس داخل هذه الجدران. وبقدر ما أفكر في العمل، إبان هذا التمزق الباطن، فإني أود أن أصل في الترجمات التي أقوم بها إلى درجة

كافية، وهذا أمر صار الآن ممكنا بعد أن تيسر لي أن أتباعد عن أهل منشن وأحداثها... إني لا أعرف سويسرا إلا معرفة عابر مر خلالها، ولم أقم بأية محاولة في المرتفعات. وربما كنت أفضل الذهاب صوب الجنوب إلى أسكونا Ascona أو أوشي Ouchy، حيث يكون الإزهار عما قليل،، وحيث يستطيع المرء أن يضع يديه بعد أسبوعين على جدار دفأته الشمس، وتخرج منه السحالي».

وفي 7 فبراير 1919 أرسلت سيديا نادهرني إلى رلكه دعوة من صديقتها الكونتيسة ماريه دوبرشنسكي Mary Dobrcensky للإقامة في نيون Nyon على شاطىء بحيرة جنيف. فرد رلكه على الدعوة شاكرا، لكنه أجل تنفيذها قائلا: «توجد في الترددات النفسية، كما في الترددات الجسمية، حالة من عدم إمكان الانتقال». وتابع قائلا: «ربما أسافر في أبريل، إذا شاءت جماعة هوتنج أن يمكنونني من ذلك. وأخشى أن يكون صبرهم قد نفد، وفي شهر مارس ينتظر أن تأتي لو سالوميه قادمة من جيتنجن. وهذا وحده سبب كبير كي أبقى هنا. إنني لم أرها منذ شهر أبريل سنة 1915».

وكتب إلى لو سالوميه قائلا: «إذا كان هناك أقل أمل في أن تستطيعي المجيء في شهر مارس، فإن السفرة إلى سويسرا ستظل معلقة، وإن كانت محلقة دائما». وأرسل إليها نسخة من كتاب «انحلال الغرب» تأليف اشبنجلر. وفي 20 مارس شكر لسيديا نادهرني عرضها مساعدته ماليا أثناء إقامته في سويسرا.

ووصلت لو سالوميه إلى منشن في 26 مارس 1919 بعد سفرة استغرقت ثلاثة أيام. وبقيت في منشن حتى 2 يونيو 1919. وأقامت -بعد الأيام الأولى- في بنسيون 22(Gartenheim شارع لودفج). وطلب رلكه من ألن دلب Delp أن تعمل على ألا تدفع لو سالوميه حسابا عن إقامتها، لأنها ضيف على رلكه.

وفي 6 يونيو 1919 أرسل رلكه إلى سيديا نادهرني برقية قال فيها: «وصلتني الآن الموافقة على دخول سويسرا لكني لن أستطيع السفر قبل يوم الأربعاء. فهل تستطيعين الانتظار؟ أرجو أن ترسلي بعض النقود على عنوان جمعية القراءة هوتنجن Hottingen لدى وصولي».

وقبل سفره وضع رلكه كل مراسلاته في حقيبة من الجلد. أما الكراسات التي سجل فيها يومياته، والمخطوطات التي بدأها، فقد أودعها في خزانة وأعطى مفتاح الخزانة إلى إيليا نفار Elya Nevar التي ساعدته على حزم أمتعته.

السفر إلى سويسرا

وفي يوم ١١ يونيو ١٩١٩ غادر رلكه منشن. ولم يعد بعد ذلك إلى ألمانيا حتى وفاته. وكان في وداعه وهو يستقل القطار: زوجته كلارا، ولو أندرياس سالوميه، وجمع من معارفه.

وكانت معه في القطار آن-ماريه زيدل Anne-Marie Seidel الممثلة السابقة في مسرح منشن. فساعدته مساعدة عظيمة حين وصل القطار إلى لنداو Lindau، إذ كانت تنقص رلكه بعض الوثائق التي تمكن من اجتياز الحدود، فاستطاعت آن ماريه زيدل تذليل هذه الصعوبة بالتفاهم مع قائد المنطقة، الدكتور رولف شرايبر Rolf Schreiber.

ومن لنداو استقل رلكه باخرة أبحرت في بحيرة كونستانس متوجهة إلى رومانز هورن في سويسرا، وكانت معه على الباخرة المغنية ألبرتينا بولتسي Albertina Pulzi. وسيتبادل رلكه معها بعد ذلك 16 رسالة. ومن كونستانس سافرا معا بالقطار إلى زيورخ. وقد استقبله في زيورخ جماعة هوتنجن للقراءة، ومنهم رئيسها الدكتور هانز بودمر Bodmer. وكان تصريح إقامته يمتد إلى 21 يونيو ١٩١٩، أي أنه صالح لعشرة أيام فقط من وصوله. ونزل رلكه في فندق Eden am Lac. ونظرا إلى قصر هذه المدة، أفكر رلكه أولا في تمديدها قبل أن يحدد موعدا لمحاضرته في زيورخ. لهذا قرر أن يسافر إلى نيون Nyon ليلتقي هناك بالأصدقاء الذين يستطيعون مساعدته على تمديد الإقامة.

وهكذا سافر رلكه إلى نيون. وأقام بها من 16 إلى 18 يونيو ضيفا على الكونتيسة ماري دوبرشنسكي، وحيث التقى أيضا بسيديا نادهرني وتباحث هؤلاء في خير حجة يمكن التذرع بها لتمديد الإقامة. ووجدوها في تقديم شهادة طبية!! واقترح الطبيب أن علاج رلكه يحتاج إلى شهرين أو ثلاثة. وكتب رلكه إلى السيدة كازاني في هذا الشأن فقال: «الطلب يأخذ الآن طريقه الرسمي من نيون إلى برن Bern» («رسالة إلى السيدة كازاني» في 18 يونيو ١٩١٩). وواصل كلامه قائلا: «أما أن أبقى في نيون، فهذا أمر صار موضوعا للشك. ذلك أن قلقا يعصف بي، مصدره في الحقيقة هو التعب.

وثم سبب اخر هو أنني لا أعرف ماذا أفعل بحريتي بعد هذه السنوات الخمس من السجن الألماني».

ويقول عن مقامه في نيون «كان البيت الصغير (الذي أقمت فيه) في

نيون مليئا بالضيوف والزيارات في البداية، فانتقلت إلى جنيف». (رسالة إلى إيليا نفار Elya Navar بتاريخ 23 يونيو 1919). وأقام رلكه في فندق ريشموند الفاخر في جنيف في المدة من 19 إلى 25 يونيو 1919. وهنا أيضا زار الرسامة بلادن (موكي) كلوسوفسكي Baladine (Mouky) Klossowskay التي كان قد سبق له التعرف إليها في باريس. وهي زوجة مؤرخ الفنون الدكتور إريش كلوسوفسكي Erich Klossowskay ، وكان معها ولداها بيير Pierre وبالتوش Baltuz، كلوسوفسكي، الذي سيصبح فنانا كبيرا. وحضر وهو في جنيف محاضرة ألقاها بول برنكوف Birnkoff وهو روسي كان من أصدقاء تولستوي.

في برن

سافر رلكه إلى برن Bern. وأقام فيها، للمرة الأولى في حياته، من 25 يونيو حتى 9 يوليو. وسكن في أفخم فنادقها وهو Hotel Palace Bellevue الذي لا يزال حتى اليوم أفخم فنادق برن. وقد أعجب بعراقة برن ورصانتها، فقال في رسالة إلى السيدة كازاني (بتاريخ 27 يونيو 1919) إنه وصل إلى برن «هذه المدينة الجميلة، التي فيها أدرك لأول مرة ماذا تستطيع مدينة متزنة منظمة بورجوازية أن تنتج، في أزمان معينة، من وقار ورزانة: إن كل هذه البيوت العتيقة هي ضمانات وشواهد على الإرادة الخيرة في كل فرد من أفرادها، وكيف تكافلوا بعضهم مع بعض. وهذا دليل على إرادة مشتركة وتفاهم متبادل. وهذه النافورات البورجوازية التي توزع المياه بوعي ذاتي وكرامة كبيرة، وكذلك طبيعتها المتناقضة مشمولة في الصمود الجليل لوجودها الملائم»

وأثناء إقامته في برن، زار قصر جوملنجن Gumlingen، وزار الآنسة اليصابت فون جونتسنباخ Elisabeth von Gonzenbach في ضيعتها الصغيرة في ضاحية موري Muri (التي صارت الآن جزءا من برن الكبرى)، وهي سيدة جميلة جدا، وعجوز جدا جدا، -كما قال رلكه.

في زيورخ

وفي 9 يوليو 1919 سافر إلى زيورخ، وأقام فيها حتى 24 يوليو. وسكن في أفخم فنادقها وهو فندق Baur au Lac. وكان في عزمه أن يعالج نفسه في إحدى مصحاتها.

وقد كتب إلى السيدة كازاني (بتاريخ 17 يوليو) مقارنا بين برن وزيورخ فقال:«زيورخ ليست مثل برن. وليس هاهنا ما أتعلمه إلا القليل، ولا أستطيع حشد خاطري: إني مشوش الخاطر. حزين، سهل التشتت. ويزورني الكثير جدا من الناس». ومن بين من لقيهم في زيورخ نذكر: بوزوني، والرسام جان لورسا Lurcat (1892- 1966)، والكونتيسة زايلرن Seilern، وعالم البيولوجيا أدولف كيلش Koelsch.

في الإنجادين

ومن 24 حتى 29 يوليو 1919 أقام رلكه في إقليم الإنجادين Engadin (جنوب شرقي سويسرا) الذي كثيرا ما أقام فيه نيتشه. وهنا زار رلكه السيدة انجا يونجهانز Inga Junghans وزوجها الرسام راينهولد يونجهانز (1884-1967). وزار مدينة سان مورنس الشهيرة. ومنها سافر إلى سلز ماريا Sils-Maria، القرية التي كان نيتشه يقيم فيها وهو في الإنجادين (راجع كتابنا: «الحور والنور»، القاهرة 1951).. وتجولت في شبه جزيرة شاسته Chaste التي فيها يوجد تمثالا حجري كبير كتبت عليه قصيدة نيتشه التي مطلعها: «أيها الإنسان انتبه..»».

وقد وصف رلكه رحلته هذه في ربوع إقليم الإنجادين. وذكر أنه استطاع الصمود لتجربة المرتفعات العالية-وكان رلكه يخشاها ويؤثر السهول والأودية فقال: «إن تجربة الهواء العالي قد اجتزتها بنجاح. والمتاعب الجسمانية التي سافرت بها من زيورخ قد اختفت في اليوم الأول. فقد ذهبت وصعدت، ونمت بسهولة لا مزيد عليها». واستمر قائلا في هذه الرسالة التي بعث بها إلى إيفون دي فاتنفيل Jvonne de Wattenwyl(بتاريخ 1919/8/1) «وفي ثالث يوم كنا في وادي فكس Fex-Thai الرائع فشاهدت وردا جبليا ينبثق عن شقوق في الجبل... ويوجد هناك فنان يعمل في عزلة وصمت. وتمنيت أن أتعرف إليه، منذ أن حدثوني عنه في زيورخ. وتصوري أن المصادفة جاءت بي إلى منضدته في «الشمس» في فكس بلانتا».

في سوليو

وسافر رلكه - مرورا بممر مالويا Maloja، وخلال غابات من القسطل، إلى سوليو Soglio، حيث نزل في قصر سالس Salis الذي كان يسمى آنذاك باسم بنسيون فلي Willy . وشاهد في سوليو- من بين النزلاء في هذا البنسيون،

السيدة جودي نيلكه Gudi Nolke ومعها أولادها. وسيتبادل رلكه الرسائل معها فيما بعد، وقد نشر من هذه الرسائل 46 رسالة. كذلك تعرف هناك إلى الأستاذ هنري لودكس Ludekes، الذي كان آنذاك مدرسا في مدرسة الكانتون في شفهاوزن Schaffhausen. وقد كتب عن لقائه هذا مع رلكه في جريدة Na tionalzeitung التي تصدر في بازل (بتاريخ 22 أغسطس 1937).

وتصفح رلكه تاريخ آل سالس Salis. فعجب لكون هذا التاريخ لا يذكر إلا الرجال المشاهير من هذه الأسرة، ولا يقول أية كلمة عن أية امرأة، ولا عن أمهات المشاهير من آل سالس، ولا عن أي شاب مات في ريعان الشباب ولا عن أي طفل. وهذا «تاريخ». أي هوى، وأي انتصار للنسيان. (من رسالة إلى إيفون دي فاتنفيل، نحو أول أغسطس 1919).

وقد كتب رلكه عن مقامه في سوليو وعن الأسابيع الأولى التي قضاها في سويسرا فقال (في تقرير كتبه إلى سيديا نادهرني بتاريخ 1919/8/5):

«والآن سوليو هي أول مكان استراحة لي. إنها وكر جبلي، يتألف من ثلاثين منزلا، تغطيها صفائح صخرية من جبال جنايس Gneisgebirg وفيها كنيسة قديمة (هي مع الأسف بروتستنتية وخاوية)، والفندق فيها هو قصر سالس Salis العتيق بزخارفه الخشبية المحفوظة، والمقرنصات وأثاثه الموروث في غالبيته. والمناضد من المرمر، والأعمدة.. والصور، والسلم الحجري القديم، وقاعة الطعام ذات القبة-ثم الحديقة الفرنسية في الشرفة».

لكن تصريح إقامته في سويسرا ينتهي في 15 أغسطس لهذا يكتب إلى إيفون دي فاتنفيل ملتمسا منها العمل على تمديد إقامته لفترة أخرى. ويقول إن الدكتور بودمر Bodmer، رئيس جمعية القراءة، كتب إليه يطلب منه ألا يغادر سويسرا قبل أن يفي بوعده بإلقاء محاضرة أو أمسية قراءة شعرية في هذه الجمعية في زيورخ ويقترح عليه أن يبدأ موسم المحاضرات المقبل الذي سيكون في مستهل نوفمبر 1919. وإذا وافق رلكه فإن الدكتور بودمر سيتوسط لتمديد ترخيص الإقامة.

وبفضل مساعي زوج السيدة إيفون دي فاتنفيل أمكن تمديد إقامة رلكه فكتب إليها يشكر لها (بتاريخ 8/21) ويقول: «أن أسكن مثل هذا المنزل طوال عام كامل أنا وحدي! هذا ما سيحقق كل أماني». وقد قرأ رلكه في مكتبة هذا القصر- قصر آل سالس -كتاب كارل اشبتلر[1] Spitteler

(1845/4/24- 1924/12/29) وعنوانه «بروميثوس وابيميثيوس».

ويقول رلكه عن اشبتلر: «ياله من شاعر! إن الرؤية لديه متمكنة من نفسها، وهو يسوق أفكاره بصفاء وتجديد. إني مندهش. وبعد ذلك في «الحقائق الباسمة» (الذي ظهر من قبل) نجد أن استغلاله لمواهبه الرائعة يتسم بالغضب والذكاء والانقضاض، كيف يمكن تفسير ذلك؟ (كلا! إني أعيد النظر في قراءة تاريخ ظهور هذا الكتاب. الواقع هو أن كتاب «الحقائق الباسمة» ظهر بعد كتاب «بروميثيوس وابيميثيوس» بثماني عشرة سنة لكن يالها من مرارة شديدة)».

ويجدر بنا هنا أن نورد نبذة أطول عن هذا الشاعر. إن كارل اشبتلر Carl Spitteler شاعر سويسري ولد في 24 أبريل 1845 في مدينة ليستال Liestal وتوفي في 28 ديسمبر سنة 1924 في مدينة لوتسرن Luzern. وعمل مربيا في روسيا من سنة 1871 حتى 1879، ثم مدرسا. ومنذ سنة 1885 عمل في تحرير الصحف في سويسرا. ثم أصبح-ابتداء من سنة 1892كاتبا حرا.

وكان شاعرا خصب الخيال،. ثريا بالأفكار. واتخذ لنفسه في الشعر شكل «الملحمة الفلسفية الأساطيرية». وخير ما في هذا المجال «ملحمة الربيع الأولمبي» (1900-1905) في أربعة مجلدات. وقد أعاد صياغتها في سنة 1910 في جزأين. وكتب بالنثر الإيقاعي ملحمة «بروميثيوس وابيميثيوس» (1881) في مجلدين، وقد أعاد كتابتها شعرا من بعد، وظهرت بعنوان «بروميثيوس الصابر» في سنة 1924، وهي السنة التي توفي فيها-وذلك على غرار الملحمة الأخيرة «الربيع الأولمبي».

وله مجموعات شعرية نذكر منها «الفراشة» (1889)،«بلادان» Balladen (1896)، «أناشيد الناقوس»(1906) وفيها يتغلب الطابع الملحمي الفكري على الطابع الغنائي. وله أيضا قصص، نذكر منها «الملازم كونراد» (1898)، «اماجو» Imago (1906). وكتب مقالات جمعت بعنوان «تجاربي الحية الأولى»(1914). وقد حصل على جائزة نوبل Nobel في الآداب سنة 1919. واتخذ موقفا حياديا جدا إبان الحرب العالمية الأولى، وذلك في كتابه «موقفنا نحن السويسريين» (1915) مما أثار عليه ثائرة القوم في ألمانيا.

وقد اتخذ رلكه من هذه المكتبة ملاذا له من صخب الأطفال في بنسيون فلي (قصر سالس سابقا) في قرية سوليو. وقد وصفها بأنها «أقل الأماكن

في البيت عرضة للضجيج، وفيها منضدة قوية، وكرسي ساند فاخر... وعلى الجدران رفوف من الكتب تتصاعد حتى السقف. وكان من حقي أن أفتش فيها وأن أتعفر بترابها. وأحدث ما في هذه الخزانة من الكتب يرجع إلى عصر نابليون. وحدودها التاريخية الأقدم ربما ترجع إلى القرن السادس عشر. وقد استخلصت من بين أترابها كتابين من طبعات مطابع ألدي Aldi وألزفير Elzevir». وفي هذه المكتبة قرأ بعض التقاويم السنوية Almanachs ودواوين شعر من القرن الثامن عشر، كما قرأ بعض مؤلفات عالم النبات السويدي لنيه Linne. وذكرته سوليو بإقامته في إسبانيا.

ولما كانت سوليو في المنطقة الإيطالية من سويسرا، فما كان أسهل عنده من تذكر إقامته الجميلة في إيطاليا! إنه في سوليو أقرب ما يكون إلى جمال سماء إيطاليا. لهذا كان كثيرا ما يتذكر، وهو في سويسرا، أصدقاءه في فينيسيا، ودوينو، وسائر أنحاء إيطاليا.

ومن بين الكتب التي قرأها في سوليو وأثرت في نفسه كتاب «تخريب أوروبا» تأليف فلهلم ميلون (1878- 1944 Wilhelm Muhlon) الذي كان يشغل منصبا قياديا في مصانع كروب Krupp ألمانية الشهيرة. وقد طبع هذا الكتاب في زيورخ سنة 1908عند الناشر أورل فوسلي Orell Fussli. وكان رلكه قد لقي ميلون في برن. وقد كتب إليه رلكه، بعد قراءته لهذا الكتاب قائلا إنه لو كان قد قرأ «مثل هذه العبارات الحافلة بالقلق وبالضمير، لكنت قد شعرت بمعرفة وتقوية... لقد صارت عباراتك لي اليوم مفهومة وضرورية... وأرى أنه ينبغي قراءتك من جديد، لأنه على الرغم من أن كل ما تنبأت به وتخوفت منه قد تحقق، فإن الألماني لا يزال بحاجة-على نحو غير متصور- إلى مثل هذه التحذيرات نفسها، فإن تمرده وانعزاله عن العالم، وعدم صموده لم يتغلب هو بعد عليه. نعم! إنه حيث يفكر في ذاته فإنه يعود، بعد كل هذه التغيرات، تماما إلى أخطائه القديمة نفسها، ويرضى عن نفسه فيها الآن مثلما فعل في الماضي... إن نفوذ نظرتك ودقة تعبيراتك تجعل من كتابك كتابا رائعا خارقا للمعتاد: لكنه من حيث الاعتراف هو جواب بسيط صادر عن الطبيعة الألمانية. وويل لها، ويل لها أنها لم تتعرف ذاتها فيه، ولم تجد نفسها من خلاله»(من رسالة إلى فلهلم ميلون بتاريخ 8/19/ 1919، مرسلة من سوليو).

وفي أغسطس 1919 كتب رلكه -وهو في سوليو-قطعة نثرية بعنوان «الضجة الأولية». وفي هذه القطعة يتحدث رلكه-انطلاقا من ذكريات عهد المدرسة-في ماهية الشاعر، وعن كيفية استعماله للحواس الخمس. ويثير فيها مشكلة الخلق اللغوي، وكيف تعبر الكلمات مباشرة عن التجارب الحية، وعما يعيشه الشاعر قبل أن تتضاءل تصوراته في العبارة اللغوية. ويتطرق إلى المشكلة نفسها في رسالة كتبها بعد ذلك بعدة أشهر وهو في لوكارنو Locarno فيبحث عن عجز اللغة عن التعبير من التجارب الحية العميقة التي يعانيها الشاعر (رسالة إلى السيدة ناني فرندرلي-فولكرت، من دون تاريخ، ولكنها أرسلت في فبراير 1920).

رلكه من دون جنسية

وفي 10 سبتمبر 1919 تقرر-بموجب معاهدة سان-جرمان Sf. Germain تصفية الإمبراطورية النمساوية. وبهذا صار رلكه من دون جنسية!

جولة محاضرات في سويسرا

وغادر رلكه سويسرا في 21 سبتمبر 1919. وقد قال عن إقامته في سويسرا:

«توديع سوليو لم يكن بالأمر اليسير. فقد انقطع بذلك الكثير مما هو في باطن نفسي. وما كان قد بدأ يملؤني بالسرور: المكتبة العتيقة الصغيرة التي صارت تلائمني أصبحت بمثابة مدعاة للحزن: مثل هذا المكان المهيأ لوحدة طويلة جدا في بيت ملحقة به حديقة.. قد خلقه الله من أجلي أنا. هذا المكان وحده، وليس غيره»(مجموع الرسائل.. ج4 ص 276).

وفي 21 سبتمبر سافر إلى مدينة خور Chur، ووصلها-خلال الثلج والبرد-في الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم. وفي اليوم التالي زار المدينة بصحبة بارون من آل سالس Salis. وكان في نيته أن يسافر من خور إلى ديزنتس Disentis، ومن هناك يستقل عربة إلى جلتش :Gletsch «ولو كان هذا قد تحقق-هكذا يقول رلكه-لكنت قد سرت على الطريق الذي اتخذه جيته Goethe، وإن كان ذلك في الاتجاه المضاد، على طول نهر الرون Rhone لأصل إلى بحيرة جنيف. لكن سفرتي تمت في أيام تغير الجو» (من رسالة إلى السيدة فاتنفيل Wattenwyle بتاريخ 26 سبتمبر 1919).

وبدلا من ذلك، استقل القطار قاصدا لوزان. وغير القطار في زيورخ في يوم 23 سبتمبر، ووصل إلى لوزان في يوم 24 وأعجبه في لوزان أنها ذات

طوابق عديدة، وأن الشوارع فيها صاعدة ونازلة. وقد وجد لوزان «فاتنة وحية جدا» (من رسالة إلى السيدة نيلكه Nolke بتاريخ 1919/9/29).

وفي يوم 9/26 سافر إلى Begnins-Sur-Gland وهو على موعد للقاء بفتاة تدعي مارته Marthe كان قد عرفها في باريس قبل الحرب، ويرد ذكرها مرارا في رسائله. وهو يقول عنها إنه «عثر عليها وهي في سن السابعة عشرة وهي في هاوية البؤس، فصرت أرعاها. إنها عاملة، لكن عقلها وقلبها عامران بذكاء مباشر، لا يوجد إلا عند الفتيات الفرنسيات»(مجموع رسائله جـ 4 ص 275).

وبهذا اللقاء من جديد مع مارته، ترددت في نفسه الرغبة في العودة إلى باريس. وقد تزوجت مارته فيما بعد بالرسام جان لورسا Jean Lurcat (1892-1966).

وبعد سفر مارته، عاد رلكه إلى نيون Nyon في أول أكتوبر 1919، ونزل ضيفا على الكونتيسة دوبرشنسكي. واستعد أثناء ذلك للقيام بجولة محاضرات في ربوع سويسرا، ستبدأ في مساء27 أكتوبر في زيورخ.

وكان رلكه في السنوات العشر الأخيرة لم يحاضر الجمهور علنا. ومحاضراته هي عبارة عن قراءات لبعض قصائده، تسبقها مقدمة نثرية يعرض فيها خواطر عن فن الشعر. وكان رلكه بارعا في إلقاء شعره، ويتسم صوته- وهو من طبقة الباريتون-بالرنين والتجسيم. وأمضى رلكه المدة من 2 إلى 14 أكتوبر في نيون. وقد مددت إقامته في سويسرا حتى 31 ديسمبر 1919.

ولا يسع المرء هاهنا إلا أن يتعجب من موقف السلطات السويسرية فيما يتعلق بترخيص إقامة رلكه في سويسرا!. كيف تبخل على شاعر شهير مرموق ذي مكانة أوروبية رفيعة بالإقامة فيها سنوات وسنوات، بينما هي تسخو في منح الإقامة للجهلاء والنصابين والدجالين من رجال السياسة والمال والتجارة؟!!. ويزداد المرء سخطا على موقف السلطات السويسرية هذا حين يتذكر الآن أن رلكه قد حقق لسويسرا نفسها من الشهرة والتقدير في عالم الأدب، بل وفي مكانتها الفكرية بين دول أوروبا، ما لم يحققه العديدون من كبار الشعراء والكتاب السويسريين أنفسهم. لكن هذه هي حماقة أصحاب السلطة في السياسة والإدارة في كل مكان في العالم: إنهم آخر من يقدرون مصلحة أوطانهم الحقيقية ومقومات كرامة ومكانة أوطانهم. وماذا ينتظر المرء من هذه الوجوه الكالحة، والعقول المتحجرة، والنفوس

الحقيرة في وزارتي الداخلية والخارجية في كل دول العالم!!

ومن 14 حتى 19 أكتوبر، أقام رلكه في جنيف. ولا يعجبه منها هذه المرة إلا مشاهدته فرقة بتوئيف[2] Pitoeff المسرحية، وكان قد شاهد تمثيلها من قبل في لوزان، لكن مركزها هو في جنيف. ويقول رلكه عن مدير الفرقة بتوئيف «إنه روسي، شاب، عبقري. لا يمثل إلا مع زوجته ومجموعة من الأفراد العرضيين. وكل ما يمثله يتكيف مع رؤيته. ويشتمل برنامجه على مسرحيات من مختلف البلدان، وبمختلف اللغات» (من رسالة إلى السيدة نيلكه Nolke بتاريخ 1919/10/22).

ثم سافر رلكه إلى إقليم التسينو Tessino (وهو المنطقة التي تتكلم بالإيطالية في الاتحاد السويسري)، ونزل في بلدة برشاجو Brissago.

في زيورخ

ثم وصل رلكه إلى زيورخ في 25 أكتوبر 1919 ليلقي محاضراته. ونزل هذه المرة في فندق سانت جوتارد St. Gothard، بينما كان في المرة الأولى قد نزل في فندق Eden au Lac.

وفي يوم 27 أكتوبر أخذ في كتابة الاستهلال الذي سيستهل به قراءاته من شعره في ندوة القراءة التي أسمها هوتنجن Hottingen في مساء ذلك اليوم. وقد ألقى محاضرته في قاعة صغيرة، بيعت كل تذاكرها مقدما. وحضر هذه الأمسية الشعرية، من بين أصدقائه:

ألكسندر وكلوتيلد سخاروف Sacharoff، والرسامة ماري لورنسن Laurencin، والرسامة مريانه فرفكين Wereffkin والسيدة كازاني Casani مغنية الكاباريه التي التقى بها على ظهر الباخرة التي أبحر بها في بحيرة كونستانس وهو قادم إلى زيورخ.

ولتنبيه الناس إلى هذه الأمسية، كتب إدورد كورودي Korrodi مقالا في جريدة NZZ (رقم 1641 بتاريخ 1919/10/24) نوّه فيه بالشاعر رلكه، واستغرق المقال عدة أعمدة من هذه الجريدة.

وفي يوم 29 أكتوبر نشر في الجريدة نفسها (برقم 1669 بتاريخ 10/29/ 1919) مقال طويل عن الأمسية الشعرية بقلم د. هانز تروج Hans Trug. وقد ختم المقال بهذه العبارة «وقد أعرب المستمعون عن شكرهم للشاعر في ختام المحاضرة بالتصفيق الحار القلبي. لقد كشف عن نفسه على نحو رائع».

وفي أول نوفمبر ألقى رلكه محاضرته الثانية في النادي الأدبي الندوة القراءة هوتنجن) وفي هذه المرة لم يقتصر على قراءة قصائده ومترجماته، بل قرأ أيضا القطعة النثرية «الضجة الأولية». وكتبت الجريدة نفسها السالفة الذكر- NZZ -إطراء آخر على هذه الأمسية الثانية (عدد رقم 1720 بتاريخ 1919/11/7).

وفي 3 نوفمبر تعرف رلكه إلى سيدة فاضلة ترتبط بها إقامته في سويسرا ارتباطا وثيقا حتى وفاته، هي السيدة ناني فوندرلي فولكرت Volkeart Nanny Wunderly (1878-1962). ابنة جيورج جوتفريد فولكرت (1850- 1928) الذي كان شريكا في شركة مصنع فولكرت Volkart من سنة 1875 حتى 1908. أما زوجها فهو هانز فوندرلي (1871-1941) الذي كان يملك مدبغة في قرية مايلن Meilen على بحيرة زيورخ. وكانت أمه من أسرة فون مورالت Von Muralt الكبيرة الشهيرة في سويسرا.

والسيدة ناني فوندرلي هي بنت خال فرنر راينهرت Reinhart (1884-1951) الذي سيشتري في 9 مايو 1922 قصر ميزو Muzot ويضعه تحت تصرف رلكه للسكنى فيه طوال حياته.

وفي اليوم نفسه -3 نوفمبر 1919- يهدي إليها رلكه ترجمته لسوناتات(3) من البرتغالية»، تأليف إليزابث بارت براوتنج، مع قصيدة مطلعها:

«أوه! حينما القلب الساكن طويلا في الفطام...»

وأثناء أمسية راقصة عند آل سخاروف، ينصحه آل سخاروف، وكذلك مريانه فيرفكن، بأن يتوجه إلى السيدة الفير باخراخ التي تملك بيتا في أسكوتا، كيما يقيم هناك أثناء فصل الشتاء.

وفي 7 نوفمبر، وهو في سانت جالن St. Gallen، يكتب فعلا إلى السيدة باخراخ في هذا الشأن فترد عليه السيدة باخراخ بالموافقة.

في سانت جالن

وهذا يقودنا إلى سانت جالن، في أقصى شمال سويسرا (على الحدود مع ألمانيا)، حيث ألقى رلكه في مساء7 نوفمبر محاضرة (قراءة أشعاره) في جمعية متحف سانت جالن. ويقدم للقسم الثاني منها بدراسة عن رجينا أولمن.

في فنترتور

وسافر إلى فنترتور Winthertur في 8 نوفمبر لحضور تمثيل من بتوئيف

الذي دعاه آل راينهرت Reinhart إلى قصرهم هناك في فنترتور. وتعرّف رلكه إلى هانز راينهرت (1880-1963). الابن الثاني للدكتور تيودور واينهرت، وزوجته السيدة للي Lilly فولكرت. وكان هانز واينهرت مشجعا للأدب والمسرح، وله مؤلفات مسرحية. وكان يشرف على إصدار الكتاب السنوي لاتحاد الأدباء في فنترتور.

وبهذه المناسبة نذكر أن أسرة راينهرت كانت على علاقة وثيقة مع مصر طوال أكثر من خمسين عاما، لأنها كانت من كبار مشتري القطن المصري، وكانت تغزله وتنسجه في معاملها في فنترتور. وكان لها مكتب تصدير للقطن في الإسكندرية قبل الستينات.

وإلى جانب هانز راينهرت، تعرف رلكه في ذلك المساء إلى أكبر أخوته ومدير المصانع في شركة أخوة فولكرت: جيورج راينهرت (1870- 1955)، وكذلك إلى أصغر الأخوة وهو أوسكار راينهرت (1885- 1965) الذي كان من هواة جمع التحف الفنية وخبيرا عارفا بالفن. وقد أتيح لي زيارة متحف الأسرة في فنترتور في شهر مايو 1956 مع أعضاء مؤتمر الفنون المنعقد آنذاك في عدة مدن من سويسرا (بازل، برن، زيورخ) حينما كنت مستشارا ثقافيا في السفارة المصرية بسويسرا (من أول مارس 1956 حتى 23 نوفمبر 1958).

في لوتسرن

وفي يوم 12 نوفمبر يلقي رلكه بعض قصائده في «الاتحاد الحر للمتفقين في الرأي»-بمدينة لوتسرن Luzern-أجمل مدينة في العالم في نظري أنا- وبعد المحاضرة نزل ضيفا على السيدة فاني هلِّر أمان Ammann Fanny Heller (1847-1946) -زوجة ألفرد هلر في لوتسرن. ويقول رلكه عن هذه المحاضرة في رسالة إلى السيدة فوندرلي: «لم يحضر أحد من الأسر العريقة هنا. لكن حضر الكثير من الطلاب والطالبات، وكثير من الشباب عموما». ويبدي رلكه إعجابه الشديد بمتحف الصور الموجود في الجسر القديم القائم على البحيرة في لوتسرن.

في بازل

وينظم اتحاد اسمه Quodlibet في بازل أمسية قراءة شعرية لرلكه فيلقي أشعاره هناك في 14 نوفمبر. وهناك تعرف إلى أسرتين عريقتين في بازل، هما آل بوركهرت شاتسمان Burckhardt Schatzmann، وآل فون در مول Von

Der Muhl. وقد قدمته إليهما الآنسة إمي فون إجيدي Emmy Von Egidy (ولدت سنة 1872، وهي ابنة كرستوف فون اجيدي (1847- 1898) وكانت رسامة وصديقة لكلارا، زوجة رلكه). وفي سنة 1922 كانت تسكن مع أمها في قرية Gloekenrhal بنواحي تون Thun)(التي تقع على بعد 20 كم من برن).

وقد نوّة بمحاضرة رلكه في بازل اثنان هما: كنوخل E.F.Knuchel في مقالة ظهرت في جريدة «بازلر ناخرشتن» (عدد 492 بتاريخ 16 نوفمبر 1919)-وفالتر لوماير Walther Lohmeyer في جريدة «ناشيونال اتنبابتونج» (برقم 518 في 1919/11/16).

وقد تحدث رلكه، في الشطر الثاني من محاضرته عن صداقته مع رومان رولان، وعن تجربته في الليل أمام تمثال أبي الهول في الجيزة (وقد رويناها بالتفصيل).

وأقام له بعض الفنانين حفلة في مرسم اشتوكلن Stoecklin وشاهد في بيت السيدة فانت كلافل Fanette Clavel عازفة البيانو الشهيرة فاندا لاندوفسكا Wanda Landowska (1877- 1959).

في برن

وسافر رلكه إلى برن Bern، وقضى فيها من 17 إلى 26 نوفمبر سنة 1919. وألقى تلاوة من أشعاره في قاعة المجلس الكبير. وفي يوم 26 التقى بقنصل النمسا في برن أدجر فون اشبيجل Edgar Von Spiegel.

في فنترتور Winterthur

وختم رلكه هذه الجولة من المحاضرات-في شتى مدن سويسرا-بمحاضرة ألقاها في قاعة المسرح في كازينو فنترتور. وكمدخل للقسم الثاني منها تحدث عن رودان Rodin وعن سيزان Cezanne وفي فنترتور أقام عند هانز وفرنر راينهرت في قصر ريشنبرج Rychenberg وزار أخاهما الأكبر جيورج راينهرت. وبهذا توطدت علاقته بالأخوة الثلاثة من آل راينهرت.

وقد حفظ لنا من مراسلاته معهم 43 رسالة وبرقيتان إلى فرنر، و40 رسالة وبرقية واحدة إلى جيورج.

العودة إلى زيورخ

ومن فنترتور سافر إلى زيورخ المجاورة، فأمضى فيها من 1 إلى 7 ديسمبر 1919. ومن هناك كتب إلى ناشره كبنبرج يخبره عن مجرى جولته للمحاضرات،

فقال: «كان مجموع الأمسيات سبعا. وكانت جيدة كلها. وبعضها أثار الدهشة. لقد اتخذت مسلكا كان قوي التأثير في الإنسان السويسري، الذي هو سميك جاف ومن العسير النفوذ في دخيلة نفسه. إذ لم أكتف بتلاوة قصائد، بل كنت أقدم لها بمدخل عام، كان هو هو نفسه تقريبا في كل مكان؛ بينما كنت في القسم الثاني من الأمسية أرتجل حديثا يتناسب مع المكان».

فهو في بازل تحدث عن باخوفن Bachofen(1815-1887) أستاذ القانون الروماني في جامعة بازل، والفيلسوف الاجتماعي. وفي فنترتور تحدث عن الرسام سيزان (1839-1906). وفي سانت جالن تحدث عن رجينا أولمن Ullmann(1884-1961) الشاعرة السويسرية.

وأثناء هذه الإقامة في زيورخ التقى رلكه مع كارل بوركهرت Burckhardt (1891- 1974) الدبلوماسي السويسري والمؤرخ، وصديق هوفمنزتال، ومع أخت بوركهرت السيدة تيودورا فون در مولد Theodora Von Der Muhl (ولدت سنة 1896). كذلك تحدث مرارا مع الأمير ألكسندر هوهنلوهه.

في إقليم التسينو Tessino

وفي الفترة من 7 ديسمبر 1919 حتى نهاية فبراير 1920 أقام رلكه في إقليم التسينو، وهو القسم الناطق بالإيطالية في سويسرا. وبدأ بالإقامة في مدينة لوكارنو Locarno، وكان يعيش فيها انذاك ملك بافاريا السابق.

وفي يوم 8 ديسمبر قام بالزيارة الأولى لآل باخراخ Castello San Maternc ليعاين البيت المخصص له. فلاحظ أن «المسكن أوّلي جدا، يتألف من حجرتين صغيرتين جدا، قائمتين في مبنى هو بمثابة إسطبل وكاراج، يلاصق بوابة البستان القديم» (من رسالة إلى السيدة فوندرلي بتاريخ 1919/12/9). والأرضية من القرميد البارد، والمدفأة من الحديد ولا تؤذن بدفء كثير. لهذا رفض رلكه الإقامة في هذا البيت، واثر الإقامة في بنسيون صغير وراء فندق جراند أوتيل، يحتوي على غرفتين: غرفة نوم، وغرفة مكتب، وأرضية كلتيهما من الخشب، وفي كل واحدة منهما مدفأة من الخزف. وهو بنسيون فلا مورالتو Villa Muralto. فانتقل رلكه من فندق جراند أوتيل إلى هذا البنسيون في 17 ديسمبر.

وكانت صاحبة هذا البنسيون سيدة سويسرية متزوجة من مهندس ألماني قتل في الحرب، وتدعى السيدة راتسكه Ratzke.

طبعات جديدة من كتبه

وفي عام 1919 ظهرت الطبعات الجديدة التالية من كتبه:

1- «سفر الصور»-الطبعة السابعة.

2- «أوجيست رودان» -الطبعة من 16 ألف نسخة إلى 25 ألف نسخة، مع إضافة فصل عن وفاة رودان Rodin.

3- «قصص الله الطيب»، الطبعتان السابعة والثامنة.

4- «نشيد حب وموت حامل العلم كرستوف رلكه»-الطبعة من 161 ألفا إلى 180 ألف نسخة.

5- «قصائد جديدة» الطبعة من 7 آلاف إلى 9 آلاف نسخة.

6- «القسم الآخر من القصائد الجديدة» -الطبعة من 6 آلاف إلى 8 آلاف.

7- «رثاء» Requiem-الطبعة الثالثة.

8- ترجمة «القنطور» لموريس دي جيران، الطبعة الثانية.

9- «صحائف مالتي لوردز برجه»-الطبعة من 9 آلاف إلى 12 ألف نسخة.

10- «حب المجدلية» -الطبعة الثانية.

11- سوناتات اليصابت بارت براوننج عن البرتغالية-في مجموعة Insel الصغيرة تحت رقم 252.

12- «القصائد المبكرة» (مع زيادات) -الطبعة من 8 آلاف إلى 10 آلاف.

13- «القصائد الأولى» الطبعة من 4 إلى 6 آلاف.

وظهرت ترجمة إنجليزية لكتابه «أوجيست رودان»-وذلك في نيويورك. كما ترجمت مختارات من قصائده إلى الروسية. وقام بهذه الترجمة A.Birk في مدينة أودسا. وأصدر الناقد السويسري روبرت فايزي Robert Faesi. دراسة بعنوان: «راينر ماريا رلكه»، ظهرت عند الناشر Amulthea-Verlag في زيورخ. وفي 28 ديسمبر 1919 توفيت الراقصة فيرا أوكافا كنوب Vera Quckawa Knoop (1900-1919) في منشن. وسنتحدث عنها بمزيد من التفصيل فيما بعد.

في ضيعة – شينبرج Schonberg
بنواحي بازل

وقد أقام رلكه في لوكارنو حتى 27 فبراير 1920. ولم يطرأ عليه في هذه الفترة من الأحداث ما يستحق الذكر، اللهم إلا لقاءه مع أنجيلا جوتمن Angela Guttmann وهي امرأة روسية غريبة الأطوار، قصيرة. التقى بها رلكه

في أول يناير 1920 في مكتبه في مدينة لوكارنو. وكانت قد نشئت عند جدتها. ولما بلغت الثالثة عشرة أصابتها لوثة دينية متطرفة. فراحت تتعلم اللغة العبرية، واعتنقت الديانة اليهودية، فانقطعت علاقتها مع أسرتها. وتزوجت أول مرة من شقيق عازف الكمان برونسلاف هوبرمن. وأنجبت منه أولادا، وعاشت في روسيا في فقر مدقع. ثم تزوجت مرة ثانية من شخص يدعى جوتمن، من برلين. ثم عاشت بعد ذلك في لوكارنو هي وخادمة لها. وعانت من آلام في الرئة والقلب. وكان عمرها، حين لقيها رلكه، 29 سنة. ثم ماتت بعد ذلك بقليل في مدينة دافوس Davos (سويسرا). وقد عطف عليها رلكه، والتمس من جيورج راينهرت معونة مالية لها، فبادر جيورج راينهرت بإرسال مبلغ من المال إليها في 23 يناير 1920.

وفي 28 فبراير 1920يسافر رلكه إلى بازل فوصلها في أول مارس. وأقام في يومي أول وثاني مارس في قصر الفرسان عند السيدة بوركهرت-شاتسمان، والدة كارل بوركهرت وتيودورا فون در مول السابقي الذكر.

ومن 3 مارس حتى 17 مايو 1920 أقام رلكه في ضيعة شينبرج بقرية براتلن Pratteln في نواحي مدينة بازل. وهذه الضيعة ملك للسيدة هيلانة بوركهرت-شاتسمان. وكانت ابنتها السيدة فون درمول قد دعت رلكه للإقامة هناك ضيفا عليها. ويصف رلكه قصر شينبرج فيقول (في رسالة إلى السيدة فوندرلي بتاريخ 3 مارس): «القاعة أطول من ثلاث عشرة خطوة، وتمثل جناحا كاملا من البيت الريفي القائم الزاوية. وهذا البيت بني في سنة 1764».

وينتهي تصريح إقامة رلكه في سويسرا في1920/3/31، فيسعى من جديد لتجديده. وفي يومي 13 و 14 مارس تزوره السيدة فوندرلي في شينبرج. وفي 15 مارس يقدم تنكمار فون مونشهاوزن وينزل ضيفا في شينبرج وكان تنكمار (ولد سنة 1893) كاتبا، ودكتورا في الفلسفة. وكان يعيش في بون Bonn (ألمانيا).

ويسافر رلكه بصحبة هانز وتيودورا فون مول إلى ليستال Liestal لتمديد إقامته، فيحصل على تمديد للإقامة حتى 1920/5/17 (أي لمدة 46 يوما فقط!!) وهو موعد انتهاء صلاحية جواز سفره الألماني النمساوي. ولهذا يكتب إلى سيديا نادهرني (بتاريخ 22 مارس) ليستشيرها في هذا الأمر ويسألها: أليس الأفضل لي أن أسعى للحصول على جواز سفر «تشيكوسلوفاكي؟».

وهذه المشكلة سيتولى أمرها د. هانز بوخلى Hans Buchli، صديق السيدة نيلكه Noelke. إذ اتصل بالقنصلية التشيكية، ثم بالسفارة التشيكية في برن لهذا الغرض. وقد أرسل إليه رلكه رسالة بتاريخ 7 أبريل يشكر له فيها مساعيه في هذا الموضوع.

ويستبد القلق برلكه أكثر فأكثر حول هذا الموضوع، لأن حكومة بافاريا أصدرت قرارا يقضي بطرد كل الأجانب الذين وفدوا على بافاريا بعد 1914/8/1، وهو قرار ينطبق على رلكه. ولهذا لم يعد في وسعه العودة إلى منشن. لهذا تراه في رسالة إلى بوخلي (بتاريخ 25 أبريل) يلح في الرجاء منه أن يولي الأمر كل اهتمامه لسببين: الأول سوء صحته، والثاني: القرار الصادر من حكومة بافاريا.

ويأتي الفرج في 11 مايو 1920، إذ يحصل رلكه على جواز سفر تشيكوسلوفاكي. فسافر إلى ليستال Liestal في يوم 12 مايو لتمديد إقامته بناء على جواز سفره الجديد هذا. فحصل على تمديد للإقامة حتى 11 يونيو. وفي الوقت نفسه قدم طلبا للحصول على إذن بالإقامة في سويسرا لمدة عام آخر. وكان السفير التشيكوسلوفاكي الذي منحه جواز السفر يدعى Dr. Cyril Dusek. بيد أن جواز السفر هذا قد أصدر للإقامة في سويسرا فقط. ولهذا لا يدري رلكه هل يستطيع به أن يسافر إلى خارج سويسرا. فأخبر الأميرة ماريه تاكسس بهذا الوضع قائلا: «أخيرا حصلت الآن على جواز سفر تشيكوسلوفاكي، لكنه صادر للإقامة في سويسرا فقط. لهذا لا أستطيع أن أقول هل يصلح للسفر إلى فينيسيا؟! وسأخبرك بالجواب في هذا الصدد» (رسالة بتاريخ 21 مايو).

وفي 27 مايو 1920 وصل هوفمنزتال مع زوجته وابنته إلى بازل، ونزلت ضيفا على آل بوركهرت في شينبرج.

في فينيسيا Venezia

حصل رلكه -في 8 يونيو-على تأشيرة دخول إيطاليا. وفي 10 يونيو سافر مباشرة إلى فينيسيا، حيث كاذت تنتظره الأميرة ماريه تاكسس. ومن 11 يونيو حتى 15 يوليو أقام رلكه في فينيسيا: أولا حتى 6/22 في فندق أوروبا، وبعد ذلك في قصر فلمارانا Vilmarana الذي تملكه الأميرة ماريه. وقد وصف رلكه اللقاء من جديد مع الأميرة ماريه بأنه كان «حسنا على

نحو خارق للعادة.. وكان الإحساس بالعرفان تاما يوما بعد يوم» (من رسالة إلى الأميرة بتاريخ 1920/7/23). وكانت الأميرة قد استضافت موسيقارا هو فالتر كرشباور Walter Kirchbauer. ولهذا نعم رلكه بالعزف الموسيقي. وفي رسالة منها بتاريخ 20/8/12 قالت لرلكه: «أنا أشاهد معك «مريم المقدسة في المجد» و«جنة عدن» والأقمشة-هذه الأقمشة من الأحجار الكريمة-كان ذلك مدعاة سرور عظيم، عظيم، وأن أسمع موسيقى هايدن Haydn تعزف على اسبينتا[4] Spinetta-والأمامي في ساحة سان ماركو».

وسافرت الأميرة في 22 يونيو. فانتقل رلكه من الفندق إلى قصر الأميرة بعد سفرها، كما اتفقا على هذا من قبل. ووجد رلكه مكتبه القديم (طراز لويس السادس عشر). وقد كتب إلى الأميرة، بتاريخ 23 يونيو يخبرها أنه انتقل إلى قصرها، وقال: «إني أشعر في عودتي إلى هذا المكان بمعان لا توصف. ولما كنت أحس بأن كل شيء قد بقي على حاله، فإن هذا يبدو لي نوعا من استعادة النشاط». وبفضل مساعي الكونت اتسس 1945 - 1885(Zech) وهو دبلوماسي، وكان متزوجا من «إيزا» Isa، ابنة تيوبلد فون تيمن -هولفج -حصل رلكه على تصريح بالعودة إلى منشن، كما كتب رلكه بذلك في رسالة إلى اليانيفا بتاريخ 1920/6/23.

وقد كتب من فينيسيا يقول: «لم يتغير أي شيء... بل ظل كل شيء كما كان عليه منذ سبع سنوات. وهذه الفترة تبدو-بإزاء كل ما وقع -خيالية إلى درجة أن الكونتيسة فلمارانا Vilmarana، وهي تتكلم عن لقائنا الأخير، استخدمت عبارة: «في العام الماضي».

وكتب إلى ناني -فوندرلي فولكرت (بتاريخ 6 يوليو) يقول: «ربما لن أستطيع أن أقضي (ولأسباب مالية أيضا) غير وقت قصير جدا هنا في سويسرا، وربما أياما قليلة فقط، وبعد ذلك أسافر إلى منشن (حيث صار من حقي الآن العودة إليها، كما تقدرين أن تعرفي ذلك من الجرائد). وربما أسافر بعد ذلك إلى بوهيميا-لاوتشن، ثم ليبتسج Leipzig. عند الناشر. ثم... ما بعد ذلك لا أستطيع أن أتنبأ به».

وبعد ذلك بيومين، كتب إليها (بتاريخ 8 يوليو) بأنه لا يريد أن يظل مسافرا، بل يود الاستقرار في مكان. وغادر فينيسيا في 13 يوليو 1920، ولم يعد بعد ذلك إلى إيطاليا إلا في أواخر أغسطس 1925.

في نواحي زيورخ

وتوجه إلى زيورخ. والتقى هناك بالسيدة ناني فوندرلي. وقام برحلة إلى برستنبرج Berstenberg على بحيرة هلفيل Hallwyler See. وسجل، في قصر هلفيل بيتا من الشعر وتواريخ حياته منقوشة على قبر هانز فون هلفيل.

في بازل وبراتلن

ثم مضى إلى بازل في 17/7، فأمضى بها ليلة. وفي الغداة سافر إلى شينبرج عند آل بوركهرت. وهناك يقرأ حياة دوستويفسكي (1821-1881) بقلم ابنته Aimee وقد ترجمت إلى الألمانية مباشرة عن المخطوط الفرنسي الأصلي. وأخبر بذلك الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 23/7) فقال: «إن المقدمة القصيرة التي كتبتها الآنسة دوستويفسكي، لا تزال تحيا في الظروف السلافية التي عاش فيها أبوها، وتفسر الأحوال الروسية الحاضرة في ضوء تلك الظروف. إن «الموجيك» (الفلاح) الروسي هو العنصر الصامد والبناء في روسيا دائما. وهو يعمل ويخلق ارتباطات كبيرة وعميقة في اتجاه الشرق. ويستخدم «البلشفية» كـ «خيال مقاته» فقط لإبعاد دعاة التوجه نحو الغرب وتدخلاتهم المثيرة للاضطراب. وإذا كان الأمر لا يبدو الآن على هذا النحو بعد-وأنا واثق أن ليوبوف دوستويفسكي قد أضلتها نظرة أبيها، ولابد أن يتجلى هذا عاجلا أو آجلا،-فلابد أن يبقى العالم كله كما هو. لكن بين الحركات المقبلة ستكون هذه أعظمها وأصوبها».

في زيورخ وفنترتور

من 2 إلى 6 أغسطس 1920

ومن ثم عاد إلى زيورخ. والأمر المهم هذه المرة هو أنه زار في يوم 4 أغسطس-بصحبة السيدة فوندرلي-قصر برج-أم-إرشل Berg am-Irchel وهو لا يدري أنه سيقضي فيه فصل الشتاء.

في جنيف

ومن زيورخ توجه إلى جنيف مباشرة في 6 أغسطس 1920، وبقي فيها حتى 21 أغسطس. وأقام في فندق Les Bergues الذي كان إلى ما قبل عشرين عاما أفخم فنادق جنيف.

وهناك في جنيف كان يلتقي دوما بالرسامة بالادين كلوسوفسكي Baladine Klossowska، واسمها الحقيقي هو اليصابت دوروتيه كلوسوفسكي، واسم

أبيها هو Spiro وهو من برسلاو. وقد ولدت سنة 1886، وتوفيت سنة 1969.

وكانت قد تزوجت إرش كلوسوفسكي وأنجبت منه ولدين هما Pierre وبالتوس Baltusz، واتخذت في علاقتها مع رلكه اسم: مرلين Merline. وبهذا الاسم نشرت مراسلاتها مع رلكه في سنة 1950 (في باريس) .Lettres a Merline.

كذلك زار مرارا الممثل الكبير بتوئيف. واستأنف علاقته مع جويدو فون سانس، الذي كان يعيش في جنيف، ويعمل مهندسا معماريا.

رأيه في البلشفية

كتب رلكه بتاريخ 21 أغسطس 1920 إلى السيدة فوندرلي برأيه في البلشفية-وكانت في بداية سيطرتها على روسيا:

«ما تعنيه البلشفية ليس أمرا يخيف إلى هذا الحد، لأن هذا الاسم لم يدل أبدا على شيء محدد. وما تكون تدريجيا من معان تحت هذا الاسم يمكن أن يكون هذا أو ذاك، ويمكن أن يكون شيئا حسنا وملائما. والتوتر مع المستقبل إنما يحدث في النكسة إلى أشكال، ثم التخلص منها. والنظام إذا ما استقر وتعقد، فإن الواقع يفرض عليه ضغوطه، بينما النظام الجديد، في مرحلة تنفيذه، ينتهك الواقع. لكن ما يخشى منه هو سوء النية المتزايد عند أولئك الذين ينتقلون من اضطراب إلى اضطراب، وهم في حمى وعدم وضوح، بحيث لا يمكنهم أن يعيشوا إلا في جو مليء بالحمى والاضطراب».

في برن من 8/21 إلى 1920/9/1

ثم سافر إلى برن. وفي هذه المرة أطال التأمل في أبسطة الجدران الموجودة في «المتحف التاريخي» في برن.

والتقى مرتين مع بالادين كلوسوفسكا: مرة وهي في طريقها إلى زيورخ، ومرة ثانية (في 28/8) وهي عائدة إلى جنيف ومعه ابناها. ثم سافر إلى زيورخ فقضى بها يومين. وبعدها سافر إلى جنيف فقضى فيها من 3 إلى 10 سبتمبر. ثم عاد إلى زيورخ فقضى بها من 11 إلى 17. ومن 17 إلى 20 أقام في شاليه فارتنشتين wartenSteifl قرب مدينة بادرجتس ثم عاد إلى زيورخ في 21/9 وبقي فيها حتى 10/2.

جنيف – سيير Sierre ـ برن –بازل

من 10/3 إلى 1920/10/22

ثم سافر إلى جنيف، وبقي فيها من 3 إلى 7 أكتوبر. وفي 8 أكتوبر سافر

إلى سيير Sierre، ونزل في فند ق Chateau Bellevue الذي كان في السابق قصرا لأسرة كورتن Coureten. ثم عاد إلى جنيف في 12 أكتوبر. ومن هناك كتب إلى هانز فون در مول يقول: «ما أجمل إقليم الفاليه Valais ! إن انطباعاتي عن سيون Sion وسيير Sierre قد ضاعفت مرارا من ذكرياتي السويسرية. وأينما توجه النظر، لاقيت نهر الرون Rhone. إن شواطئه تملؤني بالسرور على نحو عجيب. وكأن هذا النهر يملك-أكثر من غيره-القدرة على تمثل وامتلاك الأراضي التي يرويها: فوكليز Vaucluse، أفينون Avignon، جزيرة بارتلاس Bartlasse. وهذا الاتصال الغريب: هذا كله يرتبط برابطة مصاهرة وقرابة بفضل روح هذا النهر. وهو في الأودية الفخمة في إقليم الفاليه يتسع، وفي كل انحناءة يؤكد ذاته».

واستعدادا للسفر إلى باريس، سافر رلكه إلى برن ليقدم جواز سفره إلى السفارة التشيكوسلوفاكية هناك، وذلك في 14 أكتوبر 1920. ووصلته من فندا لاندوفسكا برقية تفيد أنه حجز له في فندق فوايو Foyot المواجه لحديقة اللوكسمبورج في الحي السادس بباريس.

وتلقى، وهو في برن دعوة لتمضية فصل الشتاء في قصر برج-أم-إرشل، السالف الذكر.. وقد توسط له في هذه الدعوة عند مالك هذا القصر العقيد اتسيجلر Ziegler. السيدة فوندرلي. وسافر إلى بازل، وأمضي فيها من 17 إلى 22 أكتوبر. وهناك حصل على تأشيرة الدخول في فرنسا.

في باريس

ومن بازل سافر رلكه إلى باريس في 22 أكتوبر 1920، فوصلها في اليوم التالي. وأقام فيها من 23 إلى 30 أكتوبر 1920، ونزل في فندق فوايو Foyot. وهذا الفندق غير موجود الآن.

وفي يوم 10/24 كتب إلى أندريه جيد Gide. لكنه لم يذهب لزيارته وإنما كتب إليه هذه الرسالة ليشكر له إرساله إليه كتاب «السمفونية الريفية» تأليف أندريه جيد (ظهرت سنة 1919) «مع إهداء طيب ومخلص» -ورلكه في بازل. وفي بيت فندا لاندوفسكا التقى رلكه بالكاتب بول ريبو Paul Reboux (1877-1936) وبالكونتيسة اليزابث دي كليرمونت -تونر (1875-1954).

وكتب إلى السيدة فوندرلي (بتاريخ 25/10) عن مقامه هذه المرة في باريس فقال: «إني أتريض دون هدف، لأن كل شيء صار هدفا، وكل خطوة

هي وصول... وهاأنا ذا الآن أتأمل في مستقبلي، والاستمرار قد عاد سيرته الأولى. وشيئا فشيئا سيكون كل شيء ميسورا. وأنا سعيد جدا لأن هذا سيبدأ مع خلوتي في قصر برج Berg الذي ستعدينه أنت لي في هذه الأيام».

وبالمثل يكتب (بتاريخ 10/27) إلى ماريتا مرباخ -جلدرن Marietta Mirbach-Geldern (1885-1967) ـ ولها ذكريات عن رلكه لم تطبع بعد -فيقول: «هاهنا ملاذ الحياة نفسه، والشدة نفسها، والدقة نفسها حتى في الشر، وبغض النظر تماما عن التدافع والتصارع السياسي، فقد بقي كل شيء في جملته كما كان: تدافع، والتماع، وتلألؤ: إنها أيام أكتوبر».

في جنيف

ويعود رلكه إلى جنيف في 30 أكتوبر، ويظل فيها حتى 11 نوفمبر 1920، مقيما في فندق Hotel des Bergues الفخم.

وقد كتب إلى ناشره كبنبرج عن رحلته هذه إلى باريس، ثم قال: «وأما عن خططي في هذا الشتاء، فإني سأستفيد من دعوة ضيافة شبيهة جدا بتلك التي نعمت بها آنذاك في قصر دوينو: على نحو أقل فخامة، لكنها تشبهها في الهدوء والأمان، وذلك في قصر صغير عتيق هو قصر برج -أم -إرشل في مقاطعة زيورخ» (من رسالة بتاريخ أول نوفمبر 1920).

في قصر برج -أم -إرشل

Schloss Berg-am-Irchel

من 12 نوفمبر 1920 حتى 10 مايو 1921

إرشل Irchel جبل ذو هضبة مستوية مغطاة بالحصى والحجارة في الشمال الشرقي من مقاطعة زيورخ (سويسرا)، يرتفع 196 مترا فوق سطح البحر. وتغطي سفوحه من كلا الجانبين كروم وحقول مزروعة. وعلى الهضبة غابة. ومنحدره الجنوبي يصّاعد عموديا وعرا، أما منحدره الشمالي فينساب في واد منبسط. وكانت توجد على منحدراته في الماضي قرى تسكنها أسر: فرت Wart، رادج Radegg ، ، وابرسبرج Ibersberg، وشومبرج Schomberg، و برج وجولدنبرج. وفي عصر أحدث أقيمت قصور تويفن Teufen وأيجنتال Eigenthal، وفلاخ Flaach.

ومن بين هذه القصور الأقدم كان قصر برج. وكان يمتلكه في ذلك الوقت عقيد في الجيش يدعى رتشرد اتسيجلر Richard Ziegler (1872- 1944) مدير

إدارة تجديد الخيل في سلاح الفرسان السويسري. وتولت خدمة القصر، أثناء إقامة رلكه سيدة تدعى Leni Gisler وهي من قرية فلاخ Flaach.

ويصف رلكه هذا القصر في رسالة (بتاريخ 1920/11/20) بعث بها إلى سيديا نادهرني، فيقول: «الغرف راقية وجميلة، والأثاث والأشياء عتيقة ولطيفة، والمدافىء من الحجر وقوية. وفوق ذلك توجد نار مدفأة رائعة. وأمام النوافذ ينبسط بستان (بارك) هادئ مهمل، والخمائل فيه تنثر أوراقها السمراء. ويمتد البستان في المروج بغير حدود. وهذه المروج تتصاعد في رقة صوب رابية إرشل».

وعن الخادمة المكلفة بشؤون القصر يقول رلكه في رسالة إلى ماريتا مرباخ (بتاريخ 25 نوفمبر): «إن ربة البيت عاقلة هادئة تعنى بشؤوني تماما بالقدر الذي أحتاج إليه. ويلوح أنها غير مندهشة من صمتي وانطوائي (وعلي أن أكون كذلك من أجل القيام بعملي)».

«من مخلفات الكونت ك. ف»

وفي نهاية نوفمبر، وربما في 1920/11/27نظم رلكه القصائد العشر التي تؤلف السلسلة الأولى التي عنوانها: «من مخلفات الكونت ك. ف»، والتي لم ينشرها رلكه في أثناء حياته، وإنما نشرت بعد وفاته بهذا العنوان كملحق لمراسلاته[5] مع الأميرة ماريه تاكسس، باستثناء قصيدة: «كان ذلك في الكرنك...» التي نشرت دون ذكر اسم مؤلفها في «الكتاب السنوي لدار إنزل» الخاص سنة 1923.

وأتم نظم هذه المجموعة في يوم 30 نوفمبر 1920، وبعث بنسخة منها إلى السيدة فوندرلي.

ويصف رلكه كيف ألهم تأليف هذا المجموع من القصائد، وذلك في رسالة إلى السيدة فوندرلي بتاريخ 30 نوفمبر 1920- فيقول:

«ما أغرب ما حدث لي في هذا الشأن! كنت وحدي تماما، ولم أعرف شيئا عن هذا البيت، وعن ماضيه، وعن أولئك الذين سكنوا فيه قبلي... وبالجملة، كنت أود العثور على أثر لأحد الساكنين القدامى فيه، مثل: كراسة أعثر عليها في درج صوان كتب، ذات مساء. انظري، انظري ماذا عسى هذا الساكن أن يكون؟ تخيلت نفسي شخصا، تخيلا سطحيا جدا. وتكفل الموقف بالباقي. لكن الكراسة المذكورة، على الرغم من كل تخيل، لم تظهر. فماذا بقي

لي غير أن أؤلفها أنا. وهاهي ذي الآن موضوعة أمامي كاملة الكتابة...

قصائد، تصوري، -وستقرأين على الورقة الأولى ما يلي: «من مخلفات الكونت ك. ف». أمور غريبة، لست أنا مسؤولا عنها. وهذا أمر يدعو إلى بالغ الرضا.. هذه اللعبة... الآن أفهم كيف حدثت، يوما في إثر يوم: لم أكن قادرا بعد على الإنتاج. ويبدو أنه كان علي أن أتذرع بشخصية تأخذ على عاتقها ما تم إنتاجه في هذه المرتبة غير الكافية من التركيز. وهكذا كان الكونت ك. ف».

ورلكه هنا يشرح كيف ألهم نظم هذه القصائد المودعة في هذا المجلد الصغير الذي عنوانه: «من مخلفات الكونت ك. ف». لقد انقطع عنه الوحي الشعري منذ أكثر من ستة أعوام. وهاهو ذا وحده في صمت هائل ووحدة بالغة في هذا القصر العتيق المنعزل على سطح جبل إرشل. وخطر بباله أن يبحث في صوان الكتب الموجود في القصر عن كراسة تروي سيرة حياة أحد ساكنيه من النبلاء. فلم يجد شيئا من هذأ القبيل. فتخيل شخصية ساكن قديم في هذا القصر، وراح ينثال عليه فيض من القصائد. فنسبها إلى هذا النبيل المجهولة، وكأنه هو الذي نظمها وتركها من بين مخلفاته.

وفي الفصل الذي عقدناه، عن «رلكه في مصر» أشرنا إلى هذه المجموعة الشعرية، وترجمنا منها قصيدة عنوانها: «كان ذلك في الكرنك...».

وعلى نحو مماثل يصف رلكه هذا الأمر في رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 15 ديسمبر 1920) فيقول:

«لما لم أجد هنا أية مكتبة (باستثناء كتاب لجيته)، ولا مذكرات وما أشبه ذلك تتعلق بهذا القصر الذي ظل طوال قرون ملكا لآل إيشر فون لوكس cher Von Luchs-Es خطر ببالي، كإنتاج عارض، أن أؤلف كراسة من القصائد، زعمت أنني عثرت عليها في صوان هاهنا. وكان أمرا عجيبا: فقد «انقاد» قلمي لكتابة قصيدة بعد قصيدة. وفيما عدا موضعين يمكن تعرف شخصي أنا فيهما، لم يكن التعبير يتفق مع أسلوبي ولا مع آرائي. وقد سجلتها في الكراسة نفسها دون سابق تسويد. ومنها قصيدة (مصرية)، جميلة جدا، كنت أود أن أكون أنا الذي نظمتها، لكن لم يكن من الممكن أن تصنع على هذا الشكل. وتم ذلك في ثلاث أمسيات. وفي المساء الثاني-ودون أدنى تفكير-كتبت على ورقة العنوان: «من مخلفات الكونت ك. ف» (مثلما يحدث

في الإملاء) دون أن أفكر في أية أسماء يشير إليها هذان الحرفان الأولان- لكن مع الثقة التامة بأن الأمر هو هكذا. فماذا كان هذا كله؟».

وأرفق رلكه بهذه الرسالة صورة شمسية لداخل قصر برج-أم-إرشل. وقد نشرت هذه الصورة في الجزء الثاني من «مراسلات راينر ماريا رلكه مع ماريه فون تورن وتاكسس» (زيورخ، سنة 1950، في مواجهة صفحة 572).

وردت عليه الأميرة بتاريخ 7 يناير 1921 معبرة عن تشوقها الشديد لقراءة هذه القصائد. وقالت: «آه! كم أود أن أسمعها، خصوصا القصيدة المصرية. أليست لديك نية لإرسالها إلي-إلي أنا بوصفي «فرعونا» سابقا؟! يسعدني أنك عدت إلى الإنتاج، وأن وحدتك تامة! والآن ستكون «المجهولة» أيضا راضية!».

واضطر رلكه إلى قطع هذه العزلة لمدة 18 يوما: أولا في برن «لأمر ملح» باعث على القلق، ثم في جنيف للقاء مع ناشر كبنبرج. وقد أمضى في جنيف من 6 إلى 22 يناير 1921. ثم عاد إلى قصر برج-أم-إرشل في 23 يناير 1921، ومعه صديقته بالادين كلوسفسكي. وفي اليوم نفسه وصل الناشر كبنبرج إلى برج -أم -إرشل لزيارة رلكه، تلك الزيارة التي أجلها مرارا. وقد حدثه رلكه عن مجموعة القصائد التي عنوانها: «من مخلفات الكونت ك. ف». وفي اليوم التالي واصل كبنبرج سفره. وفي يوم 30 يناير 1920 غادر رلكه وبالادين قصر برج، وسافرا إلى زيورخ. ثم عاد رلكه في أول فبراير إلى برج، بينما عادت بالادين إلى جنيف.

ولما كان رلكه في برن، التمس من سفير تشيكوسلوفاكيا في برن، دكتور سيريل دوشك -إيصال رسالة من رلكه إلى رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا مازاريك Masaryk. ولسنا نعلم شيئا عن مضمون هذه الرسالة. وكان رلكه معجبا بمازاريك (1850- 1937) الذي صار رئيسا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا التي ولدت نتيجة للحرب العالمية الأولى، وذلك في سنة 1918. وكان مازاريك منذ سنة 1882 أستاذا للفلسفة في الجامعة التشيكية في براج، وهذه الجامعة تأسست في السنة نفسها (1882). ثم صار من سنة 1891الى1893 نائبا في ريشستاج (مجلس النواب) عن حزب الشباب التشيكي. وله مؤلفات في الفلسفة، نذكر منها: «الأسس الفلسفية والاجتماعية للماركسية» (باللغة الألمانية، وظهر سنة 1899).

وقد عبر رلكه عن إعجابه بمازاريك، وبنش Benes (1884- 1948) الذي

سيخلف مازاريك على رئاسة الجمهورية -وذلك في رسالة إلى جان استرا Strahl (بتاريخ 1924/9/4) فقال: «لو كان الفكر هو الذي يقود العالم، الضال في مشتبك من المطامع، لكان يجب على مواطني من الألمان أن يتفقوا مع الشعب التشيكي الذي بعث من جديد. على أن وجود هذين الرجلين (مازاريك وبنش) المستنيرين يحمل على الأمل الوطيد في المستقبل».

وفي 13 مايو 1926 كان رلكه في زيارة للدكتور Revilliod في مونتريه، وهو زوج بنت مازاريك. ويقوك رلكه عن هذه الزيارة (في رسالة إلى بالادين بتاريخ 1926/5/24): «لقد استقبلاني بمودة قلبية ولطف بسيط، إلى درجة أنني بقيت لتناول العشاء معهما».

وفي 11 فبراير 1921 كتب أندريه جيد Gide أول رسالة منه إلى رلكه بعد انتهاء الحرب، وفيها قال جيد: «أسفت كثيرا لأني لم أرك في باريس، لأنه كان لدي الكثير الذي أريد أن أقوله لك -وأن أروي لك المجهودات التي قمت بها (عبثا، مع الأسف!) من أجل استرداد جزء من مكتبتك».

وفي يومي 12 و13 فبراير 1921 زارته بالادين مرة أخرى في قصر برج. وصحبها بعد ذلك إلى زيورخ، ومن هناك قفل عائدا إلى برج.

وفي 3 مارس بعث إلى أندريه جيد برسالة شكر على ما قام به من جهود-عبثا!-لاسترداد مكتبة رلكه، وفيها قال: «إني أشكر لك هذه الجهود، بقدر ما لم تفلح، لأن مساعيك كانت، لهذا السبب، أكثر إضناء وتعقيدا».

وفي يومي 14 و16 مارس 1921 ترجم رلكه قصيدة «المقبرة البحرية(6)» لبول فالري Paul Valery)(1871- 1945).

وفي 10 مايو 1921، غادر رلكه قصر برج-أم-إرشل. وقد جاءت السيدة فوندرلي، وابنها شارل، بسيارتها لأخذه وتوصيله إلى دير إيتوا Prieure di Etoy، وفيه سيقيم من 10 إلى 28 مايو 1928.

في إيتوا- مورج -جنيف -لوزان

«ودير إيتوا دار عتيقة، كانت في الأصل دير اختبار تابعا للطريقة الأوغسطينية الرهبانية. وقد أسس في القرن الثالث عشر، لكنه -في ذلك الحين (في 1921) -كان ملكا للآنسة دي مونت Mee du MOnt التي كانت تتخذه مقرا لإقامة بعض الأشخاص -ويمكن طبعا أن يكون مسكنا وقتيا... لأن آخر الوسائل للإقامة في سويسرا قد استنفدت -فماذا عسى أن يحدث

بعد معجزة برج؟ ولهذا لم أندهش حين قرأت هذا النقش مكتوبا على برج مدينة سان بركس St. Prex القديم الذي وقفت أمامه في أول يوم أثناء أول نزهة لي: «من يسهر ليشاهد مجيء ساعة الرحيل» (من رسالة كتبها رلكه إلى السيدة نيلكه Nolke بتاريخ 1921/5/22).

لقد كان «بنسيون» الآنسة دي مونت بمثابة مأوى مؤقت اتخذه رلكه ليقرر ماذا سيفعل، بعد أن شعر بحرج موقفه: إذ لا يليق به أن يظل في سويسرا «متسولا» لدعوات الضيافة تأتيه من هذه أو تلك من السيدات المعجبات به، كذلك ضاق ذرعا بالإقامة في الفنادق. وهو يفكر الآن في الاستقرار في مسكن «دائم»، إن جاز لمثل هذا الشريد الجوال طوالا حياته أن يجد له مستقرا.

وهاهو ذا في رسالة إلى السيدة Nolke(بتاريخ 1922/5/22) يتساءل: «ماذا أفعل هنا؟ إني أنتظر قدوم الأميرة ماريه تاكسس (إنها ستأتي قريبا لزيارة أحفادها في مدينة رولRolle) كي أتشاور معها، وهنالك سيتبين هل أسافر معها فورا إلى بوهيميا».

ويخبر ناشره كبنبرج (بتاريخ 31 مايو) أن أصدقاءه (أو على نحو أدق: صديقاته) يبحثون له عن مقر يأوي إليه ويستقر فيه، فيقول: «هم يبحثون، ويبذلون الجهود: بوهيميا، فورتمبرج، بل والوطن الأصلي لآل رلكه: كيرنتن Karnten-هي مواضع نظر». لكنه الآن في انتظار قدوم الأميرة ماريه تاكسس للتشاور معها في هذا الأمر.

ولهذا سافر في 7 يونيو 1921 إلى مدينة رول RoIle. وانتظر قدوم الأميرة، التي ستنزل في «فندق الرأس الأسود». وكان يسافر كل يوم من إيتوا إلى رول، وبالعكس.

وأخبره ناشر كبنبرج (بتاريخ 7 يونيو 1921) أن حسابه جيد. وعلى الرغم من نزول سعر المارك الألماني، فإن الناشر بعث إلى رلكه بمبلغ ألفين من الفرنكات السويسرية.

ووصلت الأميرة ماريه تاكسس إلى رول في 7 يونيو، لزيارة حفيديها ريموند ولويس، وهما أبنا اسكندر الملقب ب «باشا»، وكانا في مدرسة داخلية في مدينة رول. وفي يوم 9 يونيو سافرت الأميرة ماريه إلى إيتوا لزيارة رلكه في بنسيونه هناك، وقرأت عنده إيليجياوين أخريين لم تكن قد عرفتهما، وهما: الإيلجيا رقم 3، والإيلجيا رقم 4. ومن رولRolie كتب رلكه

إلى بالادين كلوسفسكي (بتاريخ 11 يونيو) -يقول:

«عزيزتي!

لا أكتب إليك غير كلمة واحدة: تعالي، تعالي، تعالي! فكرتك الخاصة عن موتسانو Muzzano (وكانت بالادين قد كتبت إليه من برلين بتاريخ 28 مايو تخبره عن بيت في موتسانو بنواحي فينيسيا، خال وللإيجار، ويمكن استئجاره بمبلغ مائة فرنك سويسري، وتملكه السيدة أولي جاك Olly Jacques) -ربما كانت فكرة صائبة جدا. بيد أنها لا تمحو في نفسي المشهد الرائع لمدينة سيير Sierre، وإني لأراك معي هناك بيقين بلغ حد الاعتقاد بأننا سنكون هناك... منذ أمس، أنا أعلم أنه بنقودي سيكون كل شيء ممكنا تقريبا، وسأستطيع إذن أن أسهم في النفقات... تعالي!».

وفي يوم 17 يونيو تصل بالادين Baladine فعلا إلى إيتوا. وفي اليوم التالي يسافران معا إلى جنيف. وفي يوم 20 يونيو يسافران إلى لوزان. وفي العودة يركبان السفينة إلى مورج Morges حيث يزوران المتحف الموجود هناك.

وفي 23 يونيو يسافران إلى إقليم الفاليه Valais (فالس Wailis بالألمانية) لمعاينة منزل للإيجار هناك، هو قصر مكس Chateau de Max. لكنهما يجدانه غير مناسب لرلكه. وهناك يلتقيان بالسيد سفري M. de Severy، الذي قال عنه رلكه: «إنه أنبل شخص التقيت به في سويسرا» (من رسالة إلى السيدة فوندرلي، بتاريخ 25 يونيو 1921).

العثور على البيت المنشود

وفي مساء 28 يونيو 1921 التقى رلكه مع بالادين في مدينة سيير Sierre. ونزلا في فندق «المنظر الجميل» Bellevue. والتقيا في اليوم التالي مع سمسار عقارات يدعى رهام M. de Rham. لكن رلكه وجد أن ما عرضه عليه هذا السمسار من بيوت لا يناسبه.

ثم حدثت المفاجأة الكبرى، أو «المعجزة» كما نعتها رلكه:

فقد كان هو وبالادين في مساء يوم 30 يونيو 1921 يمران أمام دكان حلاق ملاصق للفندق فشاهدا في «فترينة» الدكان صورة فوتوغرافية لبرج أو قصر صغير من القرن الثالث عشر. وفوق الصورة إعلان: «للبيع أو للإيجار» فاستطار رلكه فرحا وقال في نفسه: «هويركا! هويركا!» (= وجدته). لقد وجد ضالته المنشودة.

وكتب في رسالة بتاريخ 1921/7/4 إلى السيدة فوندرلي يخبرها بالأمر

ويقول في آخر الرسالة-وفيها رسم القصر-: «عزيزتي! ربما كان هذا قصري في سويسرا! ربما!». وفي أول يوليو ذهب رلكه بصحبة بالادين لمعاينة هذا القصر في قرية ميزوت Muzot القريبة من سيير. وتبين له ما يلي:

- لا يوجد نور كهربائي؛
- لا يوجد ماء في البيت؟
- دورة المياه بدائية ومقبضة جدا.
- البيت تملكه السيدة رونييه Mme Raunier، وهي أيضا صاحبة دكان الحلاقة السابق الذكر.
- إيجار البيت 250 فرنكا سويسرا في الشهر، لكن السمسار رهام يرى أن نصف هذا المبلغ كاف. وتنشأ صعوبة أخرى، هي أن رلكه لا يريد أن يستأجر البيت إلا لمدة ثلاثة أشهر فقط.

وفي 8 يوليو سافر رلكه من إيتوا إلى سيير. وفي تلك الأثناء كان السمسار العقاري - السيد رهام قد توصل مع مالكة القصر إلى موافقتها على تأجيره لمدة ستة أشهر، وبإيجار شهري قدره 175 فرنكا سويسرا وابتداء من الشهر السابع يصبح الإيجار 150 فرنكا فقط.

لكن رلكه يتردد.. ويحار، ولا يستطيع أن يتخذ قرارا. وتأتيه من صديقاته عروض أخرى لأماكن أخرى. لكنه كان يفضل ميزوت، لأن المنظر أمامه يجمع بين مناظر إسبانيا والبروفانص.

ويقرر فرنر راينهرت أن يستأجر قصر ميزوت. وبادرت بالادين بالانتقال إلى هذا القصر. وهنا كف رلكه عن التردد. وقام معها بترتيب هذا البيت الذي كان ينقصه الكثير جدا: الشموع، الفوانيس، المصابيح الغازية، وبعض الحاجيات الخاصة بالسرير.

وهاهو ذا يبعث برسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 1921/7/25) يقول فيها إنه وجد المكان المناسب: «إن هذا الظرف -وهو أنه في المنظر هناك تتلاقى إسبانيا والبروفانص -قد أثر في نفسي آنذاك (أكتوبر 1920): ذلك أن مناظر كلا البلدين (إسبانيا والبروفانص في جنوبي فرنسا) قد استحوذت على نفسي بقوة في السنوات الأخيرة السابقة على قيام الحرب أكثر من أي مكان آخر. وهاهو ذا صوتهما يتحد في واد جبلي منبسط في سويسرا!».

ويرفق رلكه برسالته هذه صورة (كارت بوستال) لقصر ميزوت. ويأخذ

في وصف القصر وصفا دقيقا فيقول: «المدخل من الخلف، حيث السقف المنحدر يبرز إلى الأمام: وهذا الطابق يحتوي على غرفة الطعام، وعلى مدخل صغير وغرفة للضيوف، وإلى جواره المطبخ (في مبنى حديث)، وأما المطبخ السابق فقد كان في الطابق الأرضي في أسفل، وكان مكانا فسيحا منفردا. وفي الطابق العلوي قررت أن أقيم: إن فيه غرفة نوم صغيرة، تتلقى الضوء من النافذة عن يمين. وفي الجانب الآخر توجد شرفة تمتد حتى داخل الشجر. والنافذة المزدوجة بالقرب من هناك، حول الزاوية، والنافذة التالية في الجانب الغربي المعرض للشمس-هما ينتسبان إلى غرفة المكتب بصناديقها العتيقة، ومنضدتها المصنوعة من خشب السنديان ويرجع تاريخها إلى سنة 1600، وسقفها المصنوع من قضبان خشبية غامقة اللون وقد نقش فيها تاريخ سنة 1617».

وفيما يتصل بتاريخ هذا القصر، يقول رلكه في الرسالة نفسها: «ويظن أن الذين أمروا ببنائه هم آل بلوناي Blonay. وفي القرن الخامس عشر كان القصر ملكا لآل دلا تور شاستيون De la Tour Chastllon. ويتحدث عن إيزابلا دي شفرون Isapella de Chevron التي قتل زوجها في سنة 1515 في معركة مارينيان[7] Marignan. فصارت أرملة، وتنافس على الزواج منها اثنان، ولجا إلى المبارزة، فشق كلاهما بطن الآخر. فأصيبت إيزابلا بالجنون. وذات ليلة ماتت من البرد وهي في مقبرة مييج Miege.

ويتابع رلكه فيقول: «وحتى لا أنسى، أقول إنه إلى جانب غرفة نومي، في الطابق العلوي، يوجد ما يسمى بمصلى Kapelle عتيق... ويمكن الوصول إليه عن طريق فتحة باب واطئ قوطي الطراز من العصر الوسيط. وفوقه في الجدران نحت بارز، ولا يوجد صليب بل سواستكا كبيرة!!» ولا ينسى رلكه أن يبين لها النطق الصحيح لاسم القصر: ميزوت (أي مع نطق الحرف الأخير t).

وكما قلنا، كان مستأجر القصر هو فرنز راينهرت، الذي قرر استئجاره ليقيم فيه رلكه مجانا، أي على حساب فرنز راينهرت.

وكانت ناني فوندرلي-فولكرت هي التي توسطت في هذا الأمر، فكتبت إلى فرنر راينهرت ليقوم هو باستئجار قصر ميزوت، من أجل أن يقيم فيه رلكه مجانا. فوافق فرنر رينهرت، وأخبرت هي رلكه بهذه الموافقة في رسالتها إلى رلكه بتاريخ 20 يوليو 1921.

8 راهب ميزوت

وانتقل رلكه للإقامة في قصر ميزوت في 26 يوليو 1921. ومنذ ذلك التاريخ سيصير هذا القصر مقره الثابت حتى وفاته. وأخذ في إصلاح أحوال القصر «فسد جحور الفئران، وبيض الجدران. ووضع فرنر راينهرت في 22 أكتوبر 1921 مبلغ خمسمائة فرنك سويسري تحت تصرف رلكه للقيام بهذه التصليحات. وكان فرنر راينهرت قد زار القصر لأول مرة في 7 أغسطس، فأبدى سروره بأن يمتلك هذا القصر. وكان لبالادين كلوسوفسكي الفضل في الإشراف على هذه الترتيبات. ولهذا كتب رلكه إلى جين اشترول Jean Strohl (في 1921/11/11) فقال: «لقد صنعت (بالادين) معجزات: أولا بإيمانها بميزوت (وأنا لم أشاركها دائما هذا الإيمان)، وثانيا بعملها الذي لا يكل فيه كل يوم. وبهذا كله تغير ميزوت جدا «لقد صار الآن بيتا حقا، خصوصا غرفة المكتب، فقد اكتسبت كثيرا جدا. وهأنذا أستعد للعمل فيها واستخلاص النتائج الباطنة».

وفي أول مارس 1922 نقلت شجيرات الفاكهة من أماكنها في بستان القصر، وغرست محلها شجيرات ورد. وفي اليوم نفسه تقدم ناس لشراء القصر، الذي كان حتى ذلك الحين مؤجرا فقط

لفرنر راينهرت. وفي 9 مايو 1922 اشترى فرنر راينهرت قصر ميزوت، فأصبح ملكا له، وفي الوقت نفسه وضعه تحت تصرف رلكه للإقامة به مدى الحياة مجانا. فيالها من بادرة عظيمة. يستحق فرنر راينهرت من أجلها كل إطراء وتقدير. وما أندرها من أريحية مع أهل الأدب والفكر على مدى تاريخ الإنسانية! خصوصا وأنه لا يتوقع في مقابلها شيئا، ولا حتى قصيدة مديح، كما كان محدث للملوك والأمراء ورعاة الآداب والفنون والعلوم.

وتولت خدمة رلكه في هذا القصر سيدة من مدينة سولو تورن Solothurn تدعى Frida Baumgartner، ابتداءمن 1921/10/15.

وفي 31 أكتوبر 1921 أعلنت خطبة ابنة رلكه، واسمها راعوث Ruth، إلى كارل زيبر Carl Sieber (1897- 1945) وكان حاصلا على الليسانس في القانون.

وفي 9 نوفمبر بعث رلكه برسالة إلى بالادين كلوسوفسكي في زيورخ يقول فيها «لقد نسيت «أورفيوسك». وهذا «الأورفيوس» هو نسخة مصورة من رسم بالريشة صنعه تشيما دا كونليانو Cima da Conegliano نحو سنة 1500. وفي هذا الرسم نجد أورفيوس يعزف على قيثارته وهو جالس عند جذع شجرة. ومن حوله بعض الحيوان الذي يرهف السمع لموسيقاه. وكانت بالادين قد اشترت هذه النسخة المصورة من دكان في مدينة سيون Sion، ووضعتها على جدار مكتب رلكه في قصر ميزوت. وهذه الصورة ستلهم رلكه نظم «سوناتات إلى أورفيوس» وهو في قصر ميزوت. وسنتحدث عن هذه المجموعة الشعرية بالتفصيل فيما بعد.

وبتاريخ 19/ 12/1921 كتب إليه أندريه جيد Gide مقترحا عليه أن يترجم كتاب «الأغذية الأرضية»[1] -الذي أصدره جيد في سنة 1897- قائلا: «منذ زمان طويل، تعتلج في نفسي رغبة حادة في أن تقوم بترجمة هذا الكتاب» ثم يقول» «عرفت من فالري أنكما صرتما تتراسلان مباشرة. وربما التقى بك إبان رحلته في سويسرا، حيث عليه أن يلقي محاضرة (في زيورخ)» - لكن رلكه لم يحضر محاضرة فالري هذه.

ورد عليه رلكه (بتاريخ 1921/12/23) بأنه لا يستطيع ترجمة كتاب «الأغذية الأرضية» تأليف أندريه جيد. وقد تبين له ذلك منذ أن قرأه لأولى مرة: «لقد حكمت بأن الكتاب غير قابل للترجمة بالمعنى المتزايد التدقيق في نفسي بالنسبة إلى كل ترجمة» وفي رسالة إلى بالادين يقول: «بعد صراع كبير مع

نفسي -رفضت» -أي رفض أن يتولى ترجمة كتاب جيد هذا (من رسالة بتاريخ 1924/1/24). وكان رلكه قد ترجم قبل ذلك كتاب أندريه جيد: «عودة الولد الضال»، وطبعت منه في سنة 1924 الطبعة من 16 إلى 20 ألف نسخة.

«سوناتات إلى أورفيوس»

في هذه الوحدة التامة التي كفلها له قصر ميزوت، انثال الشعر على رلكه على نحو لم يشهد مثله من قبل. فمن يوم 2 حتى يوم 5 من شهر فبراير 1922 نظم رلكه القسم الأول من مجموعة شعرية بعنوان «سوناتات إلى أورفيوس» ويشتمل على 25 سوناتة، الأولى منها تبدأ بهذا البيت:

«هناك أصاعدت روحه. ياله من صعود محض!».

وقد كرس هذه السوناتات لذكرى فيرا أوكاما كنوب Vera Ouckama Knoop التي ولدت في سنة 1900، الابنة الوحيدة لأبوين كانا من أصدقاء رلكه، وكانا هولنديين، وصارت راقصة ممتازة، لكنها توفيت في 28 ديسمبر 1919 في منشن.

وبادر رلكه في 7 فبراير 1922 فأرسل رسالة إلى أمها جرترود (ولدت سنة 1870) يقول فيها:

«صديقتي العزيزة المحترمة!

في بضعة أيام كنت فيها عازما على الانصراف إلى أمور أخرى، ألهمت هذه السوناتات. وستفهمين للوهلة الأولى لماذا كنت أنت أول من ينبغي أن يحصل عليها. ذلك أنه على الرغم من أن الرابطة واهية (سوناتة واحدة-هي الأخيرة، برقم 24- تهيب في انفعالها بشخصية فيرا)، فإنها تسود وتهز مسار الكل، وتنفذ شيئا فشيئا-وإن كان ذلك على نحو مستسر-إلى درجة أنني لم أتبين ذلك إلا تدريجيا-في هذه النشأة المثيرة المتواصلة. وإذا قدر«للسوناتات إلى أورفيوس» أن تنشر، فينبغي إبدال اثنتين أو ثلاث منها (مثلا رقم 21)».

وقد أهدى رلكه القسم الأول من «السوناتات» إلى فيرا أوكاما كنوب.

وفي 13 فبراير نظم السوناتة رقم 23 التي أدرجت فيما بعد في القسم الأول من «سوناتات إلى أورفيوس» Sonatte an Orpheus. وفي الوقت نفسه نشأت سوناتات لم تدرج في هذه المجموعة من السوناتات-ومطالعها هي:

- «هيئ» لنا السحر الذي فيه تنحل كل الجدود».
- «لا ينبغي لك أن تعرف أكثر مما يعرف النصب».

- «تذكر»لقد أدرك كل منكم من الآخر».
- «لكن، أيها الأصدقاء، هيا إلى الاحتفال، ودعونا نفكر في الاحتفالات».
- «أي سكون حوله الله! كيف نسمع فيه».

وفي أيام: 17, 18, 19 فبراير نظم أرقام. 16, 17, 18 من القسم الثاني من «سوناتات إلى أورفيوس».

وبين يومي 17و23 فبراير نظم السوناتات أرقام 19, 20, 21, 22, 23.

وبين يومي 19 و 23 فبراير نظم السوناتات من 24 إلى 29 من القسم الثاني.

ونحو يوم 23 فبراير نظم السوناتة الأولى من القسم الثاني. وبهذا تم نظم القسم الثاني من «سوناتات إلى أورفيوس».

كيفية نشرها

وقد نشرت هذه السوناتات أولا تفاريق في الصحف والمجلات:

1- إذ نشرت «جريدة بوهيميا الألمانية» في يوم الأحد 1922/12/24 في الملحق الخاص بعيد الميلاد ثلاث سوناتات (رقم 13 من القسم الأول، ورقما 14 و 15 من القسم الثاني).

2- ونشرت جريدة «برلينر تاجبلات» في عددها الخاص بعيد الميلاد(رقم 586) السوناتات 5 - 7- 19 من القسم الأول.

3- ثم نشرت السوناتات كامله لأول مرة في مارس 1923 بالعنوان»«سوناتات إلى أورفيوس»نظمت شاهد قبر لفيرا أوكاما كنوب».

مصادرها

وقد بحث النقاد في المصادر التي ألهمت رلكه نظم هذه السوناتات. وذكروا من بين هذه المصادر:

1- اللوحة التي رسمها بالريشة»جوثان باتستا تشيما دا كونليانو، الرسام الإيطالي المولود في كونليانو (بنواحى Friuli) في منتصف القرن الخامس عشر. ومن بين أهم لوحاته نذكر: «مجد يوحنا المعمدان»، وهي لوحة بالزيت رسمها من أجل كنيسة Orto Madonna Dell. وفي سنة 1492 رسم لوحة لمذبح كاتدرائية بلدة كونليانو عنوانها: «العذراء والقديسون». وفي سنة 1494 رسم لوحة «تعميد المسيح»، وتوجد في كنيسة سان جوفاني في براجورا (في فينيسيا). وسائر لوحاته ذات موضوعات دينية مسيحية، باستثناء لوحتين تستلهمان الأساطير اليونانية، وتوجدان في متحف بارما، ومنهما لوحة

«أورفيوس». ولا نعلم سنة وفاته. لكن من المعتقد أنه كان لا يزال يرسم في سنة 1517- وقد ذكرنا أن بالادين كانت قد اشترت نسخة مصورة بالتصوير الشمسي من لوحة «أورفيوس» من «دكان في مدينة سيون Sion» القريبة من قصر ميزوت، وعلقتها على الجدار في غرفة مكتب رلكه.

2- وأهم من هذه اللوحة تأثيرا في رلكه آنذاك في استلهامه أورفيوس- قصيدة للشاعر الفرنسي بول فالري (1871-1945) Paul Valery عنوانها: «أورفيوس» Orphee. ويقول فولفجانج ليمان Lemmann في كتابه: «رلكه: حياته، عالمه، إنتاجه» (الطبعة الأولى، 1881، برن ومنشن): «إن في السوناتات أصداء» من قصيدة «أورفيوس» (لفالري) ومن قصيدة «المقبرة البحرية»(لفالري أيضا) التي كان رلكه قد ترجمها في العام السابق (1921)، ومن الحوار»«النفس والرقص» (لفالري أيضا) الذي نسخه رلكه في يناير 1922، ثم ترجمه بعد ذلك في سنة 1926. وكذلك من ناحية السيرة، ربما كان نموذج فالري، الذي ظل لسنوات طويلة مهتما بالرياضيات ولم يعن بالشعر إلا في وقت متأخر، لم يخطر من تأثير في رلكه الذي ظل صامتا لفترة مؤقتة» (ص 417).

3- أما الباعث المباشر الحثيث لنظم هذه السوناتات فهو-بإجماع الآراء- الصحائف التي كتبتها جرنرود أوكاما كنوب عن مرض وموت ابنتها فيرا. وكانت قد أرسلت هذه الصحائف إلى رلكه، وتلقاها في أول يناير 1922، وكانت قد أرسلتها من منشن حيث كانت تقيم. وشكر لها رلكه هذه الصحائف في رسالة بتاريخ 4 يناير 1922، معبرا عن تأثره البالغ واهتزاز قلبه بعنف حينما قرأ هذه الصحائف، وقال إنه وهو يكتب هذه العبارات «يخاف أن يغلق عينيه، حتى لا يشعر بأنه في كيانه الحاضر قد خرج عن طوره تماما».

«إيلجيات دوينو»

في الوقت نفسه تدفقت من عبقريته مجموعة من الإيلجيات، ستكتمل بها مجموعة «إيلجيات دوينو» العشر:

1- ففي يوم 7 فبراير 1922 بدأ في نظم الإيلجيا السابعة.

2- وفي يومي 7 و8 فبراير أنجز الإيلجيا الثامنة.

3- وفي يوم 9 فبراير نظم بقية الإيلجيا التاسعة، وكان قد نظم بدايتها وهو في قصر دوينو في مارس 1912.

4- وفي مساء 9 فبراير نظم الأبيات 32 إلى 41 في الإيلجيا السادسة، وبهذا أتم نظم هذه الإيلجيا.

وأبرق إلى السيدة فوندرلي يقول في اليوم نفسه: «تمت الآن سبع إيلجيات وهي أهمها».

وفي مساء اليوم نفسه كتب إلى بالادين رسالة يقول فيها «في مساء الخميس، يا مرلين، تحققت لي النجاة، إن ما كان يثقل علي ويشيع القلق في نفسي أكثر من غيره قد أنجز، وعلى نحو رائع فيما أعتقد. لم يدم ذلك إلا بضعة أيام، لكني لم أتحمل يوما مثل هذا الإعصار الذي اجتاح القلب والعقل معا. ولا أزال أقشعر منه. في هذه الليلة ظننت أنني سأنهار. لكن! هأنذا قد انتصرت. والآن يبدأ عمل هادئ، متزن، يومي، أكيد -سيبدو لي مثل السكون الذي يتلو العاصفة».

وكتب إلى أنطون كبنبرج في اليوم نفسه: «أنا الآن على قمة الجبل! أخيرا. هاهي ذي «الإيلجيات» جاهزة، ويمكن أن تنشر اليوم (كما يحلو لك). إنها تسع، من حجم الإيلجيات التي تعرفها من قبل. يضاف إلى ذلك قسم ثان ينتسب إلى الدائرة نفسها، أريد أن أسميه «شذرات» إنها قصائد مفردة، قريبة النسب من الكبيرة، من حيث الزمان والرنين».

ثم يتابع قائلا «خرجت من البيت، في ضوء القمر البارد، وربت على قصر ميزوت كأنه حيوان كبير: الجدران العتيقة، التي مكنتني من ذلك، ودوينو المدمر». ويشكر له أن صبر عليه عشر سنوات، حتى أنجز هذا العمل.

وفي 10 فبراير 1922 كتب إلى السيدة فوندرلي وهو يطير من الفرح: أي نكه[(2)] Nicke (وهو اسم التدليل الذي كان رلكه يخاطب به السيدة ناني فوندرلي)! صباح يوم الجمعة، أيها الانتصار الصغير الفخور جناحيه! كيف بادرت إلى الطيران في الطريق الصواب دائما، وفتحت للروح مكان تنفسها! الانتصار، الانتصار! تسع إيلجيات. وفي طريق عودتي إلى البيت أمس، حين أرسلت البرقية، تكونت واكتملت الإيلجيا الثامنة والإيلجيا التاسعة بانضمامهما إلى شذرات نظمتها من قبل، بعضها صغير وبعضها كبير. نكه! أواه! ما أروع أن أعيش ذلك -أن أعيش بل أن أكون ما هو هائل. أرجو أن يلهمني الله أعمالا هادئة مريحة إنسانية، ولا يهبني بعد الآن تلك التي تتجاوز ما هو أليف أنيس مضمون للقوة. لقد كان، لقد كان».

5- وفي يوم 11 فبراير 1922 أتم الإيلجيا العاشرة، وهي الأخيرة. وفي مساء اليوم نفسه أعلن للأميرة ماريه تاكسس هذا النبأ العظيم قائلا:

«أخيرا، أيتها الأميرة، أخيرا، جاء اليوم المبارك، وياله من يوم مبارك، هذا الذي أستطيع أن أعلن لك فيه نبأ فراغي، حسبما أرى، من الإيلجيات العشر والأخيرة منها (وقد بدأت كتابة مطلعها في قصر دوينو: كوني ذات يوم، عند منصرف النظرة الغاضبة، قد تغنيت بالسرور والشهرة إلى الملائكة المرافئين لي...») -هذه الأخيرة -والتي قصدت آنذاك أن تكون الأخيرة -لا تزال يدي تهتز منها! لقد تم نظمها في الساعة السادسة مساء يوم السبت، الحادي عشر (من فبراير). والكل قد أنجز في يومين. لقد كانت عاصفة لا اسم لها، وإعصارا في الروح (كما كانت الحال كذلك في الماضي في قصر دوينو). وكل ما كان خيطا في جسدي ونسيجا قد انهار-لم أفكر أبدا في الأكل. ويعلم الله من الذي أطعمني. لكن، هاهي ذي، هاهي ذي. لقد صمدت لها، صمدت واجتزت كل شيء. كل شيء. وكان ذلك ما كان يعوزني.

وقد أهديت واحدة منها إلى كسنر Kassner. أما الإيلجيات كلها فهي ملك لك أنت، أيتها الأميرة. وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟» وسيكون اسمها هو: «إيلجيات دوينو» Die Duineser Elegien ولن يكون في الكتاب المطبوع أي إهداء (لأنني لا أستطيع أن أهدي إليك ما هو منذ البداية «ملك» لك أنت)، وليس لي أنا أية ملكية فيها، بل سأكتب: «من أملاك...»

وفي اليوم نفسه، 11 فبراير 1922، كتب رلكه رسالة مماثلة تماما إلى لو سالوميه، يخبرها فيها بفراغه من نظم الإيلجيات، قائلا: «تصوري! كان علي أن أصمد حتى ذلك الوقت. خلال كل المصاعب. يالها من معجزة! ياله من لطف! والكل في يومين، كان ذلك إعصارا. مثلما كان الأمر في دوينو آنذاك. كل ما كان في كياني من خيوط وأنسجة وهيكل قد انهار ولم يكن ثم مجال للتفكير في الأكل. وتصوري أيضا هذا: في مناسبة أخرى قبل ذلك (في السوناتات إلى أورفيوس، وعددها 25 سوناتة، لقد نظمتها فجأة فيما يشبه ما قبل العاصفة، كشاهد على قبر فيرا كنوب)» ثم يقول: «الآن صرت أملك نفسي. لقد كان ذلك بمثابة بتر لقلبي: أن الإيلجيات لم تكن قد أنجزت. (أما الآن) فها هي ذي. هاهي ذي». وكحاشية ملحقة بالرسالة نسخ ثلاث إيلجيات، هي: السادسة، والثامنة، والعاشرة. وقال إن الثلاث

الأخرى سينسخها لها الواحدة بعد الأخرى طوال اليوم، ويرسل بها إليها فيما بعد ثم يقول: «ومن الخير أن تكون عندك نسخة منها. وفضلا عن ذلك، فإنه مما يبعث الطمأنينة في نفسي أن توجد منها نسخ دقيقة صحيحة في خارج بيتي، مصونة وفي أمان». كذلك أخبر بهذا النبأ السيدة ماري دوبروشنسكي (بتاريخ12/2/1922).

6- وفي يوم 14 فبراير 1922 كظم الإيلجيا الخامسة. وقد أهداها إلى السيدة مارتا كينج Martha Kaenig.

وأخبر بذلك السيدة فوندرلي، في رسالة بتاريخ 15 فبراير، يقول فيها إنه «حدثت عاصفة ليلية، على نحو غير متوقع، مثلما حدث للكل، وعلى نحو خارق عجيب مماثل، وذلك بالأمس، يوم الثلاثاء من وقت الاستيقاظ حتى الساعة الثالثة. وأحيط النهار كله بذلك، ولم يكن هناك أكل، ولا شيء معتادا. لقد حدث اضطراب مقدس عنصري. لقد جاءت إلى الدنيا «لاعبي السيرك»، وهي الحادية عشرة إذن!»-ثم يقول»«ومع ذلك فستظل العاشرة الكبيرة هي الأخيرة على كل حال... وسيكون ترتيب إيلجيا «لاعبي السيرك» وراء قصيدة «النساء» (أي قبل إيلجيا الأبطال). ومن المحتمل ألا تعتبر قصيدة «النساء» -ببنائها الغريب النادر ومقاطعها Strophen والمقاطع المضاءة Gegen-Strophen الخيطية المفصلة -أقول: ألا تعتبر إيلجيا، بل هي نوع من «الفاصلة»، أو ستوضع ضمن القسم الثاني من الكتاب في «الشذرات»، حيث ستكون بين أخوات لها».

ومعنى هذا أن إيلجيا لاعبي السيرك ستكون هي الإيلجيا الخامسة، بدلا من إيلجيا «النساء» التي صارت «مدرجة بين الشذرات».

والخلاصة أن تاريخ ومكان «إيلجيات دوينو» هي كما يلي:

أ- الأولى والثانية نظمهما رلكه وهو في قصر دوينو في سنة 1912.

ب - الثالثة نظمها في منشن سنة 1913.

جـ - الرابعة نظمها في منشن في نوفمبر 1915.

د - الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة-نظمها في قصر ميزوت، في المدة من 7 إلى 14 فبراير 1922. واستعان في ذلك بشذرات متناثرة قصيرة وطويلة، كان قد كتبها في أوقات متباعدة في الفترة السابقة.

وفي شهر أكتوبر 1923 ظهرت الطبعة العادية من «إيلجيات دوينو» عند

الناشر Insel-Verlag وكان عدد المطبوع منها عشرة آلاف نسخة.

بين الورد والترجمة

وتقبل تباشير الربيع، فيحرص رلكه على أن يملأ حديقة قصر ميزوت بالورد. وهاهو ذا يستنجد بالصديقة الوفية المعوان دائما في سويسرا: السيدة ناني فوندرلي، كيما تزوده بأغراس الورد. فيقول في رسالة إليها (بتاريخ 10 مارس 1922).

«نكه؟ ورودا! ستكون لي شجيرات ورد... مواكب من الورد، جمهورا من الورد. معجزة الورد. ويالها من معجزة!»

كذلك عني فرنر راينهرت بأن يزود حديقة قصر ميزوت بأغراس الورد. أوَ لا يفكر الآن في شراء القصر!

وفيما بين 20 مارس و11 أبريل 1922، ترجم رلكه قصيدة أخرى لبول فالري عنوانها: «مخطط ثعبان» Ebauche d un Serpent. وفي شهر أبريل نشرت مجلة Insel scliff (السنة الثالثة، الكراسة 4) ترجمة رلكه لقصيدة استيفان مالارميه Mallarme (1842- 1898) التي عنوانها: «قبر» Tombeau. وكان رلكه قبل ذلك قد ترجم لمالارميه قصيدة عنوانها: «مروحة الآنسة مالارميه» (وظهرت الترجمة في المجلة نفسها، السنة الأولى 1920، الكراسة رقم 5) كذلك ترجم لمالارميه القصيدة التي عنوانها: «الدنتلا تزول»، والقصيدة التي عنوانها: «البكر، والمتوقد، والجميل اليوم». لكنه لم ينشر هاتين الترجمتين.

ومن 27 مارس حتى أول أبريل أقام في زيورخ لعلاج أسنانه. وفي أثناء هذه الإقامة، حضر حفلة موسيقية، قال إنه لم يفد منها شيئا يذكر «لأني- وقد تعودت على عزلتي -وجدت نفسي غريبا بين هذا العالم الذي تعود سماع الموسيقى» (من رسالة إلى بالادين، بتاريخ1922/4/11).

زيارة الأميرة ماريه

ومن 6 إلى 9 يونيو 1922 أتت الأميرة ماريه تاكسس لزيارة رلكه، فأقامت في مدينة سيير Sierre المجاورة ونزلت في «فندق قصر بلفي» Bellevue وقرأ لها رلكه الإيلجيات: من الأولى حتى السابعة في الصباح، ومن الثامنة حتى العاشرة في فترة بعد الظهر.

وقد كتب رلكه إلى السيدة فوندرلي عن تأثير هذه القراءة في الأميرة

نفسها فقال (في رسالة بتاريخ 9 يونيو): «أمس الأول كان يوما عظيما في قصر ميزوت. كان أمرا عجيبا الكيفية التي تقبلت بها الأميرة «الإيلجيات» (والجو المحيط قد أضاف إلى هذا). وفي وسعي أن أقول إنني كنت معها السامع والمتقبل. وقد بذلت نفسي لنفسي فقرأت على نحو رائع. ولأول مرة قرأت كل الإيلجيات دفعة واحدة، ومن بينها الإيلجيات الأولى التي كانت تعرفها الأميرة منذ وقت طويل».

كذلك قرأ لها، في غرفتها بفندق Bellevue في يوم 1922/6/8 كل «السوناتات إلى أورفيوس»، قرأها لها دفعة واحدة، وهي في غاية الإعجاب بها.

وسافرت الأميرة بعد ظهر يوم 9 يونيو إلى رول Rolle. وبتاريخ 6/11 كتبت إليه من رول تقول: يا سرافي (وهو اللقب الذي به تخاطب رلكه دائما)! لا يزال في رأسي وقلبي رنين وغناء، ولا أجد الكلمات التي أعبر بها عما شعرت به. وكنت قد سحرت واهتز كياني بما سمعت (من الإيلجيات والسوناتات)... إن في هذا عزاء عن الماضي، وسرورا بالحاضر، ورجاء عظيما في المستقبل».

وكتب إلى بالادين في برلين قائلا: «أعترف بأني لا أزال أشعر شعور من هو في دور النقاهة من هذه الانفعالات الخلاقة، وشبيها بمن تنزل، وركبتاه مربعتان، من القمة العليا لطبيعة العنصرية غير المستكشفة والتي لا يبلغ مداها التعبير» (من رسالة بتاريخ 1922/6/12).

اغتيال فالتر راتناو

وفي 24 يونيو 1921 اغتيل فالتر راتناو Walther Rathenau(1867- 1922) وهو وزير خارجية جمهورية فيمار التي استقرت في ألمانيا. وكان رلكه يعرفه جيدا حين كان لا يزال مديرا لشركة الكهرباء المشهورة. A.E.G قبل الحرب العالمية وإبانها. وكانا يتبادلان الرسائل حتى 7 يونيو 1921. (فتأثر رلكه تأثرا بالغا. وكتب إلى أخت راتناو، وتدعى Edith يعزيها في مصرع أخيها. وقد صرح رلكه (في رسالة إلى السيدة فوندرلي، بتاريخ 28/6) بأن «برلين صارت في نظري أشد بشاعة وأبعث على البغضاء بعد هذه الجريمة الجديدة: اغتيال فالتر راتناو. فبهذا قضي على آخر العقلاء. لقد أحكم قيادة ألمانيا العمياء العنيدة في توتر علاقاتها مع سائر بلاد العالم-ولفزعي جانب حافل بالغصص الأليمة، لأنني كنت أعرف، معرفة كافية، هذا الرجل

الضحية، بحيث أعلم كم كانت استعداداته ومواهبه عظيمة، وكم كانت تجربته فذة، كفيلة بأن تنظم هذه المواهب والاستعدادات».

وكتب إلى السيدة ألبير لازار Albert-Lazard (بتاريخ 22/7/14) يقول: «إن موت راتناو، بوصفه خسارة وعلامة على هذا الزمان، ملأني بالفزع».

ترجمة قصائد فالري

وفي ديسمبر 1922 واصل ترجمة قصائد لفالري:

يقول رلكه في رسالة إلى Paul Morisse (بتاريخ 22/12/7): «حتى الآن ترجمت (بأي سرور وانفعال فريدين!): «القصيدة السرية» -و«الرمان» Les Grenades، ثم المقبرة البحرية-و«مخطط ثعبان». وأعتزم، إن ضمنت هدوء شتائي، أن أضيف إليها قصيدة ثالثة من قصائد فالري الكبيرة». ويتابع فيقول: «أما نثر فالري فإنه يغريني منذ زمان طويل، لكني لم أجرب منه شيئا حتى الآن. ولا أدري هل تجزي وسائلي في هذا المجال أيضا كيما أنجز مطابقاتها الأخيرة. آمل في ذلك، لكني لا أزال متأخرا جدا في إنجاز أعمالي الخاصة، إلى درجة لا أستطيع معها الخوض في هذه المهمة الطويلة المستغرقة».

وهاك بيانا بتواريخ ترجماته لقصائد فالري إبان شتاء 1922/1923:

1- في أول ديسمبر 1922 ترجم«القصيدة السرية» Ode Secrete.

2- بين 2 إلى 7 ديسمبر ترجم«النائمة» La Dormeuse

3- وبين 7 إلى 19 ديسمبر ترجم القصائد التالية:

- «الحزام».
- «الداخل».
- «الخطوات».
- «شعر».
- «خمر ضائعة».

4- نحو 24 ديسمبر ترجم «نشيد الأعمدة».

5- في 11 يناير 1923 أتم ترجمة قصيدة«الفوثيا» Le Fythie.

6- في 7 فبراير ترجم المقطوعة الثامنة من قصيدة «النخيل» Palme.

ويقول في رسالة إلى Paul Morisse(بتاريخ 10 فبراير 1923): «يسرني أن أعلن لك أن كل القصائد تقريبا، التي تحتويها مجموعة Charmes قد أنجزت ترجمتها. وربما تخليت عن محاولة ترجمة قطعتين أو ثلاث صغيرة منها،

هي جميلة لكنها ولدت فرنسية تماما بحيث لا أوثر أن ألويها لوسائلي التي تستبعد كل قسر. لكن الباقي قد تم إنجازه، كل هذه القطع الرائعة، وفي وسعي أن أقول إنني أعتقد أن مهمتي هذه ناجحة مباركة. ولقد كان انجذابي من القوة بحيث انصرفت عن ترجمة ميكلنجلو وسائر أعمالي في الترجمة، كيما أكرس نفسي تماما لهذه الترجمة التي تحمل في داخلها جزاء عذبا مستمرا إلى غير نهاية».

وكتب إلى بالادين (بتاريخ 12 فبراير) فقال: «فيما يتعلق بفالري، خطوت إلى الأمام خطوات جميلة. وفي الشهر القادم سأكتب له نسخة أنيقة من كل ما قمت بترجمته حتى الآن. لقد كان ذلك في بيتي. والآن أبلغني فالري برغبته هذه عن طريق السيد موريس Morisse. وهذا جميل».

7- وفي الأيام من 12 إلى 14 فبراير 1923 ترجم قصيدة «الفجر». وكتب إلى بالادين (بتاريخ 21 أبريل 1953) يقول: «ترجمت من مجموعة Charmes (الفالري) كل القصائد، باستثناء خمس أو ست. وسيكون هذا مجموعا فاخرا من الترجمات، يبدأ بقصيدة «شجرة الدلب» Platane، وينتهي بقصيدة «النخيل» Palme .

وفي 7 فبراير 1924 أرسل رلكه إلى بول فالري المخطوطة الكبيرة التي خطها بيده، من ترجماته لمجموعة Charmes نظم بول فالري. وعلى الصفحة الأولى، كتب هذا الإهداء:

«إلى بول فالري
الذي يحب النتائج المتحققة بالفعل
هذا المجموع
من الرضا والطاعة
والنشاط الموازي»

وفي رسالة مرفقة كتب رلكه: «وخارج هذه الصفحات، التي صارت من الآن فصاعدا ملكا لك، لم يبق عندي غير مسودات، تصعب أحيانا قراءتها، لأنني غالبا ما عملت وأنا أتريض بين الكروم، والقلم في يدي».

وتبدأ هذه الرسالة هكذا:

«سيدي العزيز!

منذ أن علمت، بوساطة السيد موريس Morisse، باهتمامك بترجماتي،

لم أكف عن إحاطة رغبتكم الرقيقة-في الحصول على نصها-بأحسن عرفان بالجميل. ومع ذلك، فقد تأخرت في تقديمها إليك. فهل كان يحجزني عن ذلك يقيني بأنك لن تقرأها؟ لا أعتقد ذلك. بل على العكس، هذا الظرف الفاصل والذي يحرمني من موافقتك الواعية، يهب إهدائي المتواضع مرتبة القربان. إني أقدم إليك مخطوطتي الخاصة. بل يلوح لي أن خطها نفسه يحتفظ بشيء من تلك الحماسة السعيدة التي مكنتني من أن أتابع-عن قرب-المسيرة الفريدة المنقطعة النظير لانتصارك المتواصل».

ولا يسعنا هنا إلا أن نستغرب من هذه اللهجة التي استخدمها رلكه في مخاطبة بول فالري: فقد بالغ في التواضع، بل والاستخذاء، مع أنه في الشعر أعظم مكانة من بول فالري. ثم إن فارق السن بينهما ضئيل (إذ فالري يكبر رلكه بأربع سنوات فقط!) ولا يقتضي كل هذا التواضع والاستحياء. كذلك لم يكن لفالري من المكانة الاجتماعية ما يحمل رلكه على استجداء عطفه أو التماس المنفعة منه.

وقد تلقى فالري رسالة رلكه هذه وهو في فانص vence، فشكر لرلكه هذه الرسالة. أما المخطوط فكان قد وصل إلى باريس، ولم يكن فالري قد اطلع عليه بعد. وكانت رسالة الشكر هذه بتاريخ 17 فبراير، وكانت مقتضبة باردة!!

لكن تفسير برود فالري هو أنه حتى لو كان قد تلقى المخطوط قبل أن يكتب رده،لما كان قد صنع غير صنيعه هذا، لسبب واضح جدا وهو أن فالري لم يكن يعرف اللغة الألمانية، ولهذا لم يكن قادرا على قراءة ترجمة رلكه، ناهيك عن تقديرها.

وهنا نذكر أيضا أن ارنست روبرت كورتيوس Ernst Robert Curtius (1886-1956) -أستاذ الأدب الفرنسي واللغات المتفرغة عن اللاتينية في جامعات: هامبورج، وهيدلبرج، وبون، ومن أعظم النقاد ومؤرخي الأدب الأوروبي في القرن العشرين -كان قد ترجم لفالري بعض القصائد، ومنها قصيدة «مخطط ثعبان»، وقصيدة «المقبرة البحرية» (نشرت هذه الترجمة في مايو 1924 في مجلة «المركير الجديد» Der neue Merkur، السنة السابعة، الكراسة 8). وقد نالت ترجمة كورتيوس لقصيدة «مخطط ثعبان» نجاحا وشهرة واسعين، كما يظهر من رسالة كتبتها بالادين إلى رلكه بتاريخ 1924/9/20. ورلكه نفسه، في رسالة إلى فالري بتاريخ 1924/3/23يقول إنه يهمه أن يقارن بين ترجمته هو

وترجمة كورتيوس للقصيدتين نفسيهما: «مخطط ثعبان» و«المقبرة البحرية».

زيارة فالري لرلكه في ميزوت

وفي 6 أبريل 1924 زار فالري رلكه في ميزوت. وكان ذلك أول لقاء بينهما. وقد كتب فالري في دفتر الذكريات في ميزوت ما يلي: «هذا اليوم من الخلوة بين كلينا-يا عزيزي رلكه -سيكون دائما يوما ثمينا عندي وإني لأشكر لك من صميم قلبي». وكتب رلكه في الهامش السفلي من الصفحة نفسها: «في 8 أبريل غرست صفصافة شابة في حديقة ميزوت: بودي أن تنمو كذكرى لهذه الزيارة الجميلة الخليقة بالذكر، والتي قام بها الشاعر الكبير».

وكتب فالري إلى زوجته (بتاريخ 7 أبريل 1922) عن هذه الزيارة فقال: «لقد استقبلني رلكه استقبالا جميلا منذ رصيف المحطة. وقد نزلت أنا هنا في فندق، كان من قبل قصرا لنبلاء من هذه النواحي، من حيث السقف والرسوم. وبعد تناول الغداء، صعدنا إلى القصر الذي يقيم (رلكه) فيه، وهو بعيد ومرتفع. ما أغرب هذا البلد! لقد كان رلكه كامل التصرف. وقد سلمني قصيدة من أجل أجاث Agathe». و«أجاث» هي ابنة فالري. وقد نظم رلكه من أجلها قصيدة باللغة الفرنسية.

وفي اليوم نفسه -6 أبريل 1924- كتب رلكه إلى مدام موريس Mme Morisse قائلا: «ينبغي أن تشاركيني بسرعة في فرحتي الكبيرة جدا: إن بول فالري قد شرفني بالتوقف هاهنا من أجلي أنا، وهو قادم من جنيف في طريقه إلى إيطاليا. لقد كان الأمس كعيد الأحد»لقد أمضيناه في أحاديث لا تنضب، اتسمت بالحرارة والعذوبة معا. ثم استأنف فالري سفره هذا الصباح».

ومن ميلانو -بتاريخ 11 أبريل -تلقى رلكه تحية مشتركة من فالري وأورليا جالارتي - أسكوتي، وفلبوساكي-هذا نصها»«عزيزي رلكه! هاأنت ذا ترى أننا نفكر فيك، بل ونتحدث عنك. نعم! نتحدث عنك حديثا طيبا. من صميم قلبي. ب. ف). وكان رلكه قد ذهب إلى ميلانو للاشتراك في الاحتفال بذكرى ليونردو دافنتشي Leonardo da Vinci. وهناك استقبله جبرييلي داننتسيو D.Annunzio. وإلحاقا بهذه البطاقة المشتركة كتبت أورليا رسالة إلى رلكه تقول فيها: «ليس فقط نحن فكرنا فيك وتحدثنا عنك حديثا طيبا، بل علي أن أقول لك إن أحد أصدقائه قد جدد الرغبة الحارة جدا في أن يسمع صوت أعظم شاعر ألماني» وهي هنا إنما تقصد نفسها.

وبعد أن عاد فالري إلى باريس، كتب من هناك إلى رلكه (بتاريخ 24 يونيو) ليشكر له اليوم الذي قضياه معا في ميزوت. فقال: «إني أحتفظ بذكرى ملجأك للخلوة. وأنا أستخدم هذا التعبير على هذا الشكل المنطقي: ذكرى ملجأ للخلوة هي نفسها ملجأ للخلوة».

رلكه يواصل ترجمة فالري

ويتابع رلكه ترجمة بعض إنتاج فالري:

ففي الفترة من 29 سبتمبر إلى 3 أكتوبر 1924 ترجم كتاب «أوبالينوس Eupalinoos أو المعمار». وأرسل هذا النبأ إلى السيدة فوندرلي (بتاريخ 1924/10/4) فقال: من يوم الاثنين حتى أمس قمت بترجمة أولية لكتاب Eupalinoos تأليف فالري. إنه عمل عظيم، يقع في 89 صفحة كبيرة. وقد تمت الترجمة»هنئيني إذن يا عزيزتي، وافرحي. ما أروع هذا الجمال. وقد فهته بكل تأكيد وهدوء، كما لو كان من إنتاجي أنا» -وقال في رسالة إلى بالادين (بتاريخ 24/10/24): «أمليت ترجمة أولية لكتاب Eupalinos إلى الألمانية. وهي ترجمة مؤقتة، سأعيد النظر فيها، وربما كتبتها من جديد». وقد نشرت هذه الترجمة في سنة 1927 عند الناشر Insel.

اللقاء الثاني بينهما في باريس

وسافر رلكه سفرته الأخيرة إلى باريس، فقضى فيها من 7 يناير إلى 18 أغسطس 1925، ونزل في فندق فويو Foyot المواجه لحديقة اللوكسمبورج. فسعى إلى اللقاء مع فالري. لكن فالري كان مريضا ولا يخرج من منزله. ولم يستطع رلكه أن يلقاه إلا نادرا، وبالمصادفة في حفلة شاي في صالون صديق. قال رلكه في رسالة إلى أورليا جلارتي (بتاريخ 1925/2/23):

«لما كان فالري موزعا بين عديد من الالتزامات اليومية، فإني لا أراه إلا نادرا، اللهم إلا أن يجمعنا الحظ السعيد، أو اهتمام الأصدقاء، في غداء أو في ساعة تناول الشاي في صالون صديق».

وبعد مغادرة رلكه لباريس كتب إليه فالري بتاريخ 30 أكتوبر 1923، فقال:

«كيف حال عزيزي رلكه؟ لقد قيل لي إنك كنت في رجاتس Ragaz وأنك كنت عليلا. فهل هذا صحيح؟ وهل كنت عليلا جدا؟. ما أشد أسفي على كوني لم أرك إلا قليلا جدا في باريس. لكني أمضيت صيفا سيئا. وها هو ذا الشتاء يبدأ بداية سيئة. لقد هاجمني في حلقي. هل في عزمك أن تعود

إلى هنا (أي: باريس)؟ لقد رأيت الطبعة الجميلة لقصائدنا. وفي نيتي أن أكتب إلى الناشر Insel للحصول على نسخة. إنها مطبوعة طبعة جميلة ومجلدة بالكرتون. أبعث إليك بعميق مودتي وتمنياتي من صميم قلبي».

وعلم رلكه أن فالري بسبيل كتابة «دراسات من أجل الإله نرسيس» وأنه أنجز منه شذرات[3]. وقرأها رلكه وقام بترجمتها قبل إقامته في رجتس (من 16 إلى 30 سبتمبر 1925) كما جاء في رسالة إلى ناشره كبنبرج (بتاريخ أول سبتمبر 1926) حيث قال: «أنت تعلم أنني قمت بترجمة «شذرات الإله نرسيس» الكبيرة قبل سفرتي إلى رجتس. ولم تسرني حتى الآن ترجمة قمت بها أكثر مما سرتني هذه الترجمة لقطع كبيرة من القصائد. والنتيجة تبدو لي صافية جدا وأكيدة ومليئة بنجاح منقطع النظير».

وقد ظهرت «دراسات من أجل الإله نرسيس» Etudes Sur Narcisse لأول مرة في سنة 1927، على شكل طبعة لهواة الكتب عند الناشر Laporte في باريس.

وفي شهر سبتمبر 1927 نشرت ترجمة رلكه لـ«العمة (أو: الخالة) برتا» Tante Berche لبول فالري، وذلك في «السفر المهدى من الكتاب الأجانب إلى بول فالري».

٩ قصائد وعواصف ومرض

سافر رلكه إلى باريس لآخر مرة في حياته، فوصلها في 7 يناير 1925 قادما مباشرة من فالمون Valmont بسويسرا. وأقام فيها حتى 18 أغسطس 1925، أي سبعة أشهر وأحد عشر يوما. ونزل في فندق Foyuk الكائن في شارع تورنون Tournor رقم 33 في مواجهة قصر وحديقة اللوكسمبور بالحي السادس.

وفي اليوم نفسه -7 يناير -أبرق إلى السيدة فوندرلي في فالمون، قائلا: سفرة ممتازة مريحة. باريس تبرز من خلال ضباب صباحي جميل. أشعر تماما أنني في بيتي، أما من صميم قلبي فأنا عندك أنت». وكانت بالادين تسكن في فندق قريب من فندق فويو. لهذا كانا يلتقيان كل يوم تقريبا.

ونحو يوم 10 يناير أخبر بوصوله إلى باريس مترجمه الفرنسي موريس بتز Maurice Betz (1898-1946). وهو قصصي ومترجم وكان يصدر مجلة «كراسات الشهر Cahiers du mois» وهو صاحب الفضل الأكبر في تعريف الفرنسيين بمؤلفات رلكه، إذ ترجم معظمها إلى اللغة الفرنسية. فوافاه بتز في غداة اليوم التالي. وقاما معا بنزهة في حديقة اللوكسمبور. ويسأله رلكه كيف صار، وهو من إقليم

الألزاس، كاتبا وباللغة الفرنسية، وكانت الألزاس في العشرين سنة الأولى من حياته تحت سيطرة ألمانيا واللغة الأصلية لأهلها هي الألمانية.

وبعد ذلك ذهبا معا إلى دار النشر: جاليمار Gallimar في شارع جرينل Grenelle آنذاك -لتحديد موعد يأتيان فيه لأخذ أوراق رلكه التي كان قد تركها في باريس قبيل قيام الحرب العالمية الأولى، وأمكن إنقاذها دون سائر أمتعته. وكان أندريه جيد قد أودعها عند الناشر جاليمار، كما ذكرنا من قبل.

وفي يوم 11 يناير شهد القداس في كاتدرائية نوتردام، كما ذكر ذلك في رسالة إلى السيدة فوندرلي فقال: «بالأمس مثلا، إبان القداس الكبير في نوتردام، شعرت بأنني لا أزال في باريس نفسها. وخيل إلي أنني أجلس على الكرسي نفسه المسنود إلى ذلك العمود الخالد الذي كنت أختفي وراءه، في الماضي دائما حتى أستمتع على نحو أفضل بإعصار الأرغن الذي يثيره تقديم القربان على المذبح» (رسالة بتاريخ 1925/1/12).

لكنه لا يجد أحيانا أن باريس هي هي كما عرفها وعاشها، فيقول في الرسالة نفسها: «وفي لحظات أخرى تفزعني المدينة التي صارت شديدة الاضطراب والقلق أكثر مما كانت قبل أربع سنوات... فأتحسر على بيتي في ميزوت. لكن ينبغي علي أن أصمد مادمت قد جئت إلى هنا، وأن أنتظر ما عسى أن ينتج عن هذه المغامرة. وكان فالري، رغم مشاغله وازدحام الأمور عليه، أول من جاء لرؤيتي. إنه رجل ساحر».

وفي 16 يناير استرد رلكه الصندوقين المحتويين على أوراقه واللذين كانا مودعين عند الناشر جاليمار. وراح يتفحصهما، فوجد فيهما مراسلاته القديمة، وهي شبه كاملة، وتعليقاته ومخطوطاته، والخاتم القديم المنقوش فيه رنك جده الأعلى.

وحدث أنه في هذه الأيام الأولى من مجيئه إلى باريس، كان بالقرب من شارع المادلين، وشاهد في واجهة محل حلاقة زجاجة من مياه الشعر ماركة هوبيجان Houbigant، فدخل والمحل لشرائها. ولما أراد أن يدفع، تبين له أنه نسي كيس نقوده، في الفندق، فاعتذر بذلك. فقال له صاحب المحل: «يستطيع أي إنسان أن يدعي ذلك، يا سيد!». وهنا بادر سيد وجيه الطلعة ودفع ثمن الزجاجة وقدمها لرلكه. وهذا السيد الوجيه هو كارل ياكوب بوركهرت (1891-1974) الدبلوماسي السويسري والمؤرخ وصديق هوفمنزتال، وزوج

السيدة اليصابت رينولد. وكان يغسل شعره في هذا المحل، وشاهد ما حدث وهو يتطلع في المرآة أمامه. فشكر له رلكه هذا الصنيع، وضحك ضحكة صبيانية ظلت في ذاكرة بوركهرت، «لأن رلكه ليس مثل غالبية الناس حين يضحكون: إنه لا يغلق عينيه أو يطرف بهما، بل يفتح عينين واسعتين ويتطلع تطلعا كاملا في الآخرين»-كما كتب بوركهرت في «مذكراته»[1].

ويخبر رلكه بهذا الحادث السيدة فوندرلي (رسالة بتاريخ 16 يناير) فيقول: أتعرفين من الذي قابلته؟ إنه كارل بوركهرت! في محل حلاقة، في اللحظة التي لم يكن معي فيها نقود، لأنني خرجت دون أن آخذ معي كيس نقودي!»

وبعث رلكه بها يشبه التقرير عن الأسبوعين الأولين من إقامته هذه في باريس، ضمن رسالة إلى السيدة فوندرلي، بتاريخ 21 يناير، يقول فيها:

«عزيزتي! من المستحيل علي أن أكتب أو أن أقرأ. إني أخرج ثم أعود إلى الفندق. هذا كل ما في الأمر. وهذا مزعج. إني أشاهد كل الناس ماعدا الشخصين اللذين أود أن أراهما كل يوم، وهما: بول فالري، ومدام بوتسي Pozzi. إن فالري مريض، ولا يخرج من بيته، وأنا أحسده على هذا. أما مدام بوتسي فرأيتها للمرة الأولى والوحيدة. وكان الأمر أليما، ذلك أنها منطفئة ومشبوبة تحت الرماد البائس لمرضها... وشاهدت السيدة دي نواي de Noailles، وقد أكدت لي أنها تتذكرني بشدة. وأشاهد كثيرا دوقة كليرمون .Clermont وبالأمس التقيت بوني دي كستلان.Boni de Castellane وتحادثت طويلا مع الدكتورة ماردروس ...Mardrus[2] لكن الوقت يعوزني لكل شيء، ولا أفلح حتى في تسجيل مذكرات يومية؟ وهذه خسارة لأنها كانت ستكون مصدرا فيما بعد، مصدرا للتسلية والشفقة.

وليست لديك فكرة عن بغض الناس بعضهم لبعض هنا. في الصالون الواحد يوجد بعض الأعداء، أي بعض الأصدقاء المتخلين عن الصداقة، والذين يتجاهل بعضهم بعضا بمهارة واستمتاع منقطعي النظير. وإني لأسائل نفسي ألف مرة كل يوم عما إذا كنت لا أعمل كل شيء من أجل أن أفقد باريس التي عرفتها في الماضي».

قصائد فرنسية

وإبان شهر يناير 1925 نظم رلكه القصائد التالية باللغة الفرنسية:

1- «نرجس» Narcisse.

وقد نظمها من أجل بالتوش كلوسوفسكي، ابن بالادين كلوسوفسكي، وكان قد نسخ من أجل رلكه لوحة للرسام بوسان Poussin عنوانها: «نرجس».

2- «إلى السيدة البارونة رينيه دي بريمون :Renee de Brimont «كي يجد المرء الإله فينبغي عليه أن يكون سعيدا.

3- «أقنعة تمتد إلينا...».

لكن رلكه لم يدرج أية قصيدة من هذه القصائد الثلاث في مجموعة Vergers، وهي مجموعة قصائد كتبها كلها باللغة الفرنسية.

4- كذلك شرع في نظم قصيدة تبدأ هكذا: «الريح، بأية ذكرى، وبأية حياة، الريح...». وسيدرجها في مجموعة Vergers.

5- وشرع في قصيدة مطلعها: «راحة الكف، راحة الكف، أيها السرير المنكوش...»

6- وشرع في قصيدة مطلعها «إيروس 4: ليست العدالة هي التي تمسك بالميزان المضبوط...»

التعرف إلى شارل دي بوس

وقد حثه أندريه جيد على التعرف إلى الناقد الفرنسي شارل دي بوس Charles du Bos (1882- 1939) صديق «جيد»، وإليه أهدى «جيد» كتابه Numquid et tu (1922) . فقام رلكه بزيارة شارل. دي بوس في 29 يناير 1925. وقد سجل دي بوس في «يومياته» بتاريخ 1925/1/30 ما يلي: «راينر ماريا رلكه، الذي كتب لي جيد رسالة حارة لتقديمه إلي قد جاء بالأمس في الساعة الرابعة والنصف، وبقي معنا حتى قرابة الساعة السابعة. ولقد مر علي وقت طويل جدا -ربما سنوات -لم ألق بها رجلا نادر الصفات مثله، وروحا طاهرة مثل روحه، مصونة صيانة كاملة، لم تؤثر فيها أية قذيفة من القذائف التي تصوبها الحياة نحونا لتزيد في سقوطنا على نحو أكيد. إن معرفته واستعماله للغة الفرنسية هما مصدر متعة دائمة التجدد. ولا يحده شيء -فيما يبدو -ليعبر بلغتنا (الفرنسية) عن أدق دقائق فكره أو إحساسه، وبوادره، وهي عديدة، لا تضايق أبدا».

وفي الحديث الذي جرى بينهما تناولا الشاعر استيفان جيورجه، وكيف التقى به رلكه في حديقة في فيرنتسه، كما تناولا هلنجرات، وفولفسكيل، وفاسرمن، وبورشرت، وكسنر، وزمل Simmel، وفالري، وقصائد رلكه باللغة الفرنسية، والتي نشرت في مجلة Commerc. وبعد تناول الشاي تحدث رلكه

بحماسة عن رحلته في روسيا وزيارته لتولستوي. كذلك يذكر دي بوس في هذه الملاحظات أن رلكه بدأ يراجع ترجمة موريس بتز Betz لكتابه «صحائف مالتي برجه» إلى اللغة الفرنسية.

مراجعة ترجمة «صحائف مالتي..»

ولقد ظل رلكه طوال الشهور التالية من إقامته في باريس يراجع ترجمة بتز لـ «صحائف مالتي لوردز برجه» ويذكر بتز في كتابه: «رلكه حياة» Rilke Vivant (باريس 1937) ما يلي في هذا الشأن:

«كان رلكه يأتي إلي في منزلي (21 شارع مديسيس Medicis في الحي السادس بباريس) عادة بعد الساعة العاشرة بقليل، وأحيانا في موعد متأخر عن ذلك. وحين كان لا يقرع جرس البيت إلا في الحادية عشرة فإنما كان السبب في ذلك، بوجه عام هو أن الجو كان جميلا، فآثر أن يجول خلال حديقة اللوكسمبور، التي كان بابها في مواجهة فندقه تقريبا، محاولا المحاولة نفسها كل صباح... وكانت هذه الزيارة اليومية تمضي عادة على النحو التالي تقريبا... كان رلكه يخرج من حقيبته الصغيرة الجلدية الكستنائية اللون، والتي كانت معه دائما، نسخة من النص الألماني لـ «صحائف مالتي....» مجلدة بلون رمادي. وكنت أفتح مخطوط ترجمتي عند الصفحة التي توقفنا عندها بالأمس. وكنت أنا أبدأ الترجمة الفرنسية بصوت عال، بينما كان رلكه يتابع على الأصل الألماني. وبين الحين والحين كان يقاطعني مبديا ملاحظة، أو يقدم إلي تفسيرا، أو يطلب مني قراءة الموضع من جديد».

ويتابع بتز Betz فيقول: «وبعد أن استعاد انطباعاته الأولى عن باريس، راح يحدثني عن مناظر بطله، أعني الكاتب النرويجي سجبيورن أوبستفلدن Sigbijorn Obstfelden. وروى - والكتاب مفتوح على المنضدة - أن سجبيورن أوبستفلدن كان كاتبا نرويجيا اكتشفه رلكه مصادفة أثناء قراءاته. لقد كان شاعرا رقيق الانطباعات، مفرط الحساسية».

كذلك يروي لبتز كيف نشأت في ذهنه فكرة «صحائف مالتي»، فقال إنه قصد منه أن يكون نوعا من التوازن مع «قصص الإله الطيب»، «فلجأت إلى شكل الحوار الذي استخدمته في وصف ايفلد وصديقه... وكتبت سلسلة متصلة من المحاورات بين شاب وفتاة يتبادلان أسرارهما الصغيرة. وحدث أن الشاب تحدث طويلا مع الفتاة عن شاعر دانيمركي كان هو قد عرفه،

اسمه: مالتي Malte توفي في ريعان صباه في باريس... وخانت الفطنة الشاب فقال لها: إن هذا الصديق ترك يوميات». لهذا تخلى رلكه عن أسلوب المحاورة، وشرع في كتابة «صحائف مالتي» على شكل يوميات.

ولم تقطع هذه المراجعة للترجمة الفرنسية إلا إصابة رلكه بالأنفلونزا في المدة من 1 الى 18 أبريل 1925.

قصائد فرنسية في فبراير - يوليو 1925

وواصل رلكه نظم قصائد باللغة الفرنسية:

أ- ففي شهر فبراير نظم القصائد التالية:

- «الطفل في النافذة يترصد عودة أمه».
- «الهاربون: لتبق على حافة هذا الطريق المظلم»
- «السلام: إلى السيدة أميرة بسيانو Bassiano: وجهنا سليم...»

ب - وفي ربيع 1925 نظم القصائد التالية:

- «الملائكة: هل صاروا متحفظين؟»
- «كم هو حلو أحيانا أن أكون من رأيك»
- «في شقرة النهار».

وهي تندرج في مجموعة Vergers (تحت أرقام: 27، 22، 46) وفي المدة نفسها خطط القصائد الفرنسية التالية:

- «إلى ماري لورنسان، مثلما في الخرائط الجغرافية».
- «المستقبل: المستقبل، هذا الاعتذار للزمان».
- «الأمومة: حياتي، أنت ملأتها».
- «سان سولبيس: الكل يتوافق تماما».
- «الرقص على السلم: هذا السيد الساكن في الطابق الأول».

ونحو نهاية أبريل نظم بالفرنسية قصيدة: «شذرة من العاج، الراعي الرقيق الذي عاش بعد» (في مجموعة Vergers برقم 13).

وكان رلكه قد اشترى تمثالا صغيرا من العاج يمثل راعيا.

ونحو أول مايو نظم بالفرنسية قصيدة مطلعها: «كيف تتعرف بعد ... .» (رقم 32 في مجموعة Vergers). وبها ختم هذه المجموعة.

وكتب القصائد الفرنسية في كراستين، ووضع لها العنوان التالي: «تمرينات وبينات Exercises et Evidences.

وبعض ما فيها من قصائد سيدرجها فيما بعد في مجموعة عنوانها: «الورد» Les Rose، وفي مجموعة «النوافذ» لما أعدها للطبع. ولن تطبع «تمرينات وبينات» كما هي في مجموعة قائمة بذاتها.

جـ - وفي أوائل الصيف (سنة 1925) واصل رلكه نظم قصائد باللغة الفرنسية، هي:

«القط: أيها القط في واجهة العرض، أيتها النفس التي تمنح...»

«دفن: بين الآلات السريعة...»

- «شك: أيتها الطبيعة الحنون، أيتها الطبيعة السعيدة، حيث الكثير..»

وستدرج هذه القصائد الثلاث في مجموعة «تمرينات وبينات..»

- «درس في النحو: إني أشبهك بذلك «الما» الشديد المراس...»

وفي أول يوليو 1925 تنشر «المجلة الفرنسية الجديدة» NRF. التي تصدر عن دار النشر جاليمار، ويرأس تحريرها جان بوليان Gean Paulian-خمس قصائد فرنسية من نظم رلكه (السنة 12، العدد رقم 142) وهي:

- طرق لا تؤدي إلى أي مكان» (وهي ضمن مجموعة «رباعيات فالسية» Quatrains Valaisans برقم 31، وقد نظمها رلكه في ميزوت في أول سبتمبر 1924).

- «ابق هادئا، إذا حدث فجأة أن...» (ضمن مجموعة Vergers برقم 3، وقد نظمها في ميزوت في نهاية يناير 1924).

- «نظرات الملائكة، ربما قمم الأشجار» (ضمن مجموعة Vergers برقم 39، نظمها في ميزوت في مستهل شهر مارس 1924).

- «إيه يا أصدقائي، أنتم جميعا، إني لا أنكر....»(ضمن مجموعة Vergers برقم 39، نظمها في ميزوت في مستهل شهر مارس 1924).

وفي 15 يوليو 1925 نشرت «المجلة الجديدة» La Revue Nouvelle التي كان يشرف عليها Manuel- Gelis(السنة الأولى عدد 9/8)

أربع قصائد فرنسية لرلكه، هي:

- «المستقبل»

- «سان سولبيس»

- «الرقص على السلم»

- «درس في النحو»

وكلها قد نظمها رلكه في ربيع 1925 وهو في باريس، كما ذكرنا من قبل.

وفي منتصف شهر يوليو 1925 يدرج رلكه القصائد التالية في مجموعة «تمرينات وبينات»:

- «الينبوع: تكلم أيها الينبوع، أنت يا من لست إنسانيا» (نظمها في أوائل يوليو).
- «حركة حلم: المصعد الكهربائي الذي يجتاز، دون ضجة، طوابق الحلم» (نظمها نحو يوم 6 يوليو 1924).
- «ينبوع آخر: أيها الينبوع المتدفق، أيتها الإرادة السرية...» (نظمها نحو 1924/7/7).
- «من أجل ينبوع آخر: لنتبادل آراءنا، امخر لي بالثلج...» (يوليو 1924).
- «عند نهر السين... سلام هذه الملامح...» (يوليو 1924).

رلكه يرفض السعي لمنحه وسام اللجيون دونير

وفي 12 مايو 1925 سأل فالري رلكه هل يسعى له في أن يمنح وسام اللجيون دونير (وسام الشرف الفرنسي). فأجابه رلكه كتابة:

«فكرت في الأمر منذ أن سألتني. (وأجيب عليك فأقول:) كلا، يا صديقي العزيز! لست أنا الذي سأزيد عدد مشاغلك. وإنها لمهمة لا جدوى منها فيما يبدو لي: أن تقوم بهذا المسعى-وفيما يتصل بي، لو أنني فكرت في الأمر، فإن موقفي-لو نجح هذا المسعى-سيزداد تعقيدا-ربما-لكوني قد رفضت (في سنة 1918) وساما نمساويا سقط علي مصادفة. في ذلك الوقت، شعرت شعورا قويا بأنه لا ينبغي لي أبدا أن أقبل أي وسام. صحيح أنه من بين ألوان التكريم التي ندعي أنها تكرم شجاعة أدبية (معنوية) سعيدة -هذا الشريط الصغير لاح لي دائم أنه الوحيد، في بعض المواضع الذي يكتسب كل قيمته المعنوية. لكن صدقني، أيها الصديق العزيز أنه يكفيني أن أشاهد لمعان ذلك اللون الأحمر التوكيدي في عروة سترتك (أو-مثلا-في عروة سترة فالري لاربو Larpaud) حتى أرى أنه هناك أفضل مما سيكون لو كان في عروة سترتي أنا».

وموقف رلكه من الأوسمة وألوان التشريف الرسمي موقف خليق بالتقدير ويدل على اعتزاز بالقيمة العقلية الذاتية التي لا يزيدها وسام أو وجاهة منصب، ولا ينتقص منها الخلو من كليهما. وهو في ذلك على الطرف النقيض من فالري، الذي كان شديد الحرص على الأوسمة والنياشين ومناصب التشريف، ويمضي معظم أوقاته في زيارة أصحاب النفوذ وكبار

السياسيين ورجال الجيش. وقد اعترف هو نفسه بهذه الخصلة وكأنه يلوم نفسه. فيما بينه وبينها، دون أن يغير شيئا من سلوكه، فقال في سنة 1929: «أن أمر بكل هذه الأوساط في كل أسبوع متحدثا هنا ومتحدثا هناك، مع ذوي النفوذ والمارشالات والمؤلفين، والسيدات والساسة-هذا يجعلني مثل واحد من شخصيات فولتير الذين كانوا يزورون باريس مندوبين من الله، وعليهم تقديم تقارير إليه عن شؤون هذا العالم».. ويتساءل كاتب المادة عن Valery في معجم روبير Le Robert الكبيرللأعلام (جـ 5 ص 3214 عمود1): «إلى أي إله قدم فالري تقرير في استقباله للماريشال بيتان Petain في الأكاديمية الفرنسية في سنة 1929، وتقريره عن التشريفات التي انهمرت عليه في فرنسا، وإنجلترا، واسكندناوة، وألمانيا، وإيطاليا؟» ولهذا النشاط الرسمي، صار فالري -على حد اعترافه هو-نوعا من شاعر الدولة» (سنة 1932).

وكان فالري في ذلك الوقت -النصف الأول من سنة 1925-منهمكا في السعي الملح الملحف لدى أعضاء الأكاديمية الفرنسية: كي ينتخبوه عضوا فيها، حتى تم انتخابه في تلك السنة -1925-في الكرسي الذي خلا بوفاة أناتول فرانس. ويحق للمرء أن يتساءل: أليس في جواب رلكه هذا على فالري رائحة من التهكم والسخرية من ولوع فالري بهذه التشريفات الرسمية؟. أو لا ينطوي على تقريع وتوبيخ له ولأمثاله من المتهافتين على الألقاب والأوسمة والمناصب التشريفية والجوائز التقديرية، وما شاكلها من أمور لا يولع بها إلا العاجزون والتافهون، ليعوضوا بها عن نقائصهم؟!

عاصفة حول قصائد

وقد أثارت قصائده الفرنسية عاصفة من الاستهجان في بعض الأوساط في ألمانيا. فقد كان الجو العام في ألمانيا مشحونا بالكراهية لفرنسا بسبب إذلالها لألمانيا في معاهدة فرساي، وما تلا ذلك من احتلال فرنسا لإقليم الرون Ruhn-وهو الإقليم الصناعي الرئيسي في ألمانيا-ضمانا للتعويضات المفروضة على ألمانيا لصالح فرنسا.

وإذا برلكه يفضي بحديث إلى موريس مارتان دي جار Mertin du Gard (1896- 1970) -مدير تحرير مجلة Nouvelles Litteraire (من 1923-إلى 1936)، يقول فيه رلكه: «كل الفروق الدقيقة للسعادة أو للشقاء أو للوحدة إنما أجدها مرتسمة على وجوه الناس في باريس وحدهم، والحيوية الفرنسية

تعبر عن نفسها في تعدد هذه الرؤى المتباينة. في الشارع أنا لا أجتاز أبدا خلاء، إنما أمضي من وجه إلى وجه آخر، مع ذكرى القيمة المخلصة غير التقريبية للوجه الأول. والكل أيضا مملوء بنور رقيق حافل».

وترجمت هذه المقابلة إلى اللغة الألمانية، ونشرت في مجلة Ausland, Pos التي تصدر في منشن. فأثارت عاصفة من السخط على رلكه. ففي مجلة Der Turmer التي كان يصدرها فريدرش لينهرد Lienhard في مدينة اشتوتجرت -ظهرت مقالة بغير توقيع يجادل فيها كاتبها ضد حديث رلكه هذا فيقول: «لقد قرأنا هذه المقالة (= الحديث) وتعليق مارتان دي جارد عن الشاعر الألماني الذي عاد للتجوال في باريس من جديد-قرأناها ونحن نهز رؤوسنا». ويهاجم هذا الكاتب خصوصا العبارة قبل الأخيرة في «الحديث» فيقول: «إنه ليس من السهل علينا أن نقرأ مثل هذه الأشياء، نحن الألمان المناضلين من أجل إعادة بناء بلادنا بكل قوانا وتصرفاتنا. إننا نعاني الأهوال من فرنسا، في الوقت الذي فيه «أكبر شاعر غنائي في ألمانيا المعاصرة يسوح ويمرح في باريس».

وتحاول مجلة Das Tagebuch -التي يصدرها في برلين استيفن جروسمان Grossmann وليوبولد اشفارتسشلد Schwarzschild الدفاع عن رلكه، فتكتب في مقال عن إقامة رلكه في باريس وأشعار باللغة الفرنسية ما يلي: «الشاعر الألماني راينر ماريا رلكه ينشر في باريس مجموعة من القصائد المكتوبة باللغة الفرنسية. وقبل أسابيع قرأ الناس في بعض الجرائد خبرا غير محتمل، مفاده، أن رلكه قال لأحد الصحفيين الفرنسيين: «أنا لست ألمانيا»... فلو تساءل المرء عما دعا رلكه إلى هذه الرحلة إلى ما وراء الحدود الألمانية -لوجد أن هناك تفسيرين واضحين: أنه ولد في براج. فمتى أفكر فيه الوطن؟. والتفسير الثاني المحتمل هو: لقد اصطدم رلكه -وهو في منشن - بالواقع الألماني لما أن بدا وجه الخادم الذليل يشع على محيا السيد فون كار Von Kahr، لقد اعتبر رلكه آنذاك تشيكوسلوفاكيا، بل ربما اتهم بأنه يهودي من جانب شرطة السيد بونر Pohner فعاملوه أسوأ معاملة وأشدها فظاظة» (مجلة Tagebuch بتاريخ أول أغسطس 1925).

وجوستان رتر فون كار (1862-1934) كان رئيسا للوزارة في بافاريا، وصار في سنة 1923 قوميسير عاما للدولة. أما أرنست بونر Pohner (1870- 1925)

فكان رئيس الشرطة في منشن، وقد اشترك في الانقلاب الفاشل الذي قام به هتلر في سنة 1923 في منشن.

وفي العدد الصادر في 15 أغسطس من المجلة نفسها كتب فالتر ميرنج Mehring - الكاتب والناقد الساخر الذي كان يعيش في منشن (ولد سنة 1896) مقالا بعنوان: «قضية رلكه» - قال فيه: «التمس مني الشاعر (رلكه) أن أنشر على لسانه ما يلي: «ياله من افتراء أحمق غير معقول أن ينسب إلي أنني ادعيت أنني لست شاعرا ألمانيا. ذلك أن اللغة الألمانية لم تكن عندي لغة أجنبية: إنها تنبع من داخل ذاتي، وتعبر عن جوهري: ألم أحاول أن أسهم فيها؟ ألم أحاول أن أزيدها ثراء؟ ومتى حدث لي ألا استمد منها مادتي الأولى الخاصة؟ أما أني نظمت بعض الأبيات باللغة الفرنسية. فإنما كان ذلك مجرد محاولة، مجرد تجربة للتعبير بلغة تختلف عنها في الرنين والبنية».

ثم يصحح رلكه بعض ما ورد في المقالة التي ظهرت في عدد أول أغسطس من المجلة نفسها، فيقول إنه في كل مرة زار فيها براج، كان يلقى أحر ترحيب وأوفر اهتمام ورعاية. «وقبل كل شيء، فإن «جمعية تشجيع الأدب الألماني» قد أعانتني طوال سنوات عديدة من حياتي بسخاء عظيم». ثم يتابع قائلا: إنني لم أطرد من منشن، التي أقمت فيها حتى سنة 1919. والإزعاج الوحيد الذي عانيته هو تفتيش منزلي. لكن لم يرغمني أحد على ترك المدينة».

وبهذه المناسبة كتب رلكه رسالة (بغير تاريخ ولا مكان إرسال) يقول فيها: «إن المناسبة الحمقاء التي لم يكن لها داع، والتي فيها تطوعت تلقائيا للدفاع عني والوقوف إلى جانبي، بدأت تكتمل، بحسب مفترضاتها: فقد أرسلت إلي الآن صديقة سويسرية ثلاثة آراء: اثنان منها يهاجمانني وكلاهما صادر، فيما أتصور، عن ألمان من بوهيميا، والثالث مؤيد لي وفاهم، وقد نشر في مجلة Prager Presse ردا على الرأيين الأولين، وأراهما وجه الحق. أما أنه صدرت مقالات أخرى فهذا ما لا أعلمه. يالها من زوبعة في محبرة.. وأنا أسارع فأبعث إليك بهذه «الآراء»، حتى تعرف كل ما قيل في هذا الموضوع، ولكي تستجلي مصدر هذه الإثارة كلها التي أرادت أن تستغل الموقف ضدي».

ونذكر أخيرا أن فريدريش ميركر Marker قد دافع عن رلكه في هذا الموقف بمقالة نشرت في جريدة Berliner Tageblatt (العدد رقم 390 بتاريخ 19 أغسطس 1925).

والمسألة كلها-كما وصفها رلكه -كانت «زوبعة في محبرة»:

1- فأن يقيم رلكه في باريس فترة من الوقت، بينما الجو في ألمانيا مشحون بالعداوة والحنق الشديد على فرنسا بسبب إذلالها وإهانتها لألمانيا، أمر لا يدعو لاتهام رلكه بعدم الوفاء لألمانيا. ناهيك عن أنه كان يحمل آنذاك الجنسية التشيكوسلوفاكية، بوصفه ولد في براج التي كانت حتى سنة 1919 جزءا من الإمبراطورية النمساوية.

2- وأن ينظم عددا من القصائد باللغة الفرنسية - هذا أمر لا يطعن أبدا في أنه شاعر ألماني أولا وآخرا. إذ ما قيمة هذه القصائد التي نظمها رلكه باللغة الفرنسية، إذا ما قورنت بإنتاجه الشعري والنثري باللغة الألمانية؟! إنها- من حيث الكم والكيف -لا تساوي واحدا في المائة من إنتاجه باللغة الألمانية. فما أسخف عقول من زعموا-وتصف ألسنتهم الكذب - أن هذا الواحد في المائة يطعن في التسعة والتسعين من إنتاجه الألماني! بل إن الفرنسيين أنفسهم لم يحظوا بقصائد رلكه المكتوبة باللغة الفرنسية. ولم أعثر أبدا في أي تاريخ للأدب الفرنسي في القرن العشرين على أية إشارة إليها بوصفها تندرج في الأدب الفرنسي.

وقد خاض المعركة من الجانب الفرنسي مترجم رلكه إلى الفرنسية: موريس بتز Betz فكتب مقالا بعنوان: «جدل ألماني: رلكه في باريس» (نشر في مجلة Nouvelles Litteraires بتاريخ 27 سبتمبر 1925).

وكنا نود أن نقرأ تقريرا لشعر رلكه الذي كتبه باللغة الفرنسية بقلم واحد من الكتاب أو الشعراء الفرنسيين الذين أسدى إليهم رلكه خدمات جلى بترجمته لبعض أعمالهم-مثل فالري، أو أندريه جيد. وكل ما هنالك هو مجاملات في النثر، أعني في رسائل شخصية غير منشورة في حينها، مثل تلك الرسالة التي كتبها فالري بتاريخ 8 يوليو 1926 وقال فيها كلاما غامضا مكتوبا لا يمكن أن يعد مدحا، أن يقول: لقد قرأت Vergers ولا تستطيع أن تتصور الغرابة ذات النبرة المدهشة لصوتك الفرنسي. وأنا فخور بعض الفخر أن أكون قد دعوتك إلى التعبير بهذه الأصوات الغريبة Sons Singulers، وأن نظم بلغتنا هذه النغمات الدقيقة. إن فيها غالبا نفحة من فرلين Verlaine لكن فرلين أكثر تجريدا».

فهل يمكن عد هذا الحكم في صالح رلكه؟ هيهات، هيهات!. ومثل هذا

ينطبق على رسالة أندريه جيد بتاريخ 15 يوليو 1926. لكنهما لم ينشرا شيئا علنا في صحيفة أو كتاب!!

العودة إلى سويسرا

في 18 أغسطس 1925 غادر رلكه باريس، ولن يعود إليها أبدا بعد ذلك!

وكانت في صحبته في السفر بالادين كلوسوفسكي. فمرا في إقليم البورجوني، شرقي فرنسا، وشاهدا بعض مدنه، مثل وأوتان Autun. وأقاما يومين (21- 22 أغسطس) في عاصمة الإقليم: ديجون Dijon.

ووصلا سويسرا. فأقاما يوما في مدينة سيير Sierre (24أغسطس). واضطر رلكه إلى السفر إلى ميلانو لمهمة ملحة. وزار شاطئ «البحيرة الكبرى» Laga Maggiore بصحبة السيدة K.Baveuo وهنا أصيب بالتسمم من جرّة أكل لحم فاسد. لهذا بادر بالعودة إلى سويسرا. فوصل إلى ميزوت في أول سبتمبر 1925.

وهنا التقى بفرنر راينهرت، مالك قصر ميزوت. لهذا أقام رلكه هو وبالادين في فندق Bellevue في مدينة سيير Sierre المجاورة لميزوت. وفي 11 سبتمبر، عادت بالادين إلى باريس. وكان هذا آخر لقاء بينهما، إذ لم يلتقيا بعد ذلك أبدا. وإن كانت المراسلات ستستمر بينهما حتى قبيل وفاة رلكه بستة أيام، لأن آخر رسالة كتبها إليها مؤرخة بتاريخ 23 ديسمبر 1926، وتوفي رلكه في 29 ديسمبر قبل أن يتلقى ردها على هذه الرسالة الأخيرة.

في برن

وفي 15 سبتمبر وصل إلى برن لعلاج أسنانه، ونزل في أجمل فنادقها وهو Bellevue والتقى في المساء هانز فون سالس Hans (J. R.) Von Salis (ولد في سنة1901)، المؤرخ والأستاذ في جامعة زيورخ. وقد وصف فون سالس هذا اللقاء فقال: «جلس رلكه، قصيرا خفيف الشعر، يرتدي حلة غامقة جدا، في حشايا كرسي ضخم، ووجهه شبه المتقنع بقناع ساتر، أحدث انطباع وحدة كاملة متألمة. وبدا أن الابتسام عسير عليه، ولاح متعبا جدا».

والتقت به في تلك الأيام مونيك بريود .Monique Briod فقالت عن هذا اللقاء: «وفي مساء آخر حدثني عن جيرودو Giraudou وكان رلكه عائدا لتوه من باريس في سنة 1925. لقد أجهدته باريس وخيبت آماله لكنه لم يتهم أحدا غير تعبه هو... والشيء الذي لا أنساه هو موت إديت جوسلان Edith

Gocelin التي وصفها رلكه وصفا حيا أمامي» (كما ورد في تمثيل مسرحية جان جيرودو التي عنوانها: «مدرسة غير المكترثين») ثم تتابع مونيك كلامها فتقول: «أندريه جيد، جيرودو، الأميرة الرقيقة بيبسكو Bibesco، إدمون جالون، فودواييه Vaudeoyer، مدام فودواييه «التي هي كلها من الذهب»، وبول مورانو Morano، وماري لورنسان Laurencin، وفابرلوس، وأدريين مونييه-إنكم تواليتم أمامي في الصالون الحافل بالظلام... ثم بول فالري أعتقد انه لا يوجد إنسان في هذا العالم سيحب ويتذوق فالري على نحو أقوى مما فعل رلكه.»

وهذه هي أسماء أشهر من كان رلكه قد التقى بهم. ومنهم من تعرف إليه لأول مرة - مثل: إدمون جالو Jaloux، وجيرودو، وبول مورانو، أثناء إقامته الأخيرة هذه في باريس.

في باد رجتس

ومن 16 إلى 30 سبتمبر أقام في باد رجتس Bad Ragaz للاستشفاء. وكانت هذه هي المرة الثانية التي فيها استشفى في هذه المدينة السويسرية الموجودة في إقليم جراونبدن في شرقي سويسرا. لكن الموسم كان قد انتهى أو كاد. لهذا راح يشكو- في رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 17 سبتمبر) - من خلاء المدينة وهجرة من قصدها للاستشفاء. وقد ردت عليه (بتاريخ 22/9) قائلة: «إني أتمثلك في جلال متوحد، في الطريق الطويل، أمام دار الاستشفاء، أو على الجسر الصغير... سمعت أنك نشرت قصائد باللغة الفرنسية بعنوان Vergers- فهل هذا صحيح؟».

وفي 1925/9/25 أرسلت إليه إنجا يونجهانس Inga Junghans دعوة من اتحاد أصدقاء الأدب الألماني لإلقاء محاضرات في كوبنهاجن (عاصمة الدانيمرك) وآرهوس Aarhus وألبرج Alborg، خلال الشتاء القادم، على أن يقيم عند السفير الألماني جرهرد فون موتيوس Gerhard Von Mutius. لكن رلكه اعتذر عن عدم قبول هذه الدعوة.

أعراض المرض

لكن، ابتداء من أول أكتوبر 1925 ظهرت على رلكه أعراض مرض خطير. وفي ذلك كتب إلى فرنر راينهرت يقول: «كان من شأن رجتس أن تفيدني صحيا، لكن حالت دون ذلك أحوال مرضية جديدة استهلكت التجديد في صحتي، وإلا لكنت أعطيته علامة +(زائد). لقد كنت عاجزا عن النطق»

(من رسالة بتاريخ 1925/10/26). وكتب إلى لو سالوميه Lou Salome (بتاريخ 25/10/21) بأنه مصاب «بطفح داخلي في الشفة» وهو يخشى أن يكون مصابا بداء السرطان. وسيكون احتباس النطق من المخاوف الدائمة التي يعانيها رلكه. وغادر رلكه رجتس في أول أكتوبر 1925 ، وسافر إلى قرية مايلن Meilin حيث تقيم السيدة فوندرلي. ومن هناك ذهب لاستشارة طبيب في زيورخ. وقرر هذا الطبيب أن تخوّف رلكه من أن يكون مصابا بالسرطان هو تخوف لا أساس له. ومن هناك عاد إلى ميزوت، مارا بمدينة برن. ووصل إلى ميزوت في 4 أكتوبر 1925.

وصية رلكه

لكن خوف رلكه من أن يموت قريبا قد جعله يكتب وصيته في مساء يوم 27 أكتوبر 1925. وتشتمل هذه الوصية على البنود التالية:

1- في حالة إصابتي بمرض يودي بحياتي، لا يجوز إحضار أي قسيس.

2- إذا مت في سويسرا، فلا أريد أن أدفن في سيير Sierre.

3- أفضل أن أدفن في المقبرة المجاورة للكنيسة القديمه في قرية راروني Rarogne. «إن محيطها هو من أوائل الأماكن التي تلقيت فيها الريح والنور في هذه المنطقة، مع كل الأماني التي حققتها لي. مع، وفي ميزوت فيما بعد».

4- أما شاهد القبر فينبغي أن يكون حجرا عتيقا، وأن ينقش عليه رنكي، وتكتب عليه هذه الكلمات:

Rose, oh reiner Wiederspruch Lust

. Niemandes Schlaf Zu Sein, Unter Soviel Lidern

وترجمتها:

«أيتها الوردة! يالك من تناقض محض، ورغبة في ألا تكوني نعاسا لأحد، تحت الكثير من الأجفان».

5- «بين الأثاث والأشياء في ميزوت لا أعد أي شيء فيها ملكا لي خاصا، باستثناء صور الأسرة الموجودة هناك. ومن حيث هي كذلك، فإنها ستكون من نصيب السيدة راعوث زيبر Ruth Sieber.. وكل ما تبقى من حيث هو لا ينتسب إلى البيت، سيكون من نصيب السيدة ناني فوندرلي- فولكرت، المقيمة في Unteren Muhle بناحية Meilen بالاتفاق مع ابن خالتها، السيد فرنر راينهرت، المقيم في Rychenberg Winterthur والذي وضع ميزوت

تحت تصرفي عن صداقة وافرة الكرم».

6- أقترح على دار النشر Insel-Verlag أن تنشر أقساما من مراسلاتي، «لأنني منذ عدة سنوات قد بذلت شطرا من نشاط مواهبي الطبيعية في كتابة رسائل».

7- من بين صوري لا أعد ذات قيمة جوهرية إلا تلك الموجودة عند أصدقائي في مشاعرهم وذاكراتهم».

وفي 29 أكتوبر أرسل رلكه هذه الوصية إلى السيدة فوندرلي، وأرفق بها هذه العبارات:

«إلى جانب ذلك ستجدين ظرفا كبيرا، ستفتحينه، فيما بعد، عند الحاجة، ربما كان تصرفي هذا صبيانيا، لكنني اندفعت في ذلك المساء - تحت إملاء تلقائي - فسجلت بعض التعليمات للعمل بها في الحالة التي يحرمني مرض خطير من إمكان إصدار بعض الترتيبات. وإن علمي، أيتها العزيزة، بأنها بين يديك، يا أخلص المخلصات، هو من نوادر العزاء الذي أستطيع أن أتسلى به في هذه الأيام الحافلة بالآلام والمصاعب التي لا نهاية لها» (من رسالة إلى السيدة فوندرلي، بتاريخ 1925/10/29).

عيد ميلاده الخمسون

ويأتي عيد ميلاده الخمسون، في 4 ديسمبر 1925، فيمضيه وحيدا في ميزوت. لكن المقالات عن رلكه بهذه المناسبة تنهمر كالمطر. وقد أحصينا منها 31 مقالة. وهذه المقالات وحدها تدل على ما صار لرلكه من مكانة عظيمة في الأدب الألماني بعامة.

في مستشفى فالمون Valmont

دخل رلكه مستشفى مدينة فالمون Valmont Sur Tersitet-وهي قرية قريبة من مونتريه Montreur... للمرة الثانية في المدة من 24 نوفمبر 1924 حتى 8 يناير 1925، حيث فحصه الطبيب تيودور همرلي Theodor Ham merli (1883-1944) الطبيب في مصحة Savaturium مدينة فالمون.

ثم دخل المستشفى نفسها في مساء يوم 20 ديسمبر 1925. ففحصه د. همرلي فحصا ذكر رلكه نتائجه في رسالة إلى السيدة فوندرلي (بتاريخ 21 ديسمبر 1925) يقول فيها: إن الأورام في الفم، وهي مؤلمة وتثير المتاعب، إنها أكثر اتساعا وانتشارا مما كنت أنا أظن، لكنها-كما أكد لي الطبيب من

جديد-لا تدعو إلى المخاوف التي أربطها أنا بها... لكن الأمر، إن صح ما يقوله ببراءة، مؤلم إلى أقصى، أقصى درجة وطويل المدة. وفي الأغلب أتألم من كل هذه المتاعب. ومن المؤسف أن أحدا لا يستطيع - فيما يلوح - أن يعمل شيئا من أجل تخفيف الآلام الناجمة عنها».

وكتب إليها في 27 ديسمبر قائلا: «إن همرلي يتصرف معي هذه السنة على نحو مختلف تماما: إنه يشعر بأن الحالة خطيرة ولابد من التقدم بأي ثمن. وهو يمضي معي الساعات، ويدخل في فمي المسكين مع مراياه، فاحصا كل الأركان».

وبتاريخ 30 ديسمبر كتب إلى مدام دي سيببوس Mme De Sepibus يقول: العلاج هذا العام أكثر فعالية بكثير. وبسبب تعبي من جراء هذه الواجبات القاسية فإني لا أشعر إلا باستعداد قليل لاستخدام قلمي».

وفي 2 يناير 1926 سقط في غرفته بالمستشفى، فأصيب بكدمات أليمة.

واتته دعوات لإلقاء قصائد في أماسي شعرية، لكنه اضطر إلى رفضها: منها دعوة بتاريخ 1926/1/2 لإلقاء بعض قصائده في جمعية Convegnu في ميلانو، ودعوة أخرى من براج بتاريخ 5 يناير.

إعجاب رلكه بموسوليني Mussolini

أعجب رلكه بحاكم إيطاليا، بنيتو موسوليني، على الأقل بوصفه خطيبا. ومن الشواهد على ذلك أنه كتب إلى أورليا جلارتي- أسكوتي Aurelia Gallarti Scotti (بتاريخ 1926/1/5) يقول: «وفي إيطاليا أيضا: أي سمو، ليس فقط في الأدب، بل وأيضا في الحياة العامة! ما أجمل خطبة السنيور موسوليني التي وجهها إلى حاكم روما!»

لكن أورليا ترد عليه (بتاريخ 1926/1/10) فتقول: «في خاتمة رسالتك أنت تلمس جرحا عميقا يقسم إيطاليا في هذه السنوات الأخيرة. كلا، يا عزيزي رلكه، إنني لست معجبة بموسوليني... وأنا أعتقد أن الهدوء في أي بلد لا يتحقق إلا إذا كانت الحرية تسمح بأن يكون لدى المرء فكرة دقيقة عما يفكر فيه الوطن وما يريده.. وعلى الأقل: حد أدنى من الحرية، وهو الحق الأولي الذي توفره الحضارة».

فيرد عليها رلكه برسالة مطولة (بتاريخ 17 يناير 1926) يقول فيها:

«أما السياسة فإني بعيد عنها إلى درجة أنني عاجز عن متابعة حركاتها،

وعن تفسيرها لنفسي، وردود الفعل ضد هذه الحركات. لهذا فإنه سيكون من المضحك أن أريد إطلاق أي حكم على أي حادث يقع في هذا الميدان... لكني أفترض أنه في هذا الميدان، كما في ميدان الشعر، البينات الإنسانية المحضة، الإنسانية إراديا، لا تساوي شيئا يذكر».

ثم ينتقل إلى مسألة الحرية التي أثارتها أورليا في رسالتها، فقال «الحرية! لكن أليس من الحرية نفسها أن العالم اليوم مريض؟... إن السوفييت قد أرونا إلى أين يقود طريق الحرية، لأن كل استعمال لهذه القوة غير القابلة للتكيف سيفضي إلى سوء استعمال مشابه: وهي أكثر مما يجب، وأقل مما يجب».

ثم ينتقل إلى ما يتعلق بموسوليني بخاصة، فيشير إلى مقالة نشرها في جريدة «الفيجارو» Figaru الكاتب جونزاج دي رينولد Gonzague de Reynolds- بتاريخ 4 يناير 1926.

ويقول: «على كل حال، فان إيطاليا هذه في سنة 1926 تكشف عن حيوية تدعو إلى الإعجاب، كما تكشف عن إرادة خيّرة. ثم إن الاضطراب المتغلغل في الدول المحيطة والذي يواصل تخريبها والعمل على دمارها- تلك واضحة لا أتردد، مؤقتا، في أن أضحي من أجلها ببضع أفكار وبضع عواطف، لأن رغبتي في النظام قوية متلهفة».

فرلكه إذن يثني على موسوليني لأنه استطاع توطيد الهدوء والنظام في بلد كان نهبا للفوضى والاضطرابات والتخريب الداخلي، وانطلاق كل ألوان العنف، الأحمق. ولا يرى غضاضة في التضحية بحرية التعبير عن بعض الأفكار والمشاعر» إذا كانت هذه التضحية لازمة لتأمين النظام واستتباب الأمن وتوفير أسباب الطمأنينة.

وموقف رلكه هاهنا هو عين الصواب، يعرف ذلك جيدا كل من عرف إيطاليا في عهد موسوليني: فقد استقر الأمن، وساد النظام وأمن الناس على حياتهم وأموالهم وأبنائهم - ومن عرفها منذ سنة 1950 حتى اليوم، حيث صارت نهبا للفوضى، والإرهاب الرهيب الذي تمارسه عصابات الإرهاب، والنهب والسلب والسرقة والقتل ونشر المخدرات، والسطو على المؤسسات المالية، وعلى الأفراد العزل آناء الليل وأطراف النهار.

خارج مستشفى فالمون

وغادر رلكه مستشفى فالمون في أول يونيو 1926، بعد أن أمضى فيه

خمسة أشهر وعشرة أيام (من 20 ديسمبر 1925 حتى أول يونيو 1926) دون أن يغادره إلا لأيام قليلة.

1- ففي 5 أبريل 1926 ترك المستشفى وذهب إلى قرية جليون Glion ونزل في فندق فكتوريا، بسبب غياب د. همرلي، وتوفيرا للنفقات. وقد زارته في جليون السيدة فوندرلى في المدة من 9 إلى 16 أبريل.

2 - وفي 17 أبريل ذهب إلى لوزان لإنهاء بعض الأعمال، ومنها الحصول على تأشيرة دخول لإيطاليا. «وبهذه الطريقة يمكنني- إن شئت - أن أستقل القطار من سيير Sierre متوجها إلى ميلانو، لأؤدي هذه الزيارة التي طالما أجلتها، لآل جلارتي اسكوتي Gallarti-Scotti.

وربما استطعت مواصلة السفر إلى فينيسيا: إن بيا فالماراني Pia Valmarani قد كتبت إلي تقول إنهم ينتظرونني هناك بفارغ الصبر» (من رسالة إلى السيدة فوندرلي بتاريخ 27 مايو 1926).

3- كما أنه صحب أسرة هورستمن Horstmann إلى مدينة فيفيه Vevey القريبة من مونتريه، في 24 أبريل.

4 - وفي 30 أبريل سافر إلى لوزان. ونزل ضيفا على إدمون جالو Edmond Galoux. وفي الأسبوع الأخير من إقامته في مستشفي فالمون كان يتردد مرارا على مدينة لوزان لقضاء بعض الأعمال.

ولما ترك مستشفى فالمون في أول يونيو 1926 «كان الكل مسرورين أن يتركوه يذهب وهو معافى»-كما قالت السيدة فوندرلي في رسالة إلى السيدة نلكه Nolke(بتاريخ 1927/2/16).

ووصل إلى سيير Sierre في اليوم نفسه - أول يونيو- ومن هناك كتب إلى السيدة فوندرلي (بتاريخ 1926/6/1) يقول: «اجتزت العقبة: لقد وصلت إلى سيير» ونزل في فندق Bellevue. وفي المدة من 4 إلى 11 يونيو ترجم قصائد فالري التي عنوانها: «شذرات حول الإله نرسيس»، وهي ثلاث قصائد نشرها فالري في فبراير 1926 ضمن مجموعة بعنوان Charmes.

وفي الوقت نفسه واصل نظم «رباعيات فاليسية»، وهي قصائد رباعية باللغة الفرنسية.

ومع إقامته في فندق Bellevue في سيير، كان يصعد كل يوم إلى ميزوت، وأحيانا مرتين في اليوم الواحد.

مع الأميرة ماريه تاكسس للمرة الأخيرة

وجاءت الأميرة ماريه تاكسس إلى باد رجتس للاستشفاء في 20 يوليو 1926. فلحق بها رلكه هناك. ثم سافرت في 27 يوليو، بينما ظل رلكه في باد رجتس، حتى 30 أغسطس.

وبين صديقات الأميرة ماريه تعرف رلكه في 22 يوليو 1926 إلى أميرة أخرى هي ماريا جاجارين Gagarine ، التي ولدت في سنة 1864 في بطرسبرج (روسيا) وهي من أسرة أوبلونسكي Oblonsky. وتزوجت بالأمير أندرياس جاجارين (1856-1921) مدير مدرسة الهندسة العليا في بطرسبورج. وهذه الأميرة سألت رلكه أن يزودها ببعض الكتب الفرنسية التي يليق بها أن تقرأها. فراح يبحث لها عن بعض الكتب التي تلائمها-مثل: «أهل دبلن» تأليف جيمس جويس Joyce، و «أسطورة» تأليف Clemens Dane. ولكنه لم يجدها، وإنما وجد لها «بلا» Bella تأليف جان جيرودو.

وفي 27 يوليو-وكانت الأميرة ماريه تاكسس متوجهة إلى فيينا- أراد رلكه أن يصحبها حتى محطة السكك الحديدية. فرجته ألا يفعل ذلك. وقد كتبت الأميرة ماريه عن هذا في مذكراتها فقالت: «أراد رلكه أن يصحبني حتى محطة السكك الحديدية. فرجوته ألا يفعل ذلك. لكن في الصباح الباكر لما دخلنا قاعة الفندق، كان السير فكر (= رلكه) العزيز حاضرا مستعدا. وبسبب برودة الجو والمطر، كان متدثرا جيدا ثم أعطاني باقة أزهار. واستحلفني أن أتمسك بالخطة التي تباحثنا فيها وهي أن نلتقي في باريس في الخريف.. وهكذا ودّع كلانا الآخر إلى الأبد».

وفي رسالة كتبها رلكه إلى السيدة فوندرلي، وصف لقاءه هذا مع الأميرة ماريه تاكسس بهذه العبارات (رسالة بتاريخ 27 يوليو):

«أنا وحدي يا عزيزتي! إن الأميرة تاكسس سافرت هذا الصباح، هذه الأميرة المسكينة التي أمضت أياما سيئة، وليالي تكاد أن تكون مثلها في السوء-نتيجة التهاب في القصبة الهوائية.. وبالرغم من ذلك فقد أمضينا ساعات حافلة فاتنة. وفي كل لحظة شعر كلانا كم يريد مثل هذه الساعات... ولقد شاهدت مرارا كثيرة صديقة للأميرة، وهي روسية، وكان لذلك تأثير عميق ونافذ في نفسي. لكنها مع الأسف سافرت هي الأخرى إلى باريس، مساء الأمس»-ورلكه يقصد الأميرة جاجارين.

10 علاقة أخيرة مع سيدة مصرية

كانت الأرستقراطية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الأول من هذا القرن العشرين-تتألف من عنصرين: الأسرة المالكة، والأسر التركية والشركسية التي تعمل في خدمة الأسرة المالكة.

ومن هذه الأسر الشركسية كانت السيدة نعمت خيري[1]، زوجة عزيز علوي بك.، أمها كانت بنت خيري باشا، الذي كان وزيرا. وأبوها كان ابن عم أمها، إي ابن شقيق خيري باشا. واسم هذا الأب هو أحمد خيري باشا. وكان صديقا للسلطان حسين كامل، ابن الخديو إسماعيل والأخ الأكبر للملك فؤاد، وقد صار سلطانا على مصر بعد خلع الإنجليز-الذين أعلنوا الحماية على مصر في 1914/12/18للخديو عباس حلمي الثاني. ولما تولى السلطان حسين كامل السلطنة في مصر في 1914/12/19عين أحمد خيري باشا أمينا أول في قصر السلطان. لكن ما لبث أن توفي خيري باشا بعد قليل نتيجة أزمة التهاب الزائدة الدودية (المصران الأعور). وقد أنجب ابنتين على الأقل: الأولى توفيت في سنة 1908وهي في فندق أسبلندد Splendid في مدينة اكس-لي-بان (في إقليم السافوا بشرقي فرنسا). والثانية تدعى: نعمت.

ولسنا ندري على وجه التحقيق متى ولدت نعمت هذه. لكن يغلب على الظن أنها ولدت نحو سنة 1903. ولما توفي أبوها- أحمد خيري باشا- كانت في جزيرة رودس، ولم تعلم بموت أبيها. بيد أننا لا نعلم متى حدثت وفاة أبيها على وجه الدقة، لكن المؤكد هو أنها حدثت خلال الفترة من سنة 1915 إلى 1918. وقبيل ذلك توفيت أمها.

ولما بلغت «نعمت» الثامنة عشرة من عمرها، أرادوا تزويجها من شاب تركي الأصل، كان أمينا للمراسم في بلاط السلطان (ثم: الملك) فؤاد الأول. يقول جورج قطاوي -بحسب ما ينقله عنه إدمون جالو-(ص 122 من الكتاب المذكور في الهامش): «وكانت انذاك محجبة. فدبرنا مؤامرة لتمكينها من رؤية خطيبها. ففسخت هي في الحال هذه الخطبة. وبعد ذلك بقليل تزوجت عزيز علوي بك. وهي لم تره ولم تلتق به إلا مساء يوم الزفاف، حسب (العادة الإسلامية)».

وهذا الكلام لا يخلو من التخريف المعهود عند الأوروبيين حين يتحدثون عن زواج المسلمات. إذ من الثابت في كل المجتمعات الإسلامية -مهما كان تحفظها وتشددها-أن المخطوبة خطبة رسمية - أعني: علنية - لابد أن ترى خطيبها عند الخطبة أو على الأقل بعد انعقادها. ومهما طالت مدة الخطبة فمن حقها وواجبها أن ترى خطيبها في الأعياد والمواسم، إلى يوم الزفاف.

وبعد زواج «نعمت» من عزيز علوي بك بفترة قصيرة، أصيب زوجها هذا بمرض صدري، ربما كان هو السل. فسافر إلى سويسرا للعلاج. وأقام عدة سنوات في مصحة للأمراض الصدرية في قرية ليزان Leysin في إقليم الفو Vaud بجنوبي سويسرا، وهي ترتفع عن سطح البحر بمقدار 140 مترا، وبها مصحة كانت شهيرة في الثلث الأول من هذا القرن.

وقد صحبت «نعمت» زوجها عزيز علوي وهو يعالج من مرضه الصدري في مصحة ليزان Leysin. وقد استمر العلاج لعدة سنوات، حسبما يذكر جالو (ص 123) ، الذي يفترض أن «نعمت» أصيبت بالعدوى من زوجها وأنها ماتت فيما بعد، بسبب هذا المرض الذي أصاب زوجها. لكنه ما يلبث أن يراجع نفسه فيقول: «لقد قلت إنها ماتت بذلك المرض الذي أصاب زوجها، لكن علي بالأحرى أن أقول إنها ماتت بسبب كونها تباعدت بنفسها عما يعلمه الجميع، أو لأنها لم تفهم تماما ما كان يعلمه الجميع» (الكتاب نفسه

ص 125-126). وهذا كلام غامض لا محصل له، يلقيه جالو على عواهنه دون تدبر ولا تفكير، بدليل أنه يقول قبل ذلك بعشر صفحات (ص 116) إنه اعتاد أن يشاهدها في لوزان - حتى سنة 1926-محفوفة بالأميرات معها، في تلك الأيام السعيدة في أوروبا، التي راحت تعتقد أنها فرغت من كابوس الحرب، مثل: دوقة ارنبرج Arenperg، والأميرة ماري دي لين Marie de Ligne والكونتيسة شوفرو دانتريج Chauvreau d Antraigues، والكونت ألان دي سيوزانيه Alain de Sauzannet-المولع بالكتب والذي كرس حياته، كعالم محصل، لدراسة ديكنز، وتوبفر Topffer ومريميه Merimee، وبرنار باربيه Barbieux، ولورد ألنجتون Allington التي كانت غرائب ذهنه وأصدقائه تجعل منه منافسا للإنجليز الغريبي الأطوار في القرن الثامن عشر» (ص 116-117).

فكيف يقال عمن تعيش في صحبة أمثال هؤلاء إنها «تباعدت عما يعلمه الجميع» ؟

لكن هذا التناقض والخلط والتشويش فيما يذكره إدمون جالو يتجلى حتى في وصف أحوال «نعمت» الجسمانية. فهو يصفها قائلا: «كانت طويلة القامة، مستطيلة أكثر منها طويلة، دون أن تكون نحيلة. وفيها شيء غريب غرابة عميقة، لا أدري كيف أسميه. ولم يكن فقط غريبا علينا وحدنا، بل كان غريبا على الجميع. وكانت هيئتها هيئة أولئك الذين نرى وجوههم الفرعونية على التماثيل الملكية المصرية (القديمة): جفنان أسمران متهدلان مستطيلان في اتجاه الوجنتين، تستخلص منهما نظرة عميقة رقيقة، تصدر عن أعماق عينيها اللتين بلون الذهب العميق جدا، الشبيه بالقطران. وشفتها السفلى كانت بارزة بروزا خفيفا، على غرار الشرقيات. وراحة يدها ضيقة سمينة، وأصابعها طويلة».

وهذا وصف متناقض: لأنه في الصفحة التالية مباشرة (ص 119) يقرر أنها من أصل شركسي. فكيف يصف شكل وجهها هاهنا بأنه يشبه وجها فرعونيا من النوع المرسوم على التماثيل الملكية المصرية القديمة؟! ويقول إن جفنيها يستطيلان في اتجاه الوجنتين، مع أن الصورة الفوتوغرافية المنشورة في أول الكتاب تشهد بعكس هذا تماما: فجفناها أدخل في محاجر العينين.

وأسخف من هذا قوله إن شفتها السفلى بارزة بروزا خفيفا على غرار الشرقيات. فمن هو الذي يستطيع أن يدعي أن الشفة السفلى عند الشرقيات

عموما بارزة؟! الحق أن الأوصاف الجسمية التي ساقها إدمون جالو، وزعم أنها أوصاف «نعمت»، إنما هي من اختراع خياله والخيال المعهود عند الأوروبيين - والفرنسيون منهم بخاصة - حين يصفون المرأة الشرقية المسلمة. وهو خيال مستمد من أحكام سابقة لا وجود لها في الواقع وهم لا يستطيعون أبدا التخلص منها، مهما عاشوا بين الشرقيين ومهما شاهدوا. إنهم لا يرون ما يبصرونه بعيونهم، بل ما يمليه عليهم خيالهم المتحجر في صيغ تقليدية موروثة عندهم، كلها تشويه وتشويش وبلاهة.

ويغنينا نحن عن هذا الخيال الأوروبي المريض المتحامل الخاوي من كل موضوعية - أن نشاهد صورتها الفوتوغرافية الموضوعة في أول الكتاب. هنالك نشاهد:

وجها أقرب إلى الاستدارة منه إلى الطول وعينين مستطيلتين سوداوين تحف بهما رموش دقيقة منفرجة، ويعلوهما حاجبان رفيعان منحنيان في تقويس بديع كأنهما مرسومان بالفحم، وأنفا رقيقا طويلا مسحوبا في غاية اللطافة، وشفتين مليئتين امتلاء معتدلا، وخدين رقيقين أسيلين لا يبرز منهما أي نتوء، وكفين طويلتين ذواتي أنامل طويلة ممشوقة دون استطالة مفرطة، وجبينا عريضا ناصعا يعلوه شعر أسود فاحم.

وبالجملة، كانت «نعمت» آية في الجمال. ومن النادر أن نجد لها نظيرا بين من ترك لنا التاريخ صورهم الحقيقية.

وهذا الجمال الخارق هو الذي فتن رلكه لما رآها في فندق سافوي Savoy في لوزان في يوم 9 أو 10 سبتمبر سنة 1926. لكن هذه المفاتن الجسمانية لم تناظرها مواهب عقلية بارزة. وهذه قاعدة عامة على طول تاريخ الإنسان. فمتى اجتمع لإنسان-رجلا كان أو امرأة - جمال خارق وذكاء خارق؟! لكن حسبها هذا الجمال الخارق، بوصفها امرأة. ولا ينبغي أن يطلب من المرأة غير الجمال الجسماني.

لقد تعلمت في إحدى المدارس الفرنسية التي تديرها راهبات في مصر. لهذا كانت تتقن اللغة الفرنسية، لكن إتقان من هو أجنبي. لهذا يلاحظ إدمون جالو (ص130-131) أنها، وإن كانت لغتها الأصلية (لغة الأم) هي العربية، «فإنها كانت قد تعلمت اللغة الفرنسية وهي في مطلع الصبا، وصارت تكتبها على نحو غير صحيح لكنه دقيق وفيه كثير من التنعيم».

وسعت لتثقيف نفسها ثقافة أدبية تستعين بها في الصالونات الراقية التي كانت تغشاها. ومن المؤكد أن اطلاعها كان مقصورا على القصص. وهذا هو الذي يفسر قراءتها لقصة رلكه: «صحائف مالتي لوردز برجه» في الترجمة الفرنسية التي قام بها موريس بتز Betz. وكانت قراءتها لهذه القصة هي السبب في سعيها للتعرف إلى مؤلفها. وهو الأمر الذي تم على النحو التالي وكما وصفه إدمون جالو (ص 126 وما يتلوها). قال جالو:

«حدث أن كنت بجوارها، ذات مرة، في فندق سافوي Savoy (في لوزان)، حيث جمعنا أحد الناس. وفجأة كلمتني بنوع جديد من الألفة. وأخذت في الثناء بحماسة على كتاب اكتشفته منذ وقت قصير فيه استعادت بعض انفعالاتها تجاه الحياة. ثم سألتني: هل تعرف هذا الكتاب؟ وذكرت لي عنوانه، وهو: «صحائف مالتي لوردز برجه». ولفتت انتباهي إلى موضع يحوي فيه الكلام عن دنتلات، وموضع ثان فيه يذكر المؤلف أنه وهو طفل شاهد، مقبلة عليه، يد شاحبة تحت المنضدة،-وموضع ثالث يدور حول الشكل الغريب لأبلونه Abelone، وموضع رابع يتحدث عن مثل الولد المتلاف. فأصغيت إليها وأنا أبتسم. فدهشت هي لهذا الابتسام. فسألتها: هل تعرفين المؤلف؟ فأجابت: كلا، إنها لا تعرف عنه شيئا، بل لا تعلم إن كان ميتا أو حيا، معاصرا، أو رومنتيكيا منسيا. فقلت لها حينئذ: التفتي وراءك، وانظري إلى هذا الرجل ذي الشوارب المتهدلة، الذي يقرأ على بضع خطوات منا، وحده، تحت تلك الشجرة.

- ثم ماذا؟

- إنه راينر ماريا رلكه.

لو كانت صاعقة قد نزلت، أو لو أن شبح شاعر كبير توفي منذ عدة قرون قد ظهر أمامها-لما كان قد هزها أكثر مما هزها قولي هذا. ثم قالت.. لكني ألتقي به كل يوم في الفندق. وكنت أقرأ «صحائف مالتي..» بإعجاب كما لو كانت من تأليف رجل سيكون محجوبا عن بصري دائما! وأنت، هل أنت تعرفه؟ هل في وسعك أن تجعلني ألتقي به؟ فوعدتها بذلك. وفي الحال رحبت. وكلمت رلكه عنها، وكان هو قد لاحظها جيدا، لكنه وهو، المتواضع الحيي دائما، لم يتصور أبدا أنها يمكن أن تكون قد قرأت له».

ويتابع جالو حديثه قائلا: «لكن رلكه لم يصبر على انتظار أن أجمع

بينهما، بل بادر إلى التعبير عن تعاطفه معها بإرسال شيء ما: كتاب أو رسالة. فأجابته السيدة نعمت علوي على الفور بهذه الرسالة:

«لوزان في 11 سبتمبر سنة 1926

سيدي! إن التعبير عن تكريمك إياي يسحرني اليوم. لكن عرفاني بجميلك مكسوب لك منذ زمان طويل، لأن «مالتي لوردز برجه» استطاع أن يسدي إلينا بوضوح التوكيد اللطيف جدا لقلقنا المنتشر، اللا شخصي، غير الملموس. واستطاع أن يحدثنا بصوت عال في الهواء النقي الذي يجازف بالتحليق فيه أمثاله، لكن من أجل الصمت أو التلعثم.

فلك الشكر على استطاعتك-بوساطة مثل وحيد-أن تشع تبريرا متعددا،.

وصدق، يا سيدي، بإعجابي الكبير جدا، وعرفاني لك، ورغبتي الحارة جدا في التعرف إليك.

(نعمت علوي بك)».

وتم اللقاء بين نعمت علوي وبين رلكه. وفي إثره بعث رلكه برسالة صغيرة إلى جالو حملها إليه صبي الفندق، يقول فيها:

«صديقي العزيز!

قبل أن أقول لك: شكرا على رسالتيك الجيدتين، ينبغي علي أن أعترف لك بأنني منذ لحظات، كنت أتحدث طوال ساعة مع السيدة علوي! لكن هذا جرى تحت رعايتك، ولا يمثل في مجموعه إلا جزءا عارضا لذيذا من (لقاء) يوم الخميس المتفق عليه والأكيد».

وفي عصر ذلك اليوم، اجتمع رلكه والسيدة نعمت علوي وصديقة لها عند إدمون جالو. وفي إثر هذا الاجتماع، أرسل رلكه برسالة أخرى ختمها بالحاشية التالية:

«انصُبْ، يا صديقي العزيز تمثالا صغيرا على مائدتك، في الموضع الذي استقر عليه قفاز السيدة علوي، قبل أن أطلع حركة الصعود الذي ملأني بالملائكة».

ويخلق بنا هنا أن نورد ترجمة الرسائل المتبادلة بين رلكه ونعمت علوي بالترتيب، لأن جالو أوردها في موضعين مستقلين: رسائل نعمت (من ص 133 إلى 136)، ورسائل رلكه (من ص 195 إلى 212) دون أن يربط بين الرسائل والردود عليها:

الرسالة الأولى

من رلكه إلى السيدة نعمت علوي

«فندق سافوي

أوشي -لوزان

11 سبتمبر 1916(يوم السبت)

سيدتي.

عرفت (منذ مساء أمس) من صديقي الممتاز، إدمون جالو، أنه حدثك عني، لهذا رجوت منه أن يجد وسيلة لتقديمي إليك. وأنا واثق أنه سيقترح عليك أجمل وسيلة.

لكني، حين فعلت ذلك، كنت مخطئا في تقدير قدرتي على الصبر. ويساورني الخوف الآن من أن اضطر إلى الرحيل من هنا، قبل الموعد الذي ربما تتفضلين بالموافقة على تحديده.

وكون اسمي ليس مجهولا عندك تماما-يخول لي، إلى حد ما (أو على الأقل: بودي أن أصدق ذلك) أن أقدم إليك تعبيرا عن احترامي-مهما يكن ضئيلا، تنازلي يا سيدتي واقبليه بالمعنى الأعمق لرغبتي في أن أكون معروفا لك».

رسالة نعمت الأولى إلى رلكه

وجوابا عن هذه الرسالة، كتبت نعمت علوي إلى رلكه الرسالة التي أوردناها منذ قليل. ولا بأس من إعادتها هنا، ابتغاء الترتيب المتصل:

«لوزان في 11 سبتمبر 1926 (يوم السبت)

سيدي! إن التعبير عن تكريمك إياي يسحرني اليوم. لكن عرفاني بجميلك مكسوب لك منذ زمان طويل، لأن «مالتي لوردز برجه» استطاع أن يسدي إلينا بوضوح التوكيد اللطيف جدا لقلقنا المنتشر، اللاشخصي، غير الملموس، واستطاع أن يحدثنا بصوت عال في الهواء النقي الذي يجازف بالتحليق فيه أمثاله، لكن من أجل الصمت أو التلعثم.

فلك الشكر على استطاعتك، بوساطة مثل وحيد، أن تشع تبريرا متعددا.

وصدق يا سيدي بإعجابي الكبير جدا، وعرفاني لك، ورغبتي الحارة جدا في التعرف إليك».

رسالة نعمت الثانية إلى رلكه

وفي صباح يوم الأحد، 12 سبتمبر، كتبت نعمت إلى رلكه البطاقة التالية:

«إذا كنت غدا في الساعة الواحدة والربع تشعر بأنك منعزل دون أن ترغب في العزلة، فهل تمنحني لذة الغداء على مائدتي؟. إن صديقاتي يطردنني من مائدتهن، لأنه سيكون لديهن ضيوف يشيعون النعاس في نفسي... لكني أرجو ألا يرغمك هذا الإفصاح بالسر على استثارة رحمتك. وصدق، خصوصا، شعوري المليء بالتعاطف.

رسالة رلكه الثانية

وقد رد عليها رلكه بهذا الاعتذار:

«مساء الأحد

آسف، يا سيدتي، آسف: لأني سأتغيب طوال النهار كله: إن بول فالري ينتظرني على الشاطئ الآخر من البحيرة في تونون Thonon.

كان بودي أن أكون على مائدتك، وفي الوقت نفسه عند الشاعر الكبير (فالري) حتى تستطيعي الشعور به من خلالي! يالها من حياة ذات جانب واحد، فيما لابد لك أن تعمل شيئا محبوبا بمادة من الزهد والتخلي. وليحلل محلي (كتاب) بروفانص Provence».

ورلكه يشير إلى كتاب «مفاتن الجمال في إقليم البروفانص» تأليف فودواييه Gean Louis Vaudoyer (1883- 1963) الذي أرفقه ببطاقته هذه. وقد كان هذا الكتاب قد صدر حديثا، في سنة 1926.

وقد أمضى رلكه يوم الاثنين 13 سبتمبر 1926 في ضاحية Aulhy بنواحي تونون على الشاطئ الفرنسي من بحيرة ليمان حيث كان فالري ضيفا على جوليان مونو Julien Monod. وهنا رسم النحات هنري فاليت Vallette صورة لفالري. ويقول رلكه عن هذه الزيارة: «لقد كانت بديعة جدا وذات قيمة لا نظير لها في الصداقة» (من رسالة إلى السيدة فوندرلي بتاريخ 26/9/17).

وكانت هذه آخر مرة يلتقي فيها رلكه مع فالري.

رسالة رلكه الثالثة

وبعد عودته من زيارته لفالري في يوم الاثنين 9/13 كتب رلكه إلى نعمت علوي في اليوم نفسه الرسالة التالية:

«فندق سافوي

أوشي- لوزان يوم الاثنين

سيدتي دعيني أعبر لك عن دهشتي المتأثرة المفتونة: أمن الممكن أن

تكوني قد عرفت هذا الكتاب، عرفته كله، حتى تقدري على أن تكتبي إلي هذه الكلمات الدالة على فهم جوهري، لم يضاهه أي تقدير، يتعلق بـ «مالتي لوردز برجه»؟ ومع ذلك فإن «صحائف مالتي...» موجودة منذ سبع عشرة سنة. بهذه الشهادة الثمينة بين يدي (وأنا سعيد بإعادة قراءتها بين الحين والحين) فإني أسلم نفسي للظروف التي تود أن تقربني منك، وهاأنذا أمتدح وأمجد تلك الظروف التي خلقت هذا التجاور فيما بيننا. وأنا من جانبي ممتلئ بالإعجاب والتوقع».

رسالة رلكه الرابعة

وقام رلكه برحلة معها في سيارتها الخاصة، وكانت هي التي تقود السيارة بسرعة شديدة، على عادتها دائما، حتى أثارت الرعب في نفس رلكه. فكتب إليها هذه الرسالة:

«فندق سافوي

يوم الخميس (1926/9/16)

هذه يا سيدتي، بعض الخواطر التي تتساقط على نفسي:

لم تكوني مخطئة تمام الخطأ لما قلت لي في ذلك اليوم إنني كنت خائفا: فلقد كنت أشعر بخوف، لكنه لم يكن خوفي أنا: وإنما خوف شخص في متناول كل الناس. ذلك لأن السرعة الخارجية، من حيث هي إحساس، هي لا شخصية تماما! (وهل هي لا تفسد الاستمتاع بتلك السرعة الأخرى: السرعة الباطنة، التي هي من السرعة بحيث تشبه عدم الحركة، كما هي الحالة في سرعة النجوم؟).

أما عن الخطر، فلا ينبغي لأحد أن ينشده إلا حيث يكون هو السيد المطلق. لكنه إذا استثاره في موضع آخر، فإنه يخاطر باستدعاء أسوأ المصادفات، وهي المصادفة غير المشغولة. لقد شاهدت أنك أستاذة في قيادة السيارة. فواخسارتاه!

فكري فيما لو حدثت لك مصيبة: أي تشويش كلي، وأي اضطراب في النفس: حال نفس تصطدم بعمود! إنه لأمر غريب غير مقبول في الفكر المحض.

ولنعد إلى الورد يا سيدتي! إنه لا يتحرك بسبب جذوره، ومع ذلك فإنه قد برئ جيدا ليخلق فينا الحركة التي لا نملك التعبير عنها والتي هي حركته»

رسالة رلكه الخامسة

«يوم الخميس أيضا (1926/9/16)

سيدتي! أمضيت عصر هذا اليوم في البحث (غير المثمر، مع ذلك) في بعض أعداد من مجلة «أوراق حرة»[2] هل الغداء غدا قد تحددت له الساعة الواحدة؟ (عندي متسع من الوقت، فالباخرة لا تغادر إلا بعد الساعة الثالثة).

أنا عائد من الكتدرائية، حيث سمعت فيها موسيقى الأورغن. والسلم العتيق الذي يصعد إليها- وهو غريب - هل تعرفينه؟ وهل سيكون لدي متسع من الوقت لأريك إياه؟ هاأنذا على استعداد لإضافة يوم زائد، كله يدخل في المستقبل، إلى الأيام المحسوبة!»

رسالة رلكه السادسة

«فندق سافوي

صباح الاثنين (20/ 9/ 1926)

سيدتي!

لقد أمضيت الليلة قبل السابقة في قراءة «صحائف مالتي برجه» كلها تقريبا في كتابك أنت.

كم استطاعت كل هذه الحضورات أن تكون حضورك أنت، للحظة: حضورك الذي يجل عن الوصف في ذاتك أنت!

شكرا.

أشكر لك سطورك (التي أتوني بها بينما أنا كنت إليك)

أشكر لك هذا التبادل.

أشكر لك هذه الثروة التي لا تحصى (بالنسبة إلى من؟) المتبادلة بيننا! لا تنسي أن «الإيلجيات» تنتظر لحظة الإهداء المشترك.

اعتني بنفسك! أتوسل إليك، وتحملي أحيانا البطء[3].

كتاب «اسفور» Isvor تأليف الأميرة بيبسكو لم أجده هذا الصباح، وسأرسله إليك من ميزوت. ولم أجد إلا كتاب سوبرفييل Supervielle».

الرسالة الثالثة من نعمت علوي

ويلوح أن «السطور» التي يشير إليها رلكه في الرسالة السابقة إنما هي هذه البطاقة التي كتبتها إليه نعمت، وتاريخها لابد أن يكون اليوم نفسه أي 20/9، وهاك نصها:

« ... أشعر هذا المساء باعتلال يحول بيني وبين أن أحب أفكاري، وأن

أعبر لك عن بعضها. لكني أستطيع مع ذلك أن أقول لك إنه إذا كانت حفاوتك تتملقني، فإنها تمس شغاف قلبي أكثر».

رسالة رلكه السابعة

«فندق سافوي

مساء السبت (1926/9/25)

سيدتي!

كما يحدث أحيانا، فإن المرء قد يدين نفسه مباشرة. لقد قضي علي- طوال عدة ساعات - أن آسف لأني لم أقل لك: لا. إني لا أريد لهذا الكتاب، كتابك، أن يمر بيد صبي الفندق، بل سأذهب بنفسي لآخذه من أمام بابك. و لأني لم أنطق بهذه الكلمات، كان علي أن أقوم بحجة مليئة بالقلق، على طول البحيرة، وأنا شارد، حتى سان سولبيس Saint Sulpice، القرية التي اجتذبتني دائما بسبب اسمها! كان كل شيء هناك ساميا، غافلا، مليئا برفض غامض، وفجأة مبيعا بالمزاد العلني لليل، وأعود [إلى الفندق]، فأجد الكتاب العزيز على منضدتي. أستميحك عذرا.

غدا سأعيده إليك بنفسي، وستكون يدي وسيطا زائدا فيما بيننا».

زيارة نعمت علوي لميزوت

وفي يوم الأحد 26 سبتمبر 1926، سافرت نعمت علوي بصحبة رلكه إلى ميزوت. وكانت هذه زيارتها الأولى لميزوت. ثم عادت عصر ذلك اليوم نفسه. فأبرق إليها رلكه في اليوم نفسه - 26 سبتمبر- ليطمئن على عودتها إلى فندق سافوي في شاطئ أوشي بلوزان. وهذا نص برقيته:

«[بعنوان] فندق سافوي - أوشي - لوزان

26 سبتمبر 1926

أود أن أطمئن تماما على سلامة عودتك، وعلى أن الرحلة الطويلة لم تسبب لك تعبا زائدا. وأنا سعيد بأنك صرت تعرفين المكان الذي منه أرسل هذا القلق، مع كل احترامي».

لقاء آخر في لوزان

وفي 14 أكتوبر 1926 عاد رلكه إلى لوزان لزيارة نعمت علوي. لكنه نسي أن يحضر لها كتاب «اسفور» Isvor تأليف الأميرة بيبسكو Bibesco. فكتب إليها في 14 أكتوبر الرسالة التالية:

رسالة رلكه الثامنة

«14 أكتوبر 1926

شكرا..

إن نسياني بالأمس أن أحضر لك «أسفور» يسمح لي، يا سيدتي، بأن أحيط (في لحظة الرحيل) هذا الشكر بظل آلاف أفكاري المعجبة بأفكارك».

رسالة رلكه التاسعة وهي الأخيرة

لما علمت نعمت علوي بأن رلكه دخل من جديد مستشفى فالمون، وكان دخوله فيه في 30 نوفمبر 1926- أرسلت إليه باقة من الورد، ومعها هذه الكلمات: «مع فكري الذي تجول فيه أفعال (كذا!) مشبوبة عديدة من أجلك».

فشكر لها رلكه - وهو في أيامه الأخيرة - هذه الباقة وتلك العبارة، في الرسالة التالية، وتاريخها هو: يوم الاثنين 22 ديسمبر 1926:

«سيدتي

نعم، أنا مريض على نحو بائس مروع. والألم يعتصرني إلى حد لم أجرؤ أبدا على تصوره. إنه الاسم الذي لا اسم له. ولكن الأطباء يطلقون عليه اسما، لكنه يكتفي بأن يعلمنا ثلاث أو أربع صرخات لا يتعرف فيها صوتنا، هذا الصوت الذي كان قد تمرس على الفروق الصوتية الدقيقة.

لا تبعثي بأزهار، يا سيدتي، أتوسل إليك، فإن حضورها يثير الجن الذي يملأ الغرفة. لكن ما جاءني مع الأزهار سينضاف إلى لطف المحجوب. أوه! شكرا!».

الرسالة الرابعة من نعمت وهي الأخيرة

وقد ردت نعمت علوي على هذه الرسالة بالرسالة التالية:

«الخميس، 24 ديسمبر 1926

إن كلماتك ردت إلي ملاكي الذي كان شاردا، ملاكي النادر البادرة. لكنه عالمي تعلم من ينابيع للحياة لا أدري ما هي، وأنا أتلقى في نفسي علامة أكيدة على بادرة ذات إحسان. ويؤلمني ألا أستطيع أن أبلغ معرفتك بعض المعاني الغامضة، لكنها سعيدة، وتأتيني من إيمان حافل بالأسرار.

وأنا لا أكل من التوجه إليك بفكري، لإغراء الجن بالتواضع الهادئ الذي يمتلئ به إيماني.

لا تقطع راحتك من أجل أن تكتب إلي. إن صمتك لن يجعلك أقل حضورا، أؤكد لك ذلك».

أسطورة قطف وردة

ولكن رلكه توفي بعد هذه الرسالة بخمسة أيام، وذلك في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الثلاثاء 29 ديسمبر 1926. وهكذا قطع الموت هذه التجربة الأخيرة في حياة رلكه العاطفية، والتي لم تستمر إلا ثلاثة أشهر و ١٩ يوما.

ولسوء الحظ قضى رلكه ثلث هذه المدة فريسة للآلام المبرحة الناجمة عن المرض الذي سرعان ما أودى بحياته، مرض سرطان الدم Leucemie.

وهنا ينبغي أن نشير إلى أسطورة مضحكة، زعمت أن رلكه إنما أصيب بهذا المرض من جراء تسمم في جرح أصابه وهو يقطف وردة قدمها إلى السيدة نعمت علوي وهو يودعها لما أن جاءت إليه في ميزوت بصحبه صديقة لها لزيارته. إذ إنه لما راح يقطف الوردة من شجرة ورد في حديقة قصر ميزوت، دخلت في إصبعه شوكة سامة وجرحته. وكان الجرح - فيما زعموا- خفيفا في البداية، لكنه ما لبث أن أصيب بتسمم. وهذا التسمم هو الذي أدى إلى إصابة رلكه بداء سرطان الدم!. ومن هنا نشرت شائعة تقول إن رلكه أصيب بداء سرطان الدم - الذي سرعان ما أودي بحياته - بسبب قطفه لوردة قدمها إلى السيدة نعمت علوي!!

وداء سرطان الدم معناه تكاثر الكريات البيضاء في الدم تكاثرا مفرطا. وهو إما أن يكون حادا، أو مزمنا Chronique. فالحاد منه يتميز بتطور أسرع، وبكون الخلايا المتكاثرة ذات شكل غير ناضج. أما المزمن منه فيتميز ببطء تطوره، وبكون الخلايا المتكاثرة أكثر نضجا. وسرطان الدم يصيب الإنسان في كل الأعمار: في الطفولة والشباب الحاد منه خصوصا من النوع اللمفاوي. البلستي، وفي أوسط العمر: النوع الميلوئيدي، وفي الشيخوخة: الليمفوئيدي. ولا يعرف الأصل والسبب في حدوث هذا الداء، فيما عدا ما يحدث نتيجة التعرض للأشعة السينية أو الإشعاعات النووية، وما يحدث نتيجة التسمم (بنزول Benzol). ولا يوجد لهذا الداء علاج حاسم حتى الآن.

وبحسب الطبيب الذي عالج رلكه - وهو الدكتور همرلي Haemerli - كان سرطان الدم عند رلكه من النوع الحاد. لكنه لم يوضح هل كان سبب الإصابة تسمما في الدم. والملاحظ أن المريض بالنوع الحاد من سرطان الدم يموت خلال ثمانية أسابيع. ولما كانت زيارة نعمت لرلكه في ميزوت في

يوم 9/26، ووفاته في 1926/12/29، أي بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام - فإن كان قد حدث تسمم في الدم من جراء دخول شوكة مسممة وهو يقطف لها وردة في يوم 26 سبتمبر، فإن المدة التي استمر فيها الداء هي ثلاثة أشهر.

لهذا لا يستطيع أحد أن يقطع بأن إصابة رلكه بداء سرطان الدم إنها تسببت فيها شوكة الوردة التي اقتطفها ليقدمها إلى السيدة نعمت علوي وهو يودعها. وربما كان الدافع إلى ترديد هذا الزعم ربط مصير الشاعر بالورد الذي طالما تغنى به وكرس له ديوانا صغيرا من شعره.

حزن نعمت علوي على رلكه

ولما توفي رلكه، حزنت عليه نعمت حزنا بالغا، كما تشهد على ذلك الرسالتان اللتان كتبتهما من مصر إلى السيدة ناني فوندرلي-فولكرت، التي حضرت أيام رلكه الأخيرة.

وهذه هي الرسالة الأولى.

«القاهرة، في 17 مارس 1927

سيدتي

غادرت لوزان دون أن يكون في وسعي أن أكتب إليك لأشكرك. فدعيني إذن بأخوة - أقل لك كم أثرت رسالتك في نفسي، وكم لا أزال سعيدة بإعادة قراءتها، وكم أنا أواصل التفكير فيك - أنت التي لا أعرفك، لكنك تبدين لي طيبة جدا- أثناء حزني الذي لا يقطعه شيء: لو عرفت كم هو ثمين وعدك إياي أن ترسلي إلي ذات يوم - إن استطعت - صورة لصديقنا. لا تنسي هذا، يا سيدتي، أتوسل إليك لن يفي أي كلام بالتعبير عما ستسدين إلي من معروف بذلك. وليس في وسعي أن أحدثك عن حزني الذي يزيده الزمان شدة، ويلوح لي أنني لا أستطيع بعد أن أهتم بأي كائن حي وأن وحدتي (هذه الوحدة الجوهرية) ستزداد دون رجاء طوال حياتي، الآن وهو لم يعد موجودا.

لابد أنك تتألمين كثيرا، أنت التي كان من سعادتك أن تعرفيه معرفة أعمق!

سيدتي!

لو كان في مقدوري أن أصنع لك معروفا- فصدقي أني سأصنعه بكل قلبي: سأبقى في القاهرة حتى- بداية شهر مايو- وبعد ذلك سأعود إلى لوزان، وسأنزل في فندق سافوي. دعيني، يا سيدتي، أبعث إليك بفكري. ولا ترفضي الأمل في أن أتعرف إليك ذات يوم».

وهذه هي الرسالة الثانية:

«الدقي - الجيزة، في 18 ديسمبر سنة 1927

سيدتي

أية فكرة سيئة عني لابد أنك تحملينها! وكيف أشرح لك الأسباب العديدة التي حملتني على أن أؤجل إلى الغد طوال أشهر طويلة، متعة وواجب أن أكتب إليك وأن أشكر لك.

طوال الصيف شهدت النزع الأخير الأليم لصديقة كانت عزيزة علي. وشعرت شعورا عميقا بصدى آلامها. إن الحزن الذي عانيته لدى موتها قد أبهظني إلى درجة العجز الكامل.

دعيني إذن أتوجه إليك الآن، بعد تأخر طويل، لأقول لك كم باركت عليك في قلبي. إني أحافظ-بعناية بالغة-على الصورتين الفوتوغرافيتين اللتين وصلتاني منك. وأرجوك أن تضيفي إليهما صورا أخرى، وأنا واثقة أنك ستفعلين ذلك، إذا علمت ما تجلبه على نفسي من خير. والصورة التي أرسلتها إلي سألمسها دائما بيدين طاهرتين متبتلتين. لا يمر يوم، يا سيدتي، دون أن أفكر فيه طويلا تعبدا لذكراه المضيئة، ودون أن أتألم لغيبته النهائية، هذه الغيبة التي لن يعزيني عنها شيء. وأنت الأخرى، يا سيدتي، أنت لم تفقدي عادة انتظاره، اكتبي إلي، واغفري لي، واعملي كي أراك وأسمعك، ولو مرة واحدة. وثقي أنك تشغلين مكانة في قلبي».

ولابد أن السيدة نعمت علوي قد علمت بوفاة رلكه في اليوم نفسه -29 ديسمبر 1926. إذ كانت قد أرسلت إليها برقية، كما أرسلت برقيات عديدة أخرى إلى معارف رلكه، ومنهم فالري، في ذلك اليوم، أو على الأكثر في اليوم التالي، أي 30 ديسمبر 1926، لما أن نشرت الصحف في لوزان وغيرها نبأ الوفاة. وكان قد تحدد يوم 2 يناير 1927 لدفن رلكه في مقبرة رارون Raron القريبة من سيير Sierre. فاجتمع لذلك في سيير في اليوم السابق (أول يناير) عدد من أصدقاء رلكه، ذكر منهم أسماء: السيدة ناني فوندرلي-فولكرت، وفرنر راينهرت، والناشر أنطون كبنبرج وزوجته كترينا، ورجينا أولمن، والسيدة ألبير-لازار Albert-Lazer، وألما مودي Alma-Modie. لكن لم يذكر من بينهم اسم السيدة نعمت علوي. ولو كانت قد حضرت شهود الجنازة، لكان قد ورد ذكر اسمها. وهذا دليل على أنها لم تشهد الجنازة، ولم تغادر

لوزان إلى سيير، رغم قرب المسافة. فكيف ننعت تصرفها هذا؟ لست أدري!

وليست لدينا رسالة السيدة ناني فوندرلي، التي كتبتها إلى نعمت، حتى نستجلي الأمر. ولا معنى لضرب أخماس في أسداس، واقتراح الفروض هاهنا.

أما أنها ظلت وفية لذكراه-فيشهد على ذلك ما ذكره إدمون جالو (الكتاب المذكور، ص 143) من أنها «لم تكن تنتقل من مكان إلى مكان دون أن تحمل معها رسائله إليها، في كيس صغير من القماش، لم يفارقها أبدا وقد أفلحت في الاحتفاظ به، على الرغم من أنها كانت عديمة الترتيب إلى أقصى درجة»! وكلما كنت أراها، كان من النادر ألا تحدثني عن رلكه. وكم استعدنا معا ذكراه مرارا! وقد ظلت «صحائف مالتي برجه» دائما قرب مخدتها. وكانت حريصة على الاطلاع على كل ما ينشر عنه لتقرأه على التو. وهذا الفكر الساهر كان يضيء لها في الساعات الأليمة من حياتها. وكل شيء يسمح لي أن أفترض أنها لم تتخل عنه أبدا في الساعات المأساوية لموتها».

النهاية المأساوية لنعمت علوي

ويعز علينا هاهنا أن نصف النهاية المأساوية لهذه المرأة ذات الجمال الرائع والروح المستسرة.

وقد سعيت مرارا لدى بعض سيدات الطبقة الراقية في مصر، اللواتي عرفنها في أوج حياتها أن أحصل على معلومات عن سيرة حياتها، خصوصا في الفترة ما بين سنة 1925 و1935- فلم أظفر منهن بشيء ذي قيمة: لقد أجمعن على أنها كانت في تلك الفترة أجمل سيدات الطبقة الراقية في مصر، وكانت زينة الحفلات والصالونات النسائية، وأن صورها في هذه الحفلات كانت تنشر في المجلات المصرية المصورة بكثرة واهتمام وافتخار.

لكني لم أستطع أن أعرف منهن: كيف كانت حياتها الزوجية مع زوجها عزيز علوي بك؟ ومن هو عزيز علوي بك هذا؟ ومتى طلقها؟ وماذا حملها بعد ذلك على قضاء حياتها، بعد الطلاق، في باريس؟ ولم أهتد إلى أي خيط آخر يدلني على جواب عن هذه الأسئلة.

وكل ما لدي من معلومات عن حياتها بعد تطليق زوجها لها - هو ما ذكره إدمون جالو في الدراسة التي قدم بها لرسائلها ورسائل رلكه معها، المنشورة بعنوان: La derniere amite de Rainer Marie Rilke في باريس سنة 1949 عند الناشر Robert Laffont.

وخلاصة ما قاله جالو Galoux هو أنها بعد طلاقها من عزيز علوي بك عاشت في باريس، وحدها تقريبا، متروكة لأهواء خيال وهمي دائما (ص 154)، وأنها بعد أن عاشت في أوروبا مع زوجها عيشة رافهه لامعة «جُردت فجأة من كل الترف الذي كانت تنعم به دون أن تعرف قيمته، وعلى نحو غير واع تقريبا. وانتهت بالسقوط في وجود منحط، كانت تجهل كل تفاصيله العملية» (ص 155).

ومن بين الأوهام التي تعلقت بها آنذاك أن جمالها يشفع لها أن تكون ممثلة سينمائية. وكانت معجبة آنذاك بالممثلة السويدية الشهيرة: جريتا جاربو Greta Garbo[4] (المولودة سنة 1905 في استكهولم). فتوهمت أن في وسعها أن تكون مثلها أو قريبة منها. «وكانت تحلم بأن تتجسد في السينما المخلوقات الرومانسية أو الدرامية التي كانت تعشقها، بدعوى أن جمالها سيكون جذابا على الشاشة. لكنها أخفقت في هذه المحاولة: إما لأن قامتها الطويلة جدا جعلتها غير لائقة للسينما، وإما لأن الظروف تحالفت عليها كي تغلق دونها الباب» (ص 157).

وفي غمرة يأسها الشديد بسبب خيبة أملها في أن تكون ممثلة سينمائية، التقت بأمير روسي لاجئ في فرنسا يدعى نقولا متشرسكي Nicolas Metchersky. ولا يحدد جالو تاريخ هذا اللقاء الذي أدى إلى توثق العلاقات بينهما إلى درجة الزواج. ثم متى تزوجت به؟- لسنا ندري. وهل هذا الزواج هو الذي حملها على تغيير دينها، فتخلت عن الإسلام واعتنقت المسيحية على المذهب الأرثوذكسي الروسي الذي كان يدين به متشرسكي هذا؟.

يقول جالو (ص 188- 189) إن «نعمت» كانت في فترة خطبتها إلى متشرسكي «تتلقى زيارات قسيس أرثوذكسي أحدث في نفسها انطباعا كبيرا، وحرك فيها مواجيد ألهمها إياها رلكه أو أيقظها فيها. ومن ناحية أخرى عز عليها كثيرا أن تتخلى عن دين آبائها، وخصوصا أن تفعل ذلك تحت ضغط ظرف اجتماعي (هو الزواج) لا عن اقتناع روحي. وهي لم تكن تجهل التصوف الإسلامي، فإنها كثيرا ما حدثتني عنه إلى درجة أنها أهدتني ذات يوم كتابا عن الغزالي، الذي لم أكن أعرف عنه آنذاك إلا النزر القليل».

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939، تطوع الأمير متشرسكي في الجيش الفرنسي، وسافر إلى الجبهة. وعندما كانت الحكومة

الفرنسية قد اتخذت إجراءات إدارية بموجبها أجلي كثير من الأسر الفرنسية عن باريس. ولذلك أجليت «نعمت» إلى إقليم النورماندي وأسكنت في مزرعة، وهناك عانت الكثير من الشدائد، خصوصا بسبب رداءة الأحوال الجوية في شتاء 1939/1940.

ثم عادت إلى باريس، حيث مرضت مرضا شديدا، وراحت تنتقل من مستشفى إلى مستشفى، وأخيرا أدخلت مصحة للأمراض الصدرية في قرية بوزنفالي بالقرب من ضاحية سورن بنواحي باريس.

وفي غمرة آلام المرض الهائلة توفيت في 4 أغسطس 1943، ودفنت في يوم 7 أغسطس في مقبرة أسرة متشرسكي في قرية Sainte-Genevieve Des-Bois- (في نواحي Palaiseau بإقليم Essonne، وفيها نبع وكهف سانت جنفييف، ولهذا كانت مقصدا للتبرك والحج، وكانت وفاتها وهي في سن الأربعين.

تأملات في حالة نعمت

ويحق للمرء أن يتساءل: ماذا حمل نعمت خيري (أو علوي باسم الزوج) على أن تسلك هذا المسلك؟

لقد طلقها زوجها علوي بك بسبب تصرفاتها التي لا تتفق مع واجبات الزوجة: إذ كانت تتركه وحده في مصحة ليزان Leysin، بينما هي تغشى محافل الدوائر الأرستقراطية الأوروبية، التي كانت تتألف من الأمراء والنبلاء والأميرات والكونتيسات، الذين يمضون كل أوقاتهم في تلمس ألوان اللذات والمتع الحسية-وكل هذا بثمن باهظ وتكاليف تتجاوز موارد نعمت علوي وزوجها المسكين الذي كان يعاني من الداء الوبيل (السل أو ما يشبهه) دون أن يكون في وسعه ردعها. ولابد أنها أوقعته في ديون ومشاكل مالية فادحة، من جراء حياة الترف المفرط التي كانت تحياها وحدها بمنأى عنه.

وإنها لوقاحة بشعة وانعدام إحساس بالإنصاف أن يزعم إدمون جالو (ص 179) أن زوجها طلقها دون ذنب ارتكبته ودون أن تكون هي المسؤولة عن هذا الطلاق، على الرغم من أنه يقرر في مواضع كثيرة أن «نعمت» كانت تتصف بالإسراف والسفه في الإنفاق، وبالاندفاع، وبعدم القدرة على ترتيب أمورها! وماذا يهم جالو وأمثاله مادام يستمتع بالنظر إلى جمالها، إن لم نقل أكثر من ذلك؟! ثم ماذا فعل هو لها، هو وأمثاله من الذباب المحوم- حولها مثل أندريه مالرو Malraut- لما أن حلت بها المصائب، فلم تجد أي

معين لها؟! ربما كان أقصى ما فعله هو أن يقول، حين يذكر اسمها ويوصف حالها : Oh, la Pauvre (يالها من مسكينة).

وسؤال ثان: ماذا دعاها إلى الإقامة في باريس بعد أن طلقها زوجها؟

من الواضح أنه لم تكن لديها موارد مالية، لا أقول: لتكفل لها عيشة الترف، التي كانت من قبل تحياها، بل ولتعيش عيشة متواضعة في باريس. أتراها كانت تظن أن أحلامها في أن تكون نجمة سينمائية مرموقة، مثل جريتا جاربو - التي كانت هي معجبة بها أشد الإعجاب - ستتحقق بسهولة، دون أن تدري ما يحفل به «الوسط الفني» من ذئاب ووحوش ودجالين ونصابين؟!

ألم يكن الأولى بها أن تبقى في مصر بعد طلاقها، انتظارا لزوج جديد، خصوصا وأنها كانت لا تزال لنعم بكل جمالها ونضرتها، إذ كانت في أوائل الثلاثين من عمرها؟. ألم يكن هذا أجدى عليها ألف مرة من أن تتزوج من لاجئ روسي يهيم على وجهه - مضطرا- في باريس، وكان خالي الوفاض من المال والجاه، وقد اضطرها إلى تغيير دينها بسبب اجتماعي تافه، هو الزواج؟! ولابد أنه هو الذي قسرها على تغيير دينها، بسبب تعصبه الديني المسيحي المفرط في التعصب والاستبداد بهذه البائسة، خصوصا وأن دينه هو لا يرغمه على التحويل، بينما دينها هي، أعني الإسلام، يقتضي ألا تتزوج من رجل لا يدين بالإسلام. وهكذا انقلبت الآية، لأنها كانت في وضع الذل والهوان والعجز أمامه.

ومن الأسف أنها لم تترك مذكرات ولا رسائل تفضي فيها بدخيلة نفسها طوال تلك المحنة الرهيبة التي تعرضت لها. وإلا، لكان من الممكن الإجابة - ولو جزئيا -عن بعض ما أثرناه من أسئلة.

ثم ماذا دعاها إلى الزواج من هذا «الأمير» المفلس، الذي أسكنها في غرفتين صغيرتين بالطابق المحشور بين الطابقين الأرضي والأولى كأنه مقبرة لا تصل إليه الشمس ولا يراوحه الهواء النقي «حتى صار من عادتها أن تعيش الليل أكثر من أن تعيش النهار، في تلك الشقة الضيقة التي لا تفتح نوافذها أبدا على الشارع، ويسودها نوع من الظلام الأبدي. وسواء أكانت جالسة أو راقدة على أريكة، بالقرب من رف احتفظت فيه ببعض الكتب الثمينة-فإن من المؤكد أنها في هذا النوع من المسكن الشبيه بالحبس، وفي هذا الهواء المنحصر قد شهدت-ببطء - التربة التي عليها ستنمو وتنفجر

الجراثيم بعنف بالغ» (إدمون جالو: الكتاب المذكور، ص 182- 183).

فماذا حملها على كل هذا العذاب الذاتي؟!

لابد أن شرخا نفسيا هائلا قد حدث في نفسها لما أن طلقها زوجها-وله الحق كل الحق-فأفسد تفكيرها، فصارت تتصرف دون وعي ولا تعقل، وأصبحت تصرفاتها تصرفات امرأة مخبولة غريقة في بحر حياة لم تكن على علم بها من قبل، لأن زوجها كان يكفل لها كل شيء، فلما طلقها صارت ترقص على الهاوية.

11 نهاية رلكه

شكوى رلكه من آلام المرض لم تنقطع طوال حياته. لكنها استفحلت إلى أقصى درجة ابتداء من 9 نوفمبر 1926. إذ كتب إلى الناشر الهولندي اشتولس Stols (1900-1973) بتاريخ 1926/11/9 يقول:

«إن الحمى أضعفتني على نحو مخيف. ولا أكتب إلا بصعوبة»

ولما أعلنت زوجته، كلارا، أنها تعتزم زيارة سويسرا، رجا من السيدة فوندرلي ألا تدعوها إليه، إذ هو لا يستطيع أن يراها ما دام هو مريضا مرضا خطيرا.

فلما وصلت كلارا في ديسمبر إلى فالمون، ما لبثت أن سافرت دون أن ترى رلكه. وفي الرسالة نفسها يقول: «ذات صباح، منذ ثمانية أيام، كانت حالتي الصحية سيئة للغاية. ومنذ ذلك الوقت، التزمت الفراش حتى اليوم... وفي غالبية الأيام، كان حلقي منقبضا على نحو مخيف، والسعال يهزني، دون أن يكون ذلك بسبب نزلة برد».

وفي يوم 27 نوفمبر، صرح في رسالة إلى السيدة كونتا 1878(Contat-1969) -وهي رسامة سويسرية، وزوجة أنطوان كونتا، نائب مستشار الاتحاد السويسري في برن-قائلا: «منذ عدة أسابيع وأنا أراوح الحياة بين السرير والكرسي الساند».

وفي اليوم نفسه-27 نوفمبر-استدعى طبيبا، لأنه كان يعاني آلاما لا تحتمل. وفي يوم 30 نوفمبر سافر إلى فالمون ليدخل المستشفى من جديد.

ولما دخل المستشفى في 30 نوفمبر أجري له تحليل للدم، تبين منه، كما يقول الدكتور همرلي Haemmerli في تقريره المرسل إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 25 فبراير 1927) أن رلكه مصاب بمرض قتال أصاب الكرات البيضاء في الدم، ويسمى لوكيميا Leucemie (= سرطان الدم). ومع الأسف هو من النوع النادر جدا والحاد جدا من لوكيميا ميوبلاست Leucemie Myeloblastes. وهذه إصابة نادرة جدا، تميزت عند رلكه بشكل مؤلم جدا في الأمعاء أولا، ثم أحدثت بعد ذلك على الجلد دمامل سوداء، كما في حالة إصابة الدم بالفساد Septicemie.

وزارته سكرتيرته جنيا تشرنوسفيتوف Genia Tchernosvitow (نحو 1902-1974) في يوم عيد ميلاده الحادي والخمسين (4 ديسمبر 1926). فشكا إليها بقوله: «إنني، ليلا ونهارا، فريسة لعذابات تتجاوز الوصف».

وطلب من السيدة فوندرلي أن تطبع بطاقات (كروت) يكتب عليها أنه «مريض جدا». فأرسلت إليه أكثر من مائة بطاقة.

وفي 5 ديسمبر كتب إلى اشتولس Stols يقول: «اشتد مرضي منذ أسبوعين. ودخل الآن مرحلة مؤلمة للغاية، حتى إنني أجد مشقة بالغة في أن أكتب إليك هذين السطرين. فاقبل عذري».

وفي 8 ديسمبر كتب بالقلم الرصاص إلى السيدة فوندرلي يقول:

«عزيزتي!

نهارا وليلا، نهارا وليلا... الجحيم! لقد عرفتها إذن! أشكر لك مصابتك لي-وأنا أشعر بذلك-في تلك المناطق المجهولة. والأخطر والأهول هو أن أستعفي: أن أصير «المريض».

وكان الدكتور همرلي في برلين، لما دخل رلكه مستشفى فالمون في 30 نوفمبر، لكنه عاد إلى فالمون في 9 ديسمبر.

وجاءت السيدة فوندرلي إلى فالمون في 9 ديسمبر أيضا، ورأت الدكتور همرلي فوجدته «مضطربا جدا هو نفسه»-كما قالت في رسالة إلى السيدة نيلكه Nolke بتاريخ 16 فبراير 1927، ثم رأت رلكه، ووصفت رؤيتها له فقالت: «ثم رأيته هو (أي: رلكه). وكان ذلك مخيفا... وبدا مسرورا لأنني حضرت،

وقال إنني أتيت إليه بالحياة». وكان قد التمس-في أول ديسمبر- من جانين زايلر Gannie Seiler (ولدت سنة 1901) أن تزوره في فالمون. لكنه طلب منها الآن عدم الحضور، قائلا: «لا تحضري، فإن غرفتي مليئة بالجن».

وفي 13 ديسمبر كتب إلى لو سالوميه Lou Salome، فاشتكى من سوء أحواله الصحية وقال: «يا لو! لست أدري كم عدد الجحيمات (جمع جحيم) وأنت تعلمين كيف جلبت على نفسي الألم الجسماني الكبير. وليكن استثناء بعده تكون العودة إلى الهواء الطلق».

وقد أخبر الدكتور همرلي السيدة لو سالوميه بحال رلكه وأنه مصاب بلوكيميا حادة، ثم قال: «ويبدو لي أن إخبار المريض (= رلكه) بتشخيص حالته هو أمر خطر الآن».

وفي رسالة من السيدة فوندرلي إلى لو سالوميه قالت: «أنت تعرفين عنه كل شيء، من البداية حتى اليوم. وأنت تعلمين إيمانه بك غير المحدود- إنه يقول: «لو» يجب أن تعرف كل شيء - ربما تعرف لي عزاء» فترد عليها «لو» (بتاريخ 21 ديسمبر 1926) قائلة:

كلا! إني لا أعرف أي عزاء. لا عزاء بالنسبة إليك ولا بالنسبة إلي أنا».

وكان الدكتور همرلي قد أخبر الناشر كبنبرج عن حالة رلكه. فكتب كبنبرج إلى رلكه يقول: «من كل قلبي أرجوك ألا تكون لديك أية هموم فيما يتعلق بالأمور المادية... انظر! إن أموالي هي أيضا أموالك أنت».

ويصف رلكه حال نفسه في بطاقة كتبها بالقلم الرصاص إلى رودلف كسنر Kassner. فقال: «إنني مريض على نحو بائس أليم إلى غير حد. إن تغيرا-غير معروف إلا قليلا-في الدم هو نقطة البداية لأحداث مروعة جدا في كل الجسم». (رسالة بتاريخ 15 ديسمبر). ويسأله أن يخبر الأميرة ماريه تاكسس «بالقدر الذي يراه مناسبا لها». ثم يسأله: «وأنت، يا عزيزي كسنر، كيف كانت باريس بالنسبة إليك؟».

وفي منتصف ديسمبر 1926 يكتب رلكه في مذكرة الجيب آخر قصيدة ومطلعها:

«تعال أنت، يا آخر من أتعرف إليه
أنت أيها الألم، الذي لا يمكن برؤه، في نسيج الجسم».

ويصف الدكتور همرلي في رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 25

فبراير 1927) الأيام الثمانية الأخيرة من حياة رلكه (أي 21 إلى 29 ديسمبر سنة 1926) فيقول: «لقد بقي رلكه في الأيام الثمانية الأخيرة (من عمره) هادئا، وعيناه نصف مغلقتين، ناصع الوعي، على الرغم من أن درجة حرارته كانت 40 درجة باستمرار».

وفي 21 ديسمبر كتب رلكه إلى الشاعر الفرنسي جول سوبرفييل Jules Su pervielle (1884- 1960) يقوله:

«أنا مريض جدا، مريض مع ألم وشقاء وتواضع. وأجد نفسي-للحظة -في وعي عذب بأنه أمكن إبلاغي- هناك في ذلك المستوى الذي لا يمكن تحديده والقليل الحظ من الإنسانية - بها بعثت به وبكل ألوان التأثير الذي يأتيني. إني أفكر فيك، أيها الشاعر والصديق. وفي فعلي هذا أنا أفكر أيضا في العالم، هذه الشذيرة المكسورة من آنية تتذكر أنها على الأرض (لكن هذا الاستعمال السيئ لحواسنا و«لقاموسها» بوساطة الألم الذي يتصفح أوراقه!)»

وفي 23 ديسمبر كتب بيده إلى بالادين Baladine، فقال: «لقد حبست هذه المرة لوقت طويل، مع آلام تتجاوز احتمال الإنسان: مرض في خلايا الدم، ليس معروفا حتى الآن إلا قليلا، ولابد أنه تهيأ في داخلي طوال ثلاث سنوات... وإذن أنا مريض مسكين بائس. ولا أملك إلا أن أرجوك أن تثقي بأنني أتلقى كل ألوان العناية. وقد حضر الكثيرون من مشاهير الأطباء للتشاور مع الدكتور همرلي في حالتي، وسيعودون. وإذا حثك قلبك الصديق على المجيء، فستكون تلك نصيحة سيئة، وباستثناء الممرضة - وهي ممتازة لا أحد يدخل عندي». وقد ردت عليه بالادين برسالة لم تصل إلا بعد وفاته.

وكان الدكتور همرلى قد استدعى الدكتور نيجلي Naegli، الطبيب في زيورخ، للحضور. ومن ناحيته أرسل الناشر كبنبرج الأستاذ الدكتور بفايفر Richard Pfeifer (1877-1957)، الأستاذ في كلية الطب بجامعة ليبتسج Leipzig-إلى فالمون للكشف على رلكه.

لكن رلكه لم يعتقد أن الأطباء سينقذون حياته. لهذا قال للسيدة فوندرلي: «ساعديني على موتي. إني لا أريد موت الأطباء. إني أريد حريتي» وعن الموت قال لها: «إني أعرفه من قبل معرفة جيدة» (من رسالة بعثت بها السيدة فوندرلي إلى السيدة نيلكه Nolke، بتاريخ 16 فبراير 1927).

وتقول أيضا في الرسالة نفسها: «وكان علي أن أقرأ له بالفرنسية غالبا

من الساعة الثالثة حتى التاسعة». وفيما يتعلق بالقراءة له في أيامه الأخيرة، يقول الدكتور همرلي في رسالة إلى الأميرة ماريه تاكسس (بتاريخ 25 فبراير 1927): «حتى اليوم الخاص قبيل وفاته، كان يطلب من الممرضة أن تقرأ له قليلا بعد الظهر، لا قراءة عميقة، بل الأخبار في الصحف الأدبية، ومجلة «العالمين» Revue des devy Mondes، إلخ. ومعظم النهار كان يفضل أن يتأمل هادئا دون أن يفتح عينيه».

ويقول في الرسالة نفسها: «وعلى الرغم من آلامه حتى الأيام الثلاثة الأخيرة من مرضه، فإنه لم يخطر بباله أبدا أنه ليس من الممكن إنقاذ حياته».

ثم يقول: «وفي اليومين الأخيرين كان ضعيفا للغاية. وفي يوم 28 ديسمبر، بدأ منذ الساعة الثالثة في النوم، وطلب منا أن نتركه على هذه الحال أطول مدة ممكنة، دون فقده الوعي تماما... ونام على هذه الحال حتى نحو منتصف الليل، حين فقد وعيه».

ثم يصف موته في صباح يوم 29 ديسمبر 1926 فيقول:

«وفي الساعة الثالثة والنصف، رفع رأسه قليلا، وعيناه مفتوحتان ثم سقط ميتا بين ذراعي. وكانت السيدة فوندرلي والممرضة حاضرتين».

وحمل رلكه في تابوت من المستشفى، ونقل على عربة إلى الكنيسة، حيث سجي هناك إلى حين نقله إلى قرية رارون Raron. ولم يؤخذ له رسم ولا صورة فوتوغرافية وهو مسجى في نعشه، كما لم يصنع له قناع ميت.

دفنه

وتقرر دفنه في يوم 2 يناير 1927. وتم الدفن في مقبرة تربة رارون Raron، بناء على ما كان قد أوصى به في وصيته التي أوردناها من قبل.

فتجمع نفر من أصدقائه وصديقاته في مدينة سيير Sierre في يوم أول يناير، استعدادا للدفن في اليوم التالي.

- وكان من بينهم: السيدة الوفية إلى آخر لحظة، ناني فوندرلي-فولكرت، وابن عمها (أو خالها) فرنر راينهرت، مالك قصر ميزوت.
- وأنطون كبنبرج وزوجته كترينا، وهو ناشر كتب رلكه.
- ورجينا أولمن Regina Ullmann.
- والسيدة ألبير-لازار Albert Lazard.
- وألما مودي Alma Moodie.

ودفن رلكه في مقبرة رارون المجاورة للكنيسة. وفي الكنيسة قرىء قداس هادىء. وعزفت ألما مودي على الأورغن قطعة موسيقية من تأليف باخ Gohann S. Bach.

وألقى إدورد كورودي Eduard Korrodi (1885- 1955) - رئيس قسم الملحق الأدبي لـ «جريدة زيورخ الجديدة» Neue Zuricher Zeitung-أكبر جريدة في سويسرا-خطبة تأبين نيابة عن «مؤسسة شلر السويسرية» وعن «اتحاد الكتاب السويسريين».

وبعد ذلك بفترة تحلفت الأميرة ماريه تاكسس بعض الأصدقاء أن يضعوا على قبر رلكه تاجا من الغار، أرفقت به هذه العبارة:

«إلى الشاعر المنقطع النظير والصديق الوفي».

مآل تراث رلكه

كتبت السيدة فوندرلي بتاريخ 16 فبراير 1927 إلى السيدة نيلكه Nulke تقول: «إني فخورة جدا بأنه أراد أن يستريح (الراحة الأبدية) في أرضنا سويسرا... ولذكراه نريد أن نترك ميزوت على حاله كما تركه هو».

وكان الناشر كبنبرج، في مساء اليوم السابق على الدفن، قد ذهب إلى ميزوت وأخذ معه كل ما وجده هناك من أوراق مكتوبة لرلكه ودفاتر مذكراته. وهذه المخطوطات هي التي ستصبح فيما بعد نواة «محفوظات رلكه» Rilke Archiv التي بالتفاهم مع أصدقاء رلكه السويسريين صارت وديعة تولاها ابنته راعوث مع زوجها كارل زيبر Carl Siebr.

وفي سنة 1929 سيبدأ بنشر مراسلات رلكه بمجلد عنوانه: «رسائل من السنوات 1902 حتى 1906»، أشرف عليه راعوث رلكه وزوجها كارل زيبر، عند ناشر رلكه Insel Verlag في ليبتسج. وكانت «محفوظات رلكه» أولا في مدينة فيمار Weimar ثم نقلت بعد ذلك إلى بلدة فشرهودة Fischerhude، وصارت الآن في بلدة Gernslauh.

كذلك توجد «محفوظات رلكه» أخرى في برن، عاصمة الاتحاد السويسري، ومقرها في المكتبة الوطنية السويسرية في برن.

وكثيرا ما لجأت إلى محفوظات رلكه في برن للاطلاع على ما يهمني منها، إبان عملي مستشارا ثقافيا في السفارة المصرية في برن في المدة من أول مارس 1956حتى 23 نوفمبر 1958.

وكانت زيارتي لقبر رلكه هي في يوم الأحد العشرين من شهر يوليو 1958، بعد أن طوفت بقصر ميزوت، وقد صار متحفا يحتوي على بعض آثار رلكه. ووقفت على القبر طويلا ونفسي جياشة بالذكريات والانفعالات التي عبرت عنها في هذه القصيدة:

يـا قـبـر رلـكـه فـي «رارون» تـذكـرة
بـالـشـاعـر الحـي بـين الـورد والمـلـك
هـيـجـت فـي الـنـفـس أشجـانـا مـجـلـلـة
بـ «الـفـقـر والمـوت» والأشـبـاح والـهـلـك[1]
أودى وخـلـف آثـارا مـخـلـدة
مـا دارت الـشـمـس والأقـمـار فـي فـلـك
إن بـث فـي شـعـره صـورا لحـركـهـا
مـثـل الخـيـالـة[2] بـين الـنـور والحـلـك[3]
وإن تـخـيـل أبـطـالا تـخـيـلـهـم
فـرائـس الحـلـم، والمـأسـاة والـعـرك
يـا صـاحـب الـقـبـر أكـم أغـريـت سـيـدة
مـن عـلـيـة الـقـوم بـالإعـجـاب والـولـع
فـكـن حـولـك كـالأزهـار نـاضـرة
فـي روضـة الـفـن ذات الحـب والـيـنـع
مـن آل تـاكـسـيـس: «مـاريـاً»، وواعـجـبـا
مـن قـصـرهـا الـفـذ ذي الإلـهـام والـفـزع
مـن آل: فـلـكـرت: «نـنـي»، والـوفـاء بـهـا
طـبـع تـأصـل فـي دنـيـا مـن الخـدع
كـلـتـاهـمـا كـانـت المـعـوان فـي مـحـن
وكـانـت الأمـن فـي جـو مـن الجـزع
أمـا الـصـواحـب مـن أهـل الـفـنـون فـقـد
رمـن الـتـسـلـق كـالـعـلـيـق فـي الـشـجـر
أمـا الـرجـال: فـمـا «جـيـد» ومـا «فـالـري»
ومـا المحـمـق «روادن» سـوى غـدر[4]

كـم لاطـفـوك لـكـي يـقـضـوا مـآربـهـم
واستـنـكـروك مـتـى أصـبـحـت فـي الـنـكـر[5]
كـنـت المـفـسـر لـلألمـان مـا كـتـبـوا
هـل عـرفـوا «الـغـال»[6]، مـا أبـدعـت مـن غـرر
كـنـت الـوفـي وهـم زمـوا[7] أنـانـيـة
ويـل الـوفـي مـن الخـداع والـنـكـر
يـا شـاعـر المـوت فـي دنـيـا مـلـفـقـة
أمـضـيـت عـمـرك فـي الـتـجـوال والـسـقـم
حـلـمـت بـالـنـبـل-هـل فـي الـنـبـل مـفـخـرة
لمـن تـزود بـالإلـهـام والحـكـم
حـبـيـت ذوق ربـاع الـفـن أروعـه
الـشـعـر والـنـحـت، والـتـصـويـر والـنـغـم
كـانـت حـيـاتـك تـرنـيـمـا وزمـرمـة
تـكـسـو المـعـانـي بـجـر الـلـفـظ والـكـلـم
فـاهـنـأ بمـا نـلـت مـن مـجـد وتـكـرمـة
واهـنـأ بـخـلـدك بـين الـنـاس والأمم

الهوامش

هوامش الفصل الأول

(1) راجع دراسة وافية عن أسرة رلكه كتبها يوسف فلايشمان، ونشرت في عدد عيد الميلاد لسنة 1935 من مجلة Inselschiff، وتصعد هذه الدراسة بالأسرة حتى سنة 1600.

(2) Carl Sieber: Die Jugend R. M. Rilke وهو خير كتاب عن طفولة رلكه. وكارل زيبر هو زوج بنت رلكه، راعوث .Ruth وقد تزوجا في 1922 وتوفيت هي في 1972.

(3) أي قاله مثلما جاءه دون أن يتأنق فيه.

(4) نشر لبمن Lippmenn في كتابه: «راينر ماريا رلكه» شهادة امتحاناته في السنة الرابعة (1889-1890) ومنها يظهرأن ترتيبه كان 12 على 51 تلميذا.

(5) Curt: Hohoff: Munchen¡s. 276 f. Munchen1970

(6) فلهلم هاوزنشتين: «الحب لمنشن» ص 249- 254. منشن ط 1 سنة 1948، ط 4 سنة 1964.

هوامش الفصل الثاني

(1) يقصد كتابه: «صحائف مالتي لوردز برجّه».

(2) «مراسلات رلكه مع أندريه جيد» ص 38. عند الناشر كوريا.

(3) لقب كانت الأميرة تلقب به رلكه. والسرافي Serafin نسبة إلى الملائكة السرافيين في مقابل الملائكة الكروبيين.

هوامش الفصل الثالث

(1) نشر هذا الفصل من قبل في مجلة «المجلة» سنة 1959، ثم في كتابنا «في الشعر الأوروبي المعاصر» (ص1- ص 31)، ط1 القاهرة 1965.

(2) عقبة بن نافع بن قيس الفهري، ولد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (ج3 ص 1075، نهضة مصر): لا تصح له صحبة. ولاه عمرو بن العاص أفريقية (تونس) سنة 41 هـ. وقتل عقبة بن نافع سنة 63 هـ بعد أن غزا السوس الأقصى، قتله كسيلة بن لمرم.

(3) محكمة التاريخ التي تعقدها هذه الآثار، بالوقائع التي ترويها وما جرى للملوك.

(4) يقصد كتب دلائل الآثار، ورلكه يسخر منها لأن المشاهدة المباشرة أهم من معرفة أسماء هذه الآثار.

هوامش الفصل الرابع

(1) راجع وصفا لزيارتنا لمدينة طليطلة لأول مرة في سبتمبر 1949 في كتابنا «الحور والنور». القاهرة 1951.

(2) وهي: «الإلياذة» لهوميروس، و «الكوميديا الإلهية» لدانته، و «دون كيخوته» لثربانتس، و«فاوست» لجيته. راجع مقدمة ترجمتنا لرواية «دون كيخوته»، القاهرة، 1961 (الجزء الأول)، و 1966 (الجزء الثاني).

(3) هذه الرواية الضخمة نشرها رومان رولان أولا في مجلة «كراسات الخمسة عشر يوما» في الفترة من سنة 1904 إلى 1912 في 17 كراسة، ثم جمعت بعد ذلك في عشرة أجزاء. وتدور أساسا حول حياة جان كرستوف الذي كان موسيقارا وابن موسيقار. وفي هذه الرواية يصف المؤلف تجربة حياته، ويقدم رؤية كاملة، نقدية وغنائية للعالم العقلي الفرنسي والأوروبي منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين، مستعرضا كل الانفعالات والأيديولوجيات التي اضطربت بها تلك الفترة وما أثارته من أحداث: ومن هنا جاء تشعبها وتعقدها وتشوشها، وهي الصفات التي نفر منها رلكه.

(4) الأجزاء الثلاثة الأولى تحمل العنوانات الفرعية التالية «الفجر»، «الصباح»، «المراهقة» وفيها يتناول المؤلف نشأة هذا الموسيقار في مدينة صغيرة هادئة في الراين والشخوص المألوفة التي أحاطت به، ثم اكتشافه للموسيقى وسلطانها على النفوس، وتعلمه الموسيقى، وغرامياته الأولى، وبدء شعوره بالآلام والمحن.

(5) كان فرفل على رأس جماعة من حركة النزعة التعبيرية في الشعر الغنائي والمسرح تدعو إلى التآخي بين بني الإنسان. وقد عبر عن هذه النزعة الإنسانية في المؤلفات التالية: «صديق العالم» (1911)، «نحن» (1913)، «مع بعض» (1915). لكنه نحا بعد ذلك نحو واقعية نفسية، خصوصا في وصفه للمؤمنين وللمتألمين بين بني الإنسان والشعوب، وتجلى ذلك في قصتين «أنشودة برنادت» (1941) و«بربارة أو التقوى» (1929)، وفيهما يتجلى ميله نحو الكاثوليكية، رغم أنه كان يهوديا حتى آخر عمره-ورلكه يرى أن فرفل لم يكن صادقا فيما عبر عنه من نوازع.

(6) سفينة بخارية صغيرة فيها غرف للنوم، وتبحر على النيل. وكان يستخدمها-إلى جانب الأثرياء وزراء ا شغال ورؤساء الوزارات في جولاتهم على الأقاليم. ولا أدري الأصل في هذه التسمية:«ذهبية»!

هوامش الفصل الخامس

(1). Rilke et Benvenuta: Lettres et Souvenirs tr. Française Par M

.35. Betz. Paris, 1947, P

(2) «رلكه وبنفنوتا»، الترجمة المذكورة، ص 61.

(3) «الرسائل بين رلكه وماريه تاكسس»، جا ص 369. زيورخ، 1951.

(4) ننبه القارئ إلى هذا القول الذي يدل على أن العلاقة بين رلكه و«ماجدا» لم يدخل فيها أي عنصر جنسي، بل كانت عفيفة كل العفة.

(5) «رلكه وبنفنوتا»، ترجمة فرنسية، ص 234- 235.

(6) أخت «ماجدا».

(7) رسام إيطالي (نحو 1400-1455) تحفل لوحاته بالرموز الدينية وبنضارة الألوان، وبروح التقوى الإشراقية، والقداسة النورانية.

هوامش الفصل السادس

(1) وهو اللقب الذي يلقب به القديس فرنشسكو الذي من مدينة أسيزي، لأنه دعا إلى الفقر، وتخلى عن الثروة التي ورثها عن أبيه.

(2) توفي تولستوي في سنة 1910، وتوفي سيزان في سنة 1906، فلم يشهدا إذن الحرب العالمية الأولى.

(3)Der Golem:) قصة للكاتب الألماني جوستاف مايرنك 1865 -1935، ظهرت سنة 1915)، وفيها. يستدعي المؤلف أسرار حارة اليهود في براج. و«الجولم» تمثال من الطين تسري فيه الحياة بوساطة حيل السحر (القبالة اليهودية) وبسبب كوارث... وهذا التمثال من طين رمز للناس-الآلات في المجتمع المعاصر بمقتضياته التي لا ترحم والتي تفرض على الإنسان فرضا ولا يستطيع أن يتحرر منها. وكلمة «جول» كلمة عبرية معناها «مخلوق» وتدل في كتب القبالة على خلق إنسان صناعي

(4) قصة من تأليف يعقوب فاسرمن 1934 -1873(Wassermann)، صدرت سنة 1915، وفيها يصف المؤلف مأساة فنان فقير معذب في المحيط الضيق لمدينة فرنكية (هي نورنبرج) يستمتع بالعيش البائس الحقير.

هوامش الفصل السابع

(1) شاعر سويسري يكتب بالألمانية. وملحمته «برومثيوس وابيمثجوس» (1888) قد كتبها بنثر إيقاعي، وبأشكال عتيقة أحيانا، وفيها يعبر عن تمرده على الآلهة وعلى المحرمات الاجتماعية والأخلاقية. وقد قارن النقاد بين هذه الملحمة وبين كتاب نيتشه: «هكذا تكلم زرادشت» الذي صدر بعدها (في العامين 1883- 1885). وقد جدد اشبتلر في الأسطورة اليونانية تجديدا شاملا، ومزجها بعناصر من الكتاب المقدس وعناصر غنوصية ومسيحية. وبرومثيوس يمثل هنا إخلاص الإنسان لنفسه، بينما أخوه أبيمثيوس يقدم إليه ملاك الله تاج العالم، لأنه تخلى عن نفسه كيما يبقى بضميره الأخلاقي وحده.

(2) جورج بتوئيف (تفليس في روسيا 1884- جنيف 1939) ممثل ومخرج مسرحي من أصل روسي ثم تجنس بالجنسية الفرنسية، إذ جاء إلى فرنسا سنة 190٥، ثم استقر بعد ذلك في جنيف (1915- 1919) مع فرقة من الممثلين الكوميديين. وعاد إلى باريس فأقام بها من سنة 1924 إلى 1939 في مسرح الماتوران. وقد أخرج ومثل أكثر من ماثلة مسرحية. وبفضله تعرفت فرنسا إلى مسرحيات نخبة من مؤلفي المسرحيات العالمية: تشيخوف، بيرندلو، برنرد شو، جووكي، أونيل، كلوديل وأنوي.

(3) Sonnets Frum the Portogulse : مجموعة من ثلاث وأربعين سوناتة من تأليف الشاعرة الإنجليزية إليزابث بارت براونج (1806- 1861 في سنة 1847). وقد طبعت أولا بعنوان Sonnets of E.B.B، ثم طبعت في سنة 1850 بالعنوان النهائي الذي أوردناه أولا، وقد يوهم أن السوناتات «مترجمة» عن البرتغالية. والواقع أن هذه السوناتات هي من تأليف إليزابث براونج، وإنما جاءت عبارة: «من البرتغالية» من كون إحدى القصائد موضوعها هو: من كاترين الى كاموئنس»، وكاموئنس شاعر برتغالي شهير. وموضوع هذه السوناتات كلها يدور حول الحب: وهذا الحب نوع من

العشق الإلهي الصوفي. وفيها حرارة وجدان مشبوب، وتعبير عن تجديد روحها بوساطة الحب.

(4) آلة موسيقية ذات أوتار تضرب بوساطة ريشة طائر، ولها مفاتيح مثل البيانو. وظهرت هذه الآلة عند نهاية العصر الوسيط. ثم حسنت تدريجيا. ولقيت رواجا كبيرا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكانت على شكل متوازيات من الأوتار، وتوضع على منضدة للعزف عليها. وحل محلها بعد ذلك «الكلافسان» Clavecin. وهذا بدوره حل محله «البيانو Piano»

هوامش الفصل الثامن

(1) طبع هذا الكتاب لأول مرة في سنة 1897، وهو أشهر كتب أندريه جيد (1869- 1951)، وقد صار شديد الرواج بين الشباب طوال أكثر من 50 عاما. وكان تأثيره أخلاقيا أكثر منه أدبيا. وفيه يدعو إلى التخلص من بعض أنواع السلوك الخلقية والعقلية. ومن هنا كان ذا نزعة تعليمية. ولا تأليفه تأثر جيد خصوصا بكتاب «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه. وفيه أصداء للكتاب المقدس خصوصا لسفر «نشيد الأناشيد» ولرحلاته في شمالي أفريقيا (الجزائر وتونس). وقد اصدر في سنة 1935 كتابا جديدا بعنوان «الأغذية الأرضية الجديدة». تسري فيه روح الشيخوخة و«الخمود» بعد «الحمية» المشبوبة التي كانت في الأول.

(2) كلمة يونانية معناها: الانتصار. وهو يجسد في التماثيل اليونانية بجناحين.

(3) عارض بها الشاعر الفرنسي الذي مات شابا (1733- 1767) جاك دي مالفيلاتر Jacques de Malfilatre الذي نظم قصيدة مؤلفة من أربعة أناشيد، عنوانها: «الإله نرسيس في جزيرة فينوس» وقد نشرت بعد وفاته بعامين، وذلك في سنة 1769.

هوامش الفصل التاسع

(1) «صباح عز كتبي»، ص 7- 8. منشن، 1946.

(2) الذي ترجم إلى الفرنسية «ألف ليلة وليلة»، وصدرت هذه الترجمة في باريس فيما بين سنة 1898- 1904.

هوامش الفصل العاشر

(1) اعتمدنا في هذه المعلومات على ما ورد في كتاب. La Derniere amitie de Rainer Maria Rilke Lettres inedites a Madame Eloui Beg, avec une ekude Par Edmund Jaloux، باريس، 1949. وإدمون جالو اعتمد بدوره على المعلومات التي تلقاها من جورج قطاوي فيما يبدو.

(2) «أوراق حرة» كانت مجلة أدبية يديرها مارسل رافال من سنة1918 إلى 1928.

(3) هنا رلكه يتهكم على حبها للسرعة في قيادتها لسيارتها.

(4) توفيت في نيويورك سنة 1990.

هوامش الفصل الحادي عشر

(1) الهلك (بضم الهاء واللام): النفس الهالكة.

(2) الخيالة: السينما.

(3) شدة النفس في القتال.

(4) غدر: جمع غادر

(5) النكر: الأمر الشديد.

(6) La gule = فرنسا.

(7) زموا: امتلأوا

المؤلف في سطور:

د. الدكتور عبد الرحمن بدوي

* حصل على شهادة الدكتوراه برسالته في «الزمان الوجودي» بإشراف الدكتور طه حسين سنة 1943.

* أسس ورأس قسم الفلسفة في جامعة «عين شمس» منذ 1950 حتى ترك الجامعة في سبتمبر 1971.

* عمل في عدد من الجامعات العربية، منها بنغازي والكويت وبيروت.

* عمل مستشارا ثقافيا ومديرا للبعثة التعليمية المصرية في «بيرن» من 1956- 1958.

* انتدب في 1967 أستاذا زائرا لإلقاء محاضرات في السوربون.

* له أكثر من مائة وخمسين كتابا في تاريخ الفلسفة والدراسات الإسلامية والأدب الأوروبي..

* ترجم عددا كبيرا من روائع الأدب الألماني (جوته وبريشت وغيرهما).

* له فضل عظيم على الثقافة العربية بما حققه من مخطوطات، وما قدمه من دراسات وترجمات من كثير من اللغات الأوروبية الحديثة.

* ألف في السنوات الأخيرة عددا من الكتب باللغة الفرنسية في انتقال الثقافة اليونانية إلى الغرب عن طريق العرب، وفي الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، وأخيرا في الدفاع عن الإسلام.

* يقيم حاليا في باريس عاكفا على دراساته الخصبة المتنوعة.



الشفاهية والكتابة

تأليف: والتر ج. أونج

ترجمة: د. حسن البنا عزالدين

هذا الكتاب

في هذا الكتاب لمحة عن التيارات الرئيسية في الأدب الألماني المعاصر في الفترة ما بين عامي 1875 و1930 (وهي: الواقعية، والطبيعية، والتعبيرية، والرمزية الصوفية)، وكانت تعبيرا صادقا عن الانقلابات الهائلة في ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والصناعية، وما واكب ذلك من طموحات إنسانية إلى مزيد من التقدم الروحي والانتصار للقيم الرفيعة والتعاون العالمي وتجديد القيم.

ومن هنا تعددت محاولات التجارب الفنية في الشعر والقصة والمسرحيات. وكان للحرب العالمية الأولى أثر بالغ في توجيه المبدعين من الأدباء الألمان نحو آفاق لم يتطلع إليها أسلافهم من قبل، مما جعل هذه الفترة ثاني أخصب فترة في تاريخ الأدب الألماني كله وأكثر عمقا وثراء من سائر الآداب الأوروبية في الفترة نفسها.

وكنموذج ممتاز لهذه المنظومة من الأدباء قمنا بدراسة متعمقة للشاعر راينر ماريا رلكه، الذي زار مصر وتونس والأندلس، وتغنى بالحضارتين المصرية والعربية، ومجد الإسلام على نحو قلما نجده عند الشعراء الأوروبيين.